OK 34 / 1993

الفهـــــرس

صالح المغيربي (1934 ـ 1993)

في 27 فيفري 1993 اختطفت يد المنون صالح المغيربي وهو في عز العطاء مخلّفا في نفوس أقاربه وأصدقائه وزملائه وتلامذته اللوعة والأسى، إثر مرض خبيث لم يمهله منذ ظهرت أعراضه الأولى سوى سنة وبعض السنة.

ولد صالح بن محمد المغيربي في 18 نوفمبر 1934 بتونس العاصمة ـ نهج عبد الوهاب بباب الجديد ـ من أسرة أصيلة منزل تميم بالوطن القبلي. كان والده يتعاطى التجارة، أما جدّه الحاج صالح فكان من شيوخ الزيتونة وقد تتلمذ عليه، من جملة من تتلمذ، الشاعر الشهير جلال الدين النقاش.

دخل صالح المدرسة الابتدائية التابعة للصادقية سنة 1938، ثم أجبرته ظروف الحرب العالمية الثانية على قضاء سنة 1942 ـ 1943 بمنزل تميم، وعاد إثرها إلى نفس المدرسة وتحصل منها سنة 1947 على شهادة الدراسة الابتدائية كما نجح في مناظرة الدخول إلى السنة السادسة، فالتحق بالمعهد الصادقي حيث تتلمذ على عدد من أعلام أساتذة هذا المعهد ومن بينهم الأستاذ الشاذلي بويحيى والمرحومان الصحبي فرحات والشيخ محمد الفاضل ابن عاشور. وقد نال في سنة 1951 شهادتي «البروفي العربي» (Brevet d'arabe) و«بروفي» دراسات المرحلة الأولى (B.E.P.C.). وبعد سنتين نجح في امتحانات الجزء الأول من

الباكالوريا والديبلوم الصادقي، وتوّج دراسته الثانوية بالجزء الثاني من الباكالوريا سنة 1954. والتحق إثرها بالتعليم فعيّن معلما بمدرسة نهج فوبان (Vauban) ـ شارع علي طراد حاليا ـ حيث درّس سنة 1954 ـ 1955. وكان يعدّ في أثناء هذه السنة الشهادة التمهيدية للإجازة (Propédeutique) في معهد الدراسات العليا بتونس، ونجح فيها ثم عيّن في سنة 1955 ـ 1956 معلما بالمدرسة الابتدائية بنهج قاروس بباب الخضراء.

سافر إلى فرنسا سنة 1956 لمواصلة دراسته الجامعية فقضى فيها ثماني سنوات انتقل فيها من ديجون (Dijon) إلى بيزنسون (Besançon) فإلى باريس من 1956 إلى 1960. ومن كلية الآداب ببيزنسون تحصل على شهادات الإجازة في اللغة والآداب الإنقليزية : الدراسات العملية سنة 1957 وفقه اللغة سنة 1958 والأدب سنة 1959. ثم انتقل إلى أكس أون بروفانص (Aix-en-Provence) فقضى فيها سنتين نجح في الأولى منهما في شهادات الإجازة الثلاث في العربية وفي امتحانات السنة الأولى من الإجازة في العلوم السياسية، ونجح في الثانية منهما في امتحانات السنة الثانية من الإجازة في العلوم السياسية ـ وكان من أساتذته في هذا الاختصاص المؤرخ الفرنسي الشهير جورج دوبي (Georges Duby) ـ وفي ديلوم الدراسات العليا (D.E.S) برسالة عن رواية زينب لمحمد حسين هيكل. وعن هذه الرسالة منحته مدينة أكس جائزة أفضل طالب لسنة 1961 ـ 1962. وكان المؤرخ الفرنسي المختص في تاريخ المغرب روجي لي تورنو (Roger Le Tourneau) من أساتذته في كلية أكس فسعى إلى تعيينه أستاذا في المعهد العسكري بهذه المدينة، وهكذا كان صالح يشغل خطة أستاذ عربية في هذا المعهد مدة السنتين اللتين قضاهما في أكس وهو يتابع دراسته الجامعية الثرية المتنوعة المشارب والاهتمامات.

ثم عاد إلى باريس لإعداد مناظرة التبريز في العربية من جامعة السربون ولكنه لم يتقدم للمناظرة في دورة 1963 لبعض الظروف الخاصة ونجح فيها في الدورة الموالية سنة 1964 حين تقدم لها. وشغل وهو يعد التبريز في السنتين خطة مكرر بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس. وكان تعرف في إقامته الأولى بباريس على فتاة فرنسية من السفوا العليا (Haute Savoie) وتزوج بها في أكس سنة 1960 ورزق منها بابنته منية سنة 1962 بأكس كذلك وبابنه هشام سنة 1963.

كان صالح يرجع كل صائفة إلى تونس لقضاء العطلة الصيفية ولكنه قضى السنوات الأربع الأخيرة من إقامته في فرنسا دون الرجوع إلى أرض الوطن، فلما عاد مبرّزا عيّن أستاذا بالمعهد الثانوي للذكور بالمنستير وبقي في هذه الخطة أربع سنوات عيّن إثرها سنة 1968 مساعدا للتعليم العالي بمدرسة ترشيح الأساتذة المساعدين ـ وكانت وقتها المعبر شبه الضروري إلى الجامعة ـ فعمل بها ثلاث سنوات مدرّسا ومرشدا بيداغوجيا. وفي أكتوبر 1971 التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس وارتقى في جوان 1973 إلى رتبة أستاذ مساعد. وقد شرع منذ التحاقه بالتعليم العالي في إعداد أطروحة دكتورا دولة عن بني زيري تحت إشراف صديقه لي تورنو، إلا أن وفاة أستاذه المشرف وعدم اتفاقه مع مؤرخ الشام كلود كاهين (Claude Cahen) على الإشراف على نفس الموضوع جعلاه يغيّر وجهته فيعد رسالة عن رحّالي المغرب الإسلامي من القرن السادس / الثاني عشر إلى القرن الثامن / الرابع عشر تحت إشراف أندري ميكال (André Miquel). وقد ناقشها بباريس في 3 جويلية 1986 ونالها بدرجة مشرف جدّا، فكان تأخر موعد المناقشة بثلاثة أيام عن موعد تقديم الترشحات لرتبة أستاذ محاضر سببا في أنه لم يرتق إلى هذه الرتبة إلا في أكتوبر 1987. وأخيرا ارتقى إلى رتبة أستاذ التعليم العالي قبل وفاته ببضعة

أسابيع. وفي الأثناء انتخبه زملاؤه في قسم العربية بكلية الاداب بمنوبة في أفريل 1990 مديرا لقسمهم، وتوفي وهو يشغل هذه الخطة، وكان في السنة الأخيرة من حياته يتابع نشاط القسم وهو على فراش المرض يعاني ويلاته ويسعى إلى الاضطلاع بمهامّه في الفترات القصيرة التي يمهله فيها الداء.

إن كل الذين عرفوا صالح المغيربي عن كثب يقدّرون فيه الجامعي الحريص على صرامة التكوين، الكاره للرداءة والسهولة، الغيور على القيم الجامعية، وقد تجلى ذلك في كل المناسبات التي كان الاضطراب الذي يسود الحركة الطلابية يهدد فيها سلامة التكوين أو التي كانت القرارات والمبادرات السياسية تمس فيها من حرمة الجامعة واستقلاليتها. وإن إيمانه الراسخ بهذه القيم هو الذي كان يوجّه مواقفه وهو يناضل في صفوف نقابة التعليم العالي والبحث العلمي التي كان من أوائل المنخرطين فيها منذ تأسيسها وحين تولى الكتابة العامّة لفرع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس التابع لهذه النقابة. لقد كان ـ وهو الحاد الطبع ـ يحسن الاستماع إلى الأراء المخالفة، إلا أنه لم يكن يحسن المجاملة والمداراة بل كان جريئا في الدفاع عما يؤمن أنه الحق والمصلحة العامّة دون حسابات أو خلفيّات شخصية، ولم يثنه عن مواصلة النضال النقابي إلا سلوك بعض الفئات التي كانت تمارس المزايدات وتسعى إلى توظيف العمل النقابي لغير ما جعل له. وكان ما عرف به من كفاءة ونزاهة هو الذي أهّله لينال ثقة زملائه حين رشحوه لعضوية اللجنة العلمية للكلية، فكان صاحب التّحاليل التي تتناول جواهر الأمور والآراء المسموعة في الظروف العصيبة، لأن الجميع يعلم أنه لا يرمي إلى مصلحة ذاتية ولا يسعى إلى الإساءة إلى شق معيّن ولا إلى تملق شق آخر، بل كان ديدنه الوفاء لمبادئه بقطع النظر عما عسى أن يترتب عن هذا الوفاء من سوء فهم أو من سوء تقدير.

لقد كان بحكم تكوينه المتين ينفر النفور كله من المعرفة التقريبية والعبارات الجوفاء ويحترز الاحتراز كله من «الصيحات» و«التقليعات» العابرة المرادفة للسهولة أو الجهل، دون أن يمنعه ذلك من متابعة النظريات الجديدة والمقاربات الطريفة في العلوم الإنسانية، ولذا لم يكن يرضيه من طلبته غير المعلومات الدقيقة الموثقة. وكل الذين درسوا عليه في مستوى السنة الثانية أو في مستوى شهادة الحضارة من أساتذية العربية أو الذين أشرف على رسائلهم في نطاق شهادتي الكفاءة والتعمق في البحث أو ساهم في لجان مناقشة رسائلهم، كل هؤلاء يشهدون بأنهم تعلموا منه البحث الجاد والمنهج السليم والعرض الواضح.

ولعل هذه الخصال وحرصه على الكمال مع ما كان يعانيه من ضعف في البنية ومشاكل صحية عرضية أو مزمنة هو السبب في أن إنتاجه العلمي لم يكن غزيرا، فلم يكتب بالإضافة إلى رسالته الجامعية عن رواية زينب وإلى أطروحته عن رحالى المغرب الإسلامي سوى تقديم الرحلة العبدرية بتحقيق محمد الفاسي (حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع، 1972، ص ص 281 ـ 286) وتقديم كتاب حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (العدد نفسه، ص ص 287 ـ 291) وفصل بعنوان «الترجمة الذاتية وفن الرحلة في التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» (العدد العاشر من الحوليات، 1973، ص ص 73 ـ 86. كما كتب البحوث الثلاثة التي يحتويها هذا العدد وهي :

- الجغرافيا البشرية، اتجاهاتها وأعلامها
- النظم والمؤسسات الإسلامية
- نظرة الرحالة المسلمين إلى البلاد الأجنبية : أخبار الصين والهند أنموذجا.

وقد قام صحبة الفقيد صالح القرمادي بتدريس تقنيات الترجمة تعريبا ونقلا باللغة الإنقليزية، ثم تولى تقديم هذا الدرس بالفرنسية بعد وفاة زميله لمدة تسع سنوات كاملة ضمن شهادة اختياريّة. وقد شرع في تعريب درسه قصد نشره ولكن المنية لم تمهله.

رحم الله صالح المغيربي مثالا للكفاءة والشهامة وستبقى ذكراه الطيبة حية في نفوس جميع الذين عرفوه.

عبد المجيد الشرفي

الجغرافيا البشرية اتجاهاتها وأعلامها



تمهيد

جغرافيا كلمة دخيلة تعبّر عن المفهوم اليوناني الذي حدّده الجغرافيون اليونانيون وخاصة منهم بطليموس[1] ولهذا السّبب يقول حاجي خليفة : «جغرافيا علم لم ينقل له لفظ مخصوص»[2]. ومما يدل على أن الكلمة هذه بقيت أعجمية هو أن المؤلّفين العرب لم يدخلوا عليها أداة التعريف الا بعد مدة طويلة وأنهم قلّما استعملوها عنوانا لمؤلّفاتهم. وأول من اختارها عنوانا لكتابه فيما نعلم هو الزّهري الجغرافي الأندلسي (عاش في القرن السادس هـ) الذي سمّى كتابه «كتاب الجغرافيا».

أمّا العناوين التي استعملها العرب فهي كثيرة. أهمّها

- علم الأطوال والأعراض
- صورة الأرض أو تقويم البلديان (أي تحديد مواقعها
- المسالك والممالك
- عجائب البلدان أو عجائب المخلوقات

وهذه العناوين لا تعني الجغرافيا في مفهومها الشامل بل هي تعني فقط بعض أقسامها .فالعنوان الأول والعنوان الثاني يفيدان دراسة العالم دراسة

(1) كشف الظنون طبعة فلوقل (Flugel)ج 2، ص .601

(2) بطليموس (Ptolémée) فلكي وجغرافي يوناني توفّي سنة 168م.

كوسموغرافية[3] كما يفيدان علم الخرائط[4] (La Cartographie) وتحديد أطوال المدن وأعراضها وتقسيم الأرض الى أقاليم[5] وهذا القسم هو الذي يطلق عليه عادة عبارة «الجغرافيا الرياضية» (La Gèographie mathématique) المتأثرة كما سنرى بالنظريات الهندية واليونانية.

والعنوان الثالث والعنوان الرابع يعنيان قسما آخر من العلوم الجغرافية يطلق عليه عادة عبارة «الجغرافيا الأدبية «أو» الجغرافيا الوصفية» وهذا القسم وإنْ استفاد من الجغرافيا الرياضية يتميّز بالأهمّية التي يوليها الى وصف الممالك اداريا واقتصاديا وبالمكانة التي يحتلّها فيه تصوير المجموعات البشرية مادّيا وفكريا وأخلاقيا وبالعناية التي تحظى بها العجائب والغرائب.

والجغرافيا الوصفية هي التي أفرزت كتبا يتجلّى فيها الاعتناء بالأسلوب والحرص على افادة أكبر عدد ممكن من القرّاء اذ هي موجّهة الى المثقفين بصفة عامة لا الى أهل الاختصاص وحدهم.

والجغرافيا الوصفية شأنها شأن كل الأنماط الأدبية قد اتّخذت مظاهر شتّى وذلك حسب الأزمة وشخصية المؤلّفين ويصعب أن نتعقّب كل شكل من الأشكال التي اكتستها الجغرافيا الوصفية في نموّها وتطوّرها ففي كثير من الأحيان يعسر تقييم المؤلفات التي لم تصلنا منها الا نتف أو فقرات زد على ذلك أنّ كتبا أخرى وهي عديدة لا نعرف عنها سوى العناوين، وأخيرا فان الذين كتبوا في الجغرافيا الوصفية لم يقصروا أبحاثهم على فنّ معيّن فهم يجمعون في مصنّفاتهم بين مواد-مختلفة : الكوسموغرافيا والجغرافيا الطبيعية وعلوم المعادن (minéralogie) والحيوان (Zoologie) والنبات (Botanique). كلّ هذا يجعل تعقّب

---

(3) الكوسموغرافيا (Cosmographie) قسم من علم الفلك يقتصر على وصف العالم.

(4) كلمة خارطة معرّبة عن الفرنسية (Carte) وكان هذا التعريب في مصر أيام محمد علي وهي الكلمة المستعملة اليوم - أمّا في القرون الوسطى فقد استعمل العرب قرطاس - المصور الجغرافي - لوح الرسم - لوح الترسيم.

(.5) مصطلح فلكي سيرد التعريف به في الحديث عن الجغرافيا الفلكية (أو الرياضية)

كل فرع من فروع الجغرافيا الوصفية وتحديد دوره في تطوّرها أمرا ليس بالسهل.

تبقى قضية المؤثّرات وهي إجمالا على ثلاثة أنواع :

- نفعيّة مرتبطة بالتوسع الاسلامي سياسيا واقتصاديا
- علمية إذ أنّ الجغرافيا الوصفية كما قلنا قد استفادت من الجغرافيا الرياضية
- نفسية متولّدة عن حب الاطلاع والاكتشاف

من الخطإ أن نظنّ أنّ هذه المؤثّرات قد لعبت دورها كل منها على حدة أو الواحدة بعد الأخرى. كل ما في الامر أنه لم يكن لها نفس التأثير على كل المؤلفين لذلك يمكننا انطلاقا من الآثار أن نحدّد الأنماط التي اكتسبتها الجغرافيا الوصفية.

أ) فمن النصف الثاني من القرن الثالث الى نهاية القرن الرابع ظهرت

- الجغرافيا الادارية :

1) ابن خرداذبه - توفي بعد 272 / 885 - كتاب المسالك والممالك.

2) الجيهاني - توفي بين 309 / 921 و 322 / 934 - كتاب المسالك والممالك.

3) اليعقوبي - توفي بعد 276 / 890 - كتاب البلدان.

4) قدامة بن جعفر - توفي 337 / 948 - كتاب الخراج وصناعة الكتابة.

- الجغرافية في خدمة الأدب : ابن الفقيه - ت بعد 290 / 903 - مختصر كتاب البلدان.

- قصص الرحالين :

1) أخبار الصين والهند لمؤلّف مجهول - ظهر في 237 / 851.

2) أبو زيد السيرافي دوّن في أوائل القرن الرابع قصص التاجر سليمان.

3) عجائب الهند لمؤلف مجهول - ظهر حوالي 339 / 950.

4) أحمد بن فضلان : شارك في سفارة الى بلاد البلغار سنة 309 -

310 / 921 ـ 922 فدوّن مشاهداته في كتاب يحمل عنوان رسالة ابن فضلان.

5) أبو دلف مسعر : ألّف في النصف الأوّل من القرن الرابع رسالتين الأولى تخص رحلة الى آسيا الوسطى وماليزيا والهند والثانية وضعها بعيد 341 / 952 ـ 953 تتعلق برحلة قام بها الى ايران وأرمينيا.

- الجغرافيا الاقليمية :

1) الهمداني تـ 334 / 945 ـ صفة جزيرة العرب.

2) في الأندلس أحمد الرازي توفي 344 / 955 ـ ألف في عهد عبد الرحمان الثالث كتابا في طرق الأندلس وموانيها ومدنها الكبرى وتقسيمها الاداري.

3) وفي الأندلس كذلك وضع محمد بن يوسف الورّاق (تـ 364 / 973) كتابا «كتاب المسالك والممالك» أفرده لوصف المغرب وهذا الكتاب لم يصلنا الا أن البكري قد حفظ لنا منه مقتطفات عديدة.

- المسالك والممالك :

1) الاصطخري تـ 340 / 951 ـ كتاب المسالك والممالك.

2) ابن حوقل تـ بعد 367 / 977 ـ كتاب صورة الأرض.

3) المقدّسي تـ بعد 380 / 990 ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

ملاحظة :

قد يتساءل البعض لماذا لم تدرج كلّ الكتب التي تحمل عنوان «كتاب المسالك والممالك» في نمط المسالك والممالك والجواب هو أن المقياس في التوزيع يستند الى المحتوى والغرض الذي وضع من أجله كل مصنّف فكتاب الرازي مقصور على المغرب وابن خرداذبه والجيهاني كانا يشغلان منصب كاتب (Secrétaire) وكتاب كل منهما موجّه الى الكتاب يتسم بطابع تقني جافّ في حين أن نمط المسالك والممالك يمتاز بالشمول من حيث المضمون وبالعناية

بالتعبير من حيث الشكل وذلك أن ممثلي هذا النمط الذين كانوا واعين بخصوصية أبحاثهم ومناهجها سعوا الى أن يضمنوا لمؤلفاتهم الرّواج فأخذوا بعين الاعتبار ذوق العصر.

ملاحظة أخرى : ان المادة الجغرافية لا تنحصر في المؤلّفات المذكورة فهي مبثوثة في كتب التاريخ والأدب وفي المعاجم والموسوعات وفي هذا الصدد لا بدّ من الوقوف على علمين :

1) ابن رسته : ألف في سنة 291 / 904 موسوعة عنوانها «كتاب الأعلاق النفسية» لم يصلنا الا الجزء السابع وهو يحتوي على مادة جغرافية غزيرة.
2) المسعودي : تـ 355 / 956 أو 356 / 957 - ألف فيما ألف مروج الذهب الذي يزخر بمعطيات جغرافيا طريفة أحيانا والذي لخّصه فيما بعد في كتاب التنبيه والاشراف.

ب) من القرن الخامس الى القرن الثامن :

- المسالك والممالك : زال هذا النمط في المشرق وانتقل الى المغرب فألف فيه خاصة :

1) العذري تـ 478 / 1085 - نظام المرجان في المسالك والممالك - ضائع.
2) البكري تـ 487 / 1094 - المسالك والممالك - لم يصلنا منه الا بعض الأجزاء.
3) الادريسي تـ 560 / 1164 - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

قبل الانتقال الى النمط الموالي لا بدّ من ذكر علم من أعلام الفكر الاسلامي كان له أيضا ضلع في ميدان الجغرافيا وهو :
البيروني تـ 430 / 1048 - كتاب في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة. وفي المغرب كان للأديب ابن سعيد فضل على الجغرافيا العربية - توفي بعد سنة 683 هـ - كتاب الجغرافيا.

- كتب العجائب :

1) زكرياء بن محمد القزويني تـ 1284 / 682 ـ كتاب عجائب المخلوقات.

2) محمد بن أبي طالب الدمشقي تـ 727 / 1328 ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.

- نمط الرحلة : لئن لم يكن هذا النمط غريبا عن المشرق (رسالة ابن فضلان) فانه قد نضج وأصبح فنّا قائما بذاته بالمغرب الاسلامي ومن الذين ألفوا في هذا الفنّ :

1) ابن جبير تـ 614 / 1217 ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار

2) العبدري : دوّن رحلة قام بها الى المشرق سنة 688 / 1289 في كتاب أسماه الرحلة المغربية.

3) التجاني : بعد 717 / 1317 ـ رحلة التجاني.

4) ابن بطوطة تـ 779 / 1377 ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

- المعاجم والموسوعات التي تحتوي على مادة جغرافية

المعاجم :

1) البكري ـ معجم ما استعجم

2) ياقوت تـ 627 / 1091 ـ معجم البلدان

الموسوعات :

1) أبو الفدا تـ 732 / 1332 ـ تقويم البلدان

2) العمري تـ 748 / 1348 ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

3) النويري تـ 732 / 1332 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب

خاتمة :

ان الغرض من هذا التصنيف ابراز الأنماط التي عرفتها الجغرافيا الوصفية لكن يحسن التنبيه الى أن التصنيف لا يعني أن هذه الأنماط كانت مستقلة عن

بعضها البعض ويكفي أن نشير هنا الى أن نمط المسالك والممالك مثلا قد تأثر بصورة الأرض والجغرافيا الادارية وأنه اتخذ من الترحال والعيان طريقة في البحث.

ومن جهة أخرى فقد اقتصر في كل نمط على ذكر المؤلفين البارزين لأن الغاية من هذا ليست عرضا لتاريخ الأدب الجغرافي العربي بقدر ما هي محاولة لتحديد الاتجاهات الكبرى التي سيطرت على الجغرافيا الوصفية والعوامل المختلفة (السياسية - الاقتصادية - الثقافية) التي ولّدت هذه الاتجاهات.

المراجــــــع :

1) دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الثانية - مادة جغرافيا "Djughrafiya" الجزء 2 ص 592 - أنظر كذلك في دائرة المعارف الفصول المتعلقة بالأعلام المذكورين أعلاه.

2) كراتشكوفسكي - تاريخ الأدب الجغرافي العربي - تعريب صلاح الدين عثمان هاشم. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1963 - جزآن - أنظر في الجزء 1 «مدخل» ص 17 - 37 والتعريف بالأعلام المذكورين أعلاه وبمؤلفاتهم.

3) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس - معهد الدراسات الاسلامية - مدريد .1967 أنظر خاصة الفصول المتعلقة بالرازي والورّاق والعذري والزهري وابن سعيد والبكري والادريسي.

4) صالح المغيربي : رحّالو المغرب الاسلامي من القرن السادس الى القرن الثامن هـ (أطروحة دولة بالفرنسية).

I ـ الجغرافيا الرياضية (أو الفلكية)

لن نعالج الجغرافيا الرياضية بوصفها فرعا مستقلاً لأن هذا يتصل بالعلوم الدقيقة وانما سنقتصر على القدر الذي ترتبط فيه الجغرافيا الوصفية بهذا الفرع.

يرجع أصل الجغرافيا العلمية الى الفلكيين الهنود واليونانيين ـ فقد وجدت النظريات الهندية طريقها الى العرب مباشرة بواسطة الترجمة ومما تذكره الروايات أن أحد أعضاء السفارة الهندية الى الخليفة العباسي المنصور في سنة 154 / 771 أو 156 / 773 عالم هندي أحضر معه رسالة في الفلك بجداولها هي رسالة **سيدانتا** (Siddhanta) التي وضعها براهماغوبتا (Brahma Gupta) في سنة 628 م. والرسالة تحتوي على مقدّمة وجيزة وعدد من الجداول الفلكية في تحركات الأجرام السماوية وطلوع الأبراج ومغيبها وقد حسبت هذه التحركات على أساس دورات زمنية تضمّ آلاف السّنين وعلى فرض مؤداه أنه في بداية العالم كانت الشمس والقمر والكواكب مجتمعة على خط واحد وأنها سترجع الى نفس الوضع في نهاية العالم.

وقد أطلق على هذه الرسالة في الترجمة العربية التي قام بها في النصف الثاني من القرن الثاني هـ. ابراهيم الفزاري ويعقوب بن طارق اسم «كتاب السند هند» ثم أطلق هذه العبارة «السند هند» على كل مصنّف في الفلك.

بقي منهج «السند هند» سائدا سيادة مطلقة قرابة نصف قرن الى أن كان عصر المأمون فبدأ يزحمه المذهب اليوناني غير أن هذا لا يعني أن التأثير الهندي قد اختفى نهائيا فالحسن بن أحمد الهمذاني ت 334 / 945 في كتابه «صفة جزيرة العرب» أثبت أطوال مدن العرب المشهورة بما في ذلك مكة والمدنية ابتداء من «الشرق» وفقا لاحدى القواعد الجوهرية للمذهب الهندي الذي يقول بأنّ قبة الأرض «تقع بجزيرة لانكا (سرنديب عند العرب وسيلان حاليا) والمقصود بقية الأرض أو «القبة» وسط الأرض لا وسطها الهندسي (Centre géométrique) بل وسطها الجغرافي أي النقطة التي يتقاطع بها خطّ الاستواء مع خط زوال رئيسي (Un méridien central) والذي منه يكون حساب الأطوال.

فالى مذهب السّند هند يرجع اذن دخول عبارة «قبّة الأرض» أو «القبّة» وكذلك عبارة «أرين» في الجغرافيا العربية. وأرين في الأصل أجين ـمدينة من أعمال مالوه بالهند الوسطى) يمر بها حسب الفلكيين الهنود خط زوال سيلان وفي صورتها العربية تحوّلت أجين الى أزين ثم الى أرين وأصبحت نقطة الانطلاق لحساب الأطوال فباتت مرادفا لقبّة الأرض أو القبّة وظهر مصطلح آخر هو «قبّة الأرين».

لم تجد النظريات الهندية طريقها الى العرب مباشرة فقط بل وصلتهم كذلك في ثوبها الايراني ويتضح هذا مثلا من بعض المصطلحات التي استعملها العرب مبكّرا وأحد هذه المصطلحات كلمة زيح أي الجداول الفلكية ولعل «زيح شاه» الذي يرجع أصله الى العهد الساساني أكثر المصنفات الفارسية انتشارا بين العرب ومن الكتب التي ألفت على المذهب الايراني زيح أبي معشر البلخي (ت 272 / 886) الذي يثبت في مصنّفه هذا عوضا عن جزيرة جمكوت الواقعة على درجة 90 شرقي جزيرة سيلان قلعة كنكدز (Kangdez) الأشعرية التي تزعم الرواية الايرانية أن بانيها أحد الملوك الايرانيين القدامى.

وقد أخذ المذهب اليوناني يضيّق الخناق على المذهبين الهندي والفارسي في الجغرافيا االرياضية العربية منذ بداية القرن الثالث ليصبح المذهب السائد في منتصف القرن الثالث ويرجع عمق تأثير المذهب اليوناني الى حركة الترجمة العلمية التي دعّمها الخليفة المأمون (198 ـ 218 / 813 ـ 833) لمّا نشأ بيت الحكمة ومدّه بهيئة علمية خاصة وجلب لها المخطوطات اليونانية فلم تلبث بغداد أن أضحت مركزا هامّا جدّا لحركة الترجمة العلمية وفي زمن قصيرا انتشرت بين العرب مؤلّفات أبقراط (Hippocrate) وجالينوس (Galien) وأرسطو واقليدش (Euclyde). وفي ميدان الجغرافيا الذي يهمّنا هنا كتابا بطليموس (Ptolémée) «المجسطي» (L'Almageste) و«جغرافيا» «وكذلك كتاب مارينوس الصوري (Marin de Tyr) «جغرافيا» ويرجع الفضل في حركة الترجمة هذه. وكانت غالبا من السّريانية الى مترجمين ممتازين مثل : حنين بن اسحاق (ت 260 / 873) وثابت بن قرة (تـ 288 / 901) واسحاق بن حنين (تـ 298 أو 299 / 910 ـ 911)

وقسطا بن لوقا (تـ 300 / 912) ويمكن القول بأن الاهتمام الأساسي في ميدان الجغرافيا قد تركّز على كتابي بطلميوس «المجسطي» وهو رسالة في الفلك تقع في ثلاثة عشر كتابا بجداولها و«جغرافيا» الذي يحتوي فضلا عن جداول فلكية على نظرية الأقاليم السبعة وعلى احصاء المدن والجبال والأنهار والبحيرات ومن حين لآخر على ذكر خلقة أهل البلدان العامرة وخلقهم. وقد خضعت الجغرافيا العربية للنظريات اليونانية عامة ونظريات بطمليوس خاصة حتى انها لم تستطع التخلّص من بعض الأخطاء بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيرا ما كانت تفنّد هذه النظريات.

لقد ظنّ بطليموس أن المعمور من الأرض يمتدّ من الجزائر الخالدات (Les îles canaries) الى أقصى الصين (أي ما يعادل 180 درجة من الغرب الى الشرق) ومن موضع خط الاستواء الى ثولي في بريطانية (أي ما يعادل 60 درجة من الجنوب الى الشمال) وهذا الجزء يكوّن ربعها وهو ما عرف باسم «الربع المعمور» الواقع في النصف الشمالي كما قسّم الربع المعمور الى سبعة «أقاليم» (Climats) وهي أحزمة عريضة مرتّبة من الجنوب الى الشمال في موازاة خط الاستواء ومبتدئة منه على وجه التقريب وهذا التقسيم وضع على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء ويذهب بطلميوس الى أن المناطق الواقعة خارج هذه الأقاليم السبعة غير معمورة امّا لشدّة البرد في الشمال أو لشدّة الحر في الجنوب واذا كان اعتناق اليونانيين لهذه النظرية الأخيرة له ما يبرّره اذ هم كانوا يجهلون البلاد الواقعة الى الجنوب من خط الاستواء فانّ العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيّدا بعض هذه البلدان مثل زنزبار ومدغشقر حيث رأوا عددا من المراكز المأهولة ولكن رغم هذا فقد بقيت هذه النظرية العقيمة متداولة بينهم وانّهم عدّلوها أحيانا فابن سعيد الذي استفاد من رحلات ابن فاطمة[6] على شواطئ افريقية الغربية ومن رحلات

(6) ابن فاطمة ملاّح عربي لا نعلم عنه شيئا سوى أنه أبحر على طول الساحل الغربي لافريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال وعلى الساحل الشرقي الى سفاله وعرف مدغشقر معرفة جيّدة وقد ذكره ابن سعيد مرّات عديدة في كتابه.

العرب الى الشمال قد قسّم مجموع المعمور على تسعة أقسام المعمور خلف خط الاستواء الى الجنوب والأقاليم السبعة و«المعمور ما بعدها الى أقصى العمارة في الشمال».

على أن هذه الملاحظات لا تعني أن الأمر وقف عند حد الترجمة والاستيعاب بل تعدّاه الى البحث والتأليف فبرز في الميدان النظري أعلام نذكر منهم محمد بن موسى الخوارزمي (تـ حوالي 232 / 846) ومحمد بن كثير الفرغاني (تـ بعد 247 / 861) ثم محمد بن جابر بن سنان البتّاني (تـ 317 / 929).

لكن أهمّ ما امتاز به هذا النشاط العلمي هو الجانب التطبيقي المتمثّل في تحديد مقاس درجة من خط منتصف النهار (Un arc de méridien) وقد اختيرت لهذا القياس المفازة الواقعة بين تدمر والرقّة على الفرات من جهة وواد في أرض الجزيرة قرب سنجار من جهة أخرى وقد اتفق الفلكيون المحدثون على دقّة هذا القياس، وفي عهد المأمون أيضا تم انشاء مرصدين أحدهما ببغداد والآخر على جبل قاسيون المشرف على دمشق وقد تركّز الجهود على تحقيق معطيات المجسطي فتولّد عن هذا التحقيق تقرير فلكي يعرف بالزّيح المأموني لم يصلنا في صورته الأصلية لكن يمكن استقاء مادّته من «كتاب الحركات السّماوية وجوامع علم النجوم «للفرغاني.

الى جانب الزّيح المأموني وضعت «الصورة المأمونية» أي الخارطة المأمونية التي لم تصل الينا مباشرة وهذه الصورة متأثرة بخارطة بطلميوس ومارينوس ذلك أنه وان استبدلت كل الأسماء بأسماء عربية فقد أبقى على نظريتي «الربع المعمور و«الأقاليم السبعة «وعن هذه الصورة يقول المسعودي في مروج الذهب «ورأيت هذه الأقاليم مصوّرة في غير كتاب بأنواع الأصباغ وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا لقطع الأرض (يعني كتاب جغرافيا لبطلميوس) وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون واجتمع على صنعتها عدّة من حكماء أهل عصره، صوّر فيها العالم بأفلاكه ونجومه

وبرّه وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن الكبرى وغير ذلك وهي أحسن ممّا تقدّمها من جغرافيا بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرهما». وبقطع النظر عن صحّة هذا الحكم فان وضع الصورة المأمونية لا يخلو من رمز للسيادة العالمية وذلك على نهج ايران القديمة وقد وضعت من قبل خارطة للأكاسرة السّاسانيين في أوج عزّهم.

وممّا يجدر ملاحظته أيضا أن العرب في خارطاتهم قد أخذوا عن إيران طريقته في اعطاء المناطق الكبرى البرّية منها والبحرية صورة مخلوقات وأشياء مألوفة : طائر، طيلسان، قواره الى غير ذلك.

II ـ صورة الأرض ومقوّماتها الأساسية

صورة الأرض كما رأينا وليدة علم الفلك (Astronomie) التطبيقي وهي تقوم أساسا على :

ـ الجيوديزيا (Géodésie) أي موقع الأرض في العالم وشكلها ومقدار مساحتها ووضع الخرائط وقد سبق أن لاحظنا أن الكرتوغرافيا (علم الخرائط) العربية عند نشأتها تأثّرت بالنظريات اليونانية وبدرجة أقلّ بالموروث الايراني. أمّا فيما يخص موقع الأرض وشكلها فانّ الجغرافيين العرب يتمسّكون بنظرية بطلميوس ويقولون بأنّ الأرض مدوّره كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك (أي الفضاء) كالمحّة في جوف البيضة[7] وأنها ثابتة وأن الكواكب تدور حولها.

ـ الجغرافيا الطبيعية المتمثّلة في الحديث عن التضاريس (Le Relief) وخاصة عن الجبال وفي الكلام عن الحرارة والبرد وعن البحار والأنهار.

ـ علم التنجيم (Astrologie) الذي مهّد الطريق الى ظهور باب هام من الجغرافيا العربية ذلك الذي يطرق علاقة المخلوقات بمحيطها.

يقول المسعودي في التنبيه «ومن الفلكيين من يرى أن كل جزء من أجزاء الأرض يناسب جزءا من أجزاء الفلك (La Dphère) ويغلب عليه طباعة لأن في أجزاء الفلك المضيء والمظلم والفصيح والأخرس وذا الأصوات والمجوّف وغير ذلك من نعوت الدرج (يعني ونعوت أخرى حسب الدرج[8] فلذلك يكون كلام أهل الموضع (أي البلد) الواحد مختلفا على ما تصلح فيه السعود وتفسد فيه النحوس (أي يختلف كلام أهل البلد الواحد حسب التأثيرات الحسنة أو السيئة المسيطرة على أجزانه) ثم يختلف أهل اللسان الواحد في المنطق (أي النطق) واللهجات»[9].

---

(7) يتكرر هذا التشبيه من جغرافي الى آخر أو يكاد.

(8) أذكّر أن الفللكيين اليونانيين قسّموا الأرض الى 360 درجة.

(9) كتاب التنبيه ـ طبعة بغداد 1357) 1938 ـ ص 27 ما كان بين عقفين هو من وضعنا.

وهذا القول لا نصيب له طبعا من الصحة وانما سقناه مثالا على العلاقة التي أقامها الجغرافيون العرب بعد غيرهم (الهنود الفرس) بين الانسان ومحيطه.

وهذا مثال آخر من نفس المصدر وهو يتعلّق بتأثير الشمس على خلقة البشر وطباعهم «وما أهل الرّبع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والافرنجة ومن جاورهم من الأمم فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد والرّطوبة وتواتوت الثّلوج عندهم والجليد فقلّ مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم وجفّت طبائعهم وتوعّرت أخلاقهم وتبلّدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابيضّت ألوانهم (. . .) ورقّت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقّت أهينهم أيضا (. . .) وسبطت شعورهم وصارت صعبا لغلبة البخار الرّطب ......»[10].

ثم يضيف المسعوي :

«وأما أهل الرّبع الجنوبي كالزنج وسائر الأحابش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس فانهم بخلاف تلك الحال (يعني أهل الرّبع الشمالي) من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة. فاسودّت ألوانهم واحمرّت أعينهم وتوحّشت نفوسهم وذلك لالتهاب هوائهم وافراط الأرحام في نضجهم[11] حتى احترقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس وكذلك الشعور السّبطة اذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها»[12].

(10) التنبيه ص 22.

(11) سبق الى هذه النظرية الجاحظ الذي يعتبر أن لون البشرة مرتبط بتأثير الشمس عند تكوّن الجنين ـ الحيوان ـ تحقيق محمد هارون ـ القاهرة 1356 ـ 1364 / 1938 ـ 1945 ج 1 ص 245 وج 5 ص 35 ـ 36.

(12) التنبيه ص 22 ـ 23.

III - صورة الأرض وتطوّرها

وضع محمد بن موسى الخوارزمي كتابا سمّاه «صورة الأرض» شرح فيه شرحا تقنيا «الصورة المأمونية «ولكن ما يلفت الالنتباه في هذا الشّرح هو أن الخوارزمي لم يكن مجرّد ناقل عن بطلميوس فالأوّل يعدّد مدن وجبال وأنهار كل اقليم في حين أن الثاني يوزّعها على اقليمين أو أكثر ومن جهة أخرى بدأت صورة الأرض عند الخوارزمي تتّسم ببعض المعطيات الأدبية المتعلّقة بالعجائب وخاصة منها المباني العجيبة.

وعند محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي (تـ بعد 256 / 370) وهو غير الفيلسوف يعقوب بن اسحاق الكندي يتواصل تعديل الارث اليوناني خاصّة اذا ما تعلّق الامر بالعالم الاسلامي فالكندي وتلاميذه يتبنّون ما يقوله بطلميوس عن البحر الشرقي ولكنهم يعترضون على أقواله فيما يخصّ البحر الأبيض المتوسّط ويختزلون طول هذا البحر فيقتربون من الصّواب (4000 كلم) وبقطع النظر عن هذا التنقيح فان مراجعة الموروث اليوناني ينمّ عن اعتزاز بالذات تولّدت عنه معارضة المعطيات الأجنبية بمعطيات «المالك» وهذا التمشي يبشّر بظهور فكرة «مملكة الاسلام» التي سيعكف الجغرافيون المسلمون على دراستها دراسة دقيقة اعتقادا منهم أن هذه المملكة أفضل جزء في «الربع المعمور» اطلاقا.

وعند السّرخسي (تـ 286 / 899) استوعبت صورة الأرض مادة التاريخ ويظهر ذلك مما يقوله المسعودي في التنبيه عن كتاب السّرخسي «المالك والممالك» الذي لم يصل الينا» هو كتاب في المسالك والممالك والبحار والأنهار وتاريخ مختلف البلدان» وهذا القول يوحي بأن العرض في الصورة أصبح أقلّ جفافا يتجاوز المعطيات الفنّية الى علاقة الانسان بماضيه.

وفي مصنّف سهراب «كتاب عجائب الأقاليم السبعة» المؤلّف بين 289 / 902 و 334 / 945 دخل عنصران جديدان فالى جانب جدول الأطوال والأعراض سيقت المعطيات الرياضية من حين لآخر في شكل أدبي لكن الأهمّ

هو بروز عنصر العيان ويتجلّى ذلك في وصف جبال الشام ودلتا النيل وشبكة قنوات المياه بأرياف العراق وصفا يتعدّى التعليق على الصورة الى رسم المناظر الطبيعية ومعالم الحياة (المياه، القناطر، المراكب، الزراعات، القرى).

ومع أبي زيد البلخي (ت 322 / 934) نصل الى مؤلّف يعدّ كتابه «صور الأقاليم» أو تقويم البلدان «الرحلة النهائية في تاريخ تطوّر الصّورة فهو الذي ثبّت بصفة نهائية فكرة «مملكة الاسلام» ويتّضح ذلك في أنه بعد أن عرض في المقدّمة تقسيم بطمليوس المعمورة الى أقاليم أعرض في الجوهر عن هذا التقسيم لفائدة تقسيم آخر مقصور على العالم الاسلامي فقسّم المملكة الاسلامية الى عشرين اقليما (الجزيرة العربية - المغرب - مصر - الشام - الجزيرة (Haute Mésopotamie) - العراق - خوزستان - فارس - كرمان - السند - أرمينا - طبرستان - صحراء الفرس - سجستان - خراسان - ما وراء النهر (Transoxiane) وهكذا اتخذت لفظة اقليم عنده معنى جديدا فلم تعد تعني الوحدة النظرية الفلكية بل أصبح المقصود بها الوحدة الترابية السياسية وهذا التقسيم الذي لا يدين بشيء الى النظرية اليونانية يبدو كذلك غريبا عن الموروث الفارسي الذي يقسّم المعمورة الى سبعة مناطق[13] يطلق على كل منها كلمة «كشوار» أي الأمبراطوريات (الرومية، التركية، الهندية، الصينية، السّاسانية ...) والحقيقة هي أنّ تقسيم البلخي يلتقي مع التقسيم الفارسي في التصوّر (La représentation) اذ أن كلاّ منهما تقسيم جغراقي سياسي مع فارق هامّ هو أن محور الدنيا (Le centre du monde) قد انتقل في الجغرافيا العربية الى العراق أو الى الجزيرة العربية وقد كان بالجبل (Médie) عند السّاسانيين.

(13) يقسّم الجغرافيون السّاسانيون الأرض الى سبعة اقاليم ستة منها تحيط بالسابع الموجود في الوسط وبه الأمبراطورية السّسانية.

خاتمة :

رأينا أن صورة الأرض في أول الأمر كانت متأثرة بالنظريات اليونانية (الأقاليم، الرّبع المعمور) ثم أصبحت مع البلخي اسلامية بحتة لا تهتمّ الا بدار الاسلام التي قسّمت الى أقاليم في مفهوم الكلمة الجديد أي الى وحدات جغرافية سياسية. ومن هة أخرى بدأت الصّوّرة تستوعب بعض العناصر الغريبة عنها في الأصل :

- العجائب وهي غرض هام من أغراض الأدب
- التاريخ الذي به ربطت الصورة الانسان بماضيه

وأخيرا فان الوصف القائم على العيان والتعبير الأدبي قد خفّفا من الجفاف التقني شكلا ومضمونا فلم تعد الصورة مقصورة على النظرية الخالصة (La théorie pure) كما كانت في عهدها الأول.

بقيت ملاحظة أخيرة تتعلّق ببعض النظريات التي ارتبط بها أحيانا الأدب الجغرافي العربي ولكنها لم تتحوّل الى مذهب علمي وهذه النظريات المستمدّة من القرآن غالبا هي :

- نظرية السماوات السبعة وهي نظرية قديمة معروفة منذ عهد البابليين تقول بأن السّماوات السبع شيّدت فوق بعضها بعضا طباقا.
- نظرية الأرض المسطّحة
- نظرية سلسلة الجبال التي وفقا لما جاء في القرآن تجعل الأرض تثبت ولا تميد وهذه النظرية مرتبطة بالنظرية السّابقة التي تقول بأنّ الأرض مسطّحة وسابحة في الفضاء.
- نظرية البحرين اللذين يفصل بينهما برزخ يمنع تمازجهما لأن أحدهما عذب والآخر ملح وقد كثرت الأقوال في تحديد البحرين والبرزخ.
- منبع الأنهار من الجنّة وهذه النظرية مسيحية.
- نظرية «البحر المحيط» أي البحر الذي يحيط بالأرض من كل جوانبها.

المصادر والمراجع :

- المسعودي كتاب التنبيه والاشراف
- سهراب كتاب عجائب الأقاليم السبعة - حقّقه وترجمه G.Le Strange بمجلّة J.R.A.S - 1895 ص 1 - 76 و255 - 315.
- نلّينو علم الفلك - القاهرة 1911 - 1912.
- كراتشكوفسكي - ج 1 - الفصل الثالث.

A. Miquel - La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siècle - Paris, 1967 Chapitre III pp 69 - 85.

الجغرافيا الادارية

انّ العوامل التي ساعدت على ظهور هذا النّمط عوامل نفعيّة فما ان قامت الدولة العبّاسية حتّى كان التفكير في أحكام النظام الاداري احكاما يضمن للدولة شوكتها وللمملكة الاسلامية استقرارها وأمنها†.وفعلا وضع العبّاسيون نظاما محكما يقوم أساسا على النقاط التالية : الخراج والمسالك (أو الطّرق) والثغور (أي الأماكن المحصّنة على الحدود). وهذه الأغراض الثلاثة نرتبطة بمؤسّسة البريد[1] التي هي أداة ناجعة للمواصلات ولمعرفة كلّ ما يجري في المملكة الاسلامية.

وهكذا ظهرت كتب الخراج[2] التي توفّر معلومات دقيقة عن تقسيم الولايات وعن الأماكن المأهولة والمحاصيل الزّراعية والصّناعية ومقدار الخراج والضرائب عينيّة كانت أو نقديّة وظهرت كتب أخرى تقدّم معلومات دقيقة

(1) انظر فصل «بريد» في دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الجديدة ج 1 - ص 1077. 1078.

(2) من كتب الخراج التي وضعت في الفترة التي تعنينا (القرن الثاني والثالث) :
- كتاب الخراج لأبي يوسف يعقوب تـ 182 / 798
- كتاب الخراج ليحيى بن آدم تـ 203 / 818.
ثم جاء كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر في أوائل القرن الرّابع.

أيضا عن المالك البرّية ومراحلها وعن الطرق النهرية والبحرية ومواتيها وكذلك عن الثغور ومواقعها.

هذه هي المواضع الأساسية للجغرافيا الادارية. أمّا الذين ألّفوا في هذا النّمط فهم كتّاب (Secrétaires) كان غرضهم افادة غيرهم من الكتّاب بمعلومات يحتاجون اليها للقيام بمهمّتهم. على أن تكوين الكاتب لا يمكن أن يفصل عن الاطار الثقافي الذي نشأ فيه لذلك سنرى أنّ ممثّلي الجغرافيا الادارية تجاوزوا المواضيع الأساسية فاتّسمت مؤلّفاتهم ان قليلا أو كثيرا بطابع أدبي ومن جهة أخرى فان شخصيّة كلّ مؤلّف ومحاور اهتمامه قد انعكست في عمله فكانت النتيجة أن تفاوتت المصنّفات في قيمة المعلومات وتنوّعها.

ممثّلو الجغرافيا الادارية :

I ـ ابن خرداذبه : هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه.، فارسيّ الأصل. كان والده حاكما على طبرستان (المنطقة التي تقع جنوبي القزوين (La mer Caspienne) فساعدته هذه النشأة على أن يصبح من المقرّين عند الخليفة المعتمد (256 ـ 279 / 870 ـ 892) وقد عيّن بديوان البريد بمنطقة الجبال بايران في تاريخ نجهله وبفضل تكوّنه الثقافي استطاع أن يؤلّف كتبا عديدة لا نعرف منها الا العناوين أو بعض المقتطفات التي حفظها لنا مؤلّفون متأخّرون مثل المسعودي في مروج الذّهب ومن هذه المؤلّفات : كتاب الشراب ـ كتاب الطبيخ ـ الملاهي والأسمار ـ كتاب في التاريخ يعالج فيه حسب المسعودي تاريخ الأمم قبل الاسلام ـ جمهرة أنساب الفرس. ويمكن أن نستخلص من هذه العناوين أن كتب الرّجل تدور في محيط الأدب الخفيف وفي التاريخ على أنه يجدر أن نلاحظ أن جمهرة أنساب الفرس ينمّ عن نزعة شعوبيّة لا يخلو منها «كتاب المسالك والممالك» مؤلّفه المشهور الذي استغرق وضعه زمنا طويلا فالمسودّة الأولى ترجع الى حوالي 232 / 846 والمسودّة الثانية التي تتضمّن زيادات (تقسيم الأرض ـ عجائب الأرض ـ عجائب البنيان) الى 272 / 885 على وجه التقريب.

محتوى الكتاب[3] :

يتركّب الكتاب من سبعة أقسام متفاوتة الحجم :

- الفصل الأوّل : يبدأ الكتاب وفقا للتقليد المعروف بمعلومات معهودة في الجغرافيا الرّياضية (موقع الأرض - شكلها - الأقاليم السّبعة وعدد مدن الأرض) على مذهب بطمليوس تليها فقرة خصّصت لاتجاه القبلة في كلّ بلد.

- في الفصل الثاني يكرّس المؤلّف قسما للكلام عن سواد العراق وتقسيمه الاداري[4] ومبالغ الخراج في عهده هو. ويعرض مبلغ جباية السّواد في عهد الأكاسرة ثم في أيّام عمر بن الخطاب ثم في أيّام عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي ويختم هذا الفصل بذكر ملوك الأرض القدامى : ملوك الفرس والرّوم والتّرك والصّين معتمدا على المصادر الفارسية.

- في الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس يهتمّ ابن خرداذبه بالطرق التي تخرج من بغداد شمالا الى آذربيجان والقوقاز وشرقا الى ايران والهند والصّين وغربا الى الشام ومصر والمغرب بما فيه الأندلس أو الى بلاد الرّوم (بيزنطة) عبر الجزيرة (المنطقة العراقية الواقعة شمالا بين دجلة والفرات (La Haute mésopotamie) وجنوبا الطريق البحري من البصرة الى الهند والصّين ثم يصف الطريق الخارجة من بغداد اتّجاه الجنوب الشّرقي الى مكّة والمدينة واليمن ويختم القسم السّادس بكلام عن طريقين كان يسلكهما التّجار اليهود من أوروبّا الى الهند والصّين أحدهما يمرّ بالسّويس والبحر الأحمر والآخر يمرّ بأنطاكية الى الفرات.

---

(3) الطبعة المعتمدة ليدن (Leyde) 1889 - تحقيق دي خويه (De Goeje).

(4) يستعمل المؤلّف في هذا التقسيم المصطلحات الآتية : الكورة والطّسوج والرّستاق فيذكر كور سواد العراق وعدد طساسيج كل كورة وعدد رساتيقها.

ـ أمّا القسم السّابع الذي يرد في المسودّة الثّانية فهو يحتوي على تقسيم الأرض وفي هذه الفقرة كثرت الأخطاء وعلى عجائب الأرض وعجائب البنيان وطبائع البلدان.

بعد هذا العرض الوجيز لمحتوى الكتاب علينا أن نعلّق على المحتوى وعلى الأسلوب.

1) انّ الكتاب يكاد يكون مقصورا على العالم الاسلامي فلا حديث عن البلدان الأجنبيّة الا في حالات قليلة وبصفة عرضية من ذلك :

ـ الفقرة المتعلّقة بسرنديب (سيلان) والهند والصّين والواردة ضمن الكلام عن الطريق البحرية الى الشرق الأدنى وفي هذه الفقرات يبدو تأثّر ابن خرداذبه ـ بـ «أخبار الصّين والهند» و«القصص البحرية» الرّائجة آنذاك ببغداد. وما نلاحظه في هذه القصص التي استغلّها كاتبنا هو أن الشّرق الأدنى بلاد العجائب ومصدر منتجات زراعية وغيرها يستوردها العالم الاسلامي مثل الحرير والذّهب والتوابل والكافور والخشب الرّفيع والجواهر (أنظر ص 70 من الكتاب).

ـ وصف رومه الذي هو خليط من المعطيات الدّقيقة والخاطئة بل السخيفة أحيانا.

ـ وصف مملكة الرّوم وذكر تقسيمها الاداري وما يقوله في هذا السّياق مأخوذ عن مسلم الجرمي[5].

ـ الفقرة المخصّصة لطريق التّجار الرّوس وهو الذي يمرّ بنهر الدّون (Le Don) وإتل (الفولقا : (La Volga) ثم يعبر بحر القزوين الى الجنوب نحو طبرستان.

---

(5) لا يعرف عن هذا الرّجل شيء سوى أنه أسر من قبل البيزنطيين ثم فدي في عهد الخليفة العبّاسي الواثق (228 ـ 233 / 842 ـ 847) واليه ينسب كتاب في وصف الرّوم وعاداتهم لم تبق منه الا القطعة التي أوردها ابن خرداذبه (المالك ص 105 وما بعدها) والمتعلّقة بتعداد الولايات البيزنطية ـ أنظر كراكتشكوفسكي ج 1 ص 134.

2) أمّا المادّة فهي جافّة في أغلب الأحيان يغلب فيها التعداد والأرقام فاذا تعلّق الأمر بالتقسيم الاداري يقتصر المؤلّف عادة على ذكر الكور والطساسيح والرّساتيق[6]. وفي الحديث عن المسالك يقتصر عادة على ذكر المراحل والمسافة الفاصلة بين مرحلة وأخرى والوحدة المستعملة غالبا هي الفرسخ الذي يساوي 5762 متر.

على أنه عندما يتحدّث عن البلدان البعيدة أو الأجنبية يورد بعض التفاصيل التي تخفّف من جفاف المادّة :تفاصيل سياسية (شمال افريقيا) تفاصيل اجتماعية (الأجناس بالهند (Les castes) تفاصيل اقتصادية (طريق التّجار الرّوس[7] - طريق التّجار اليهود).

لكن رغم هذا الجفاف فان الكتاب متفتّح على الأدب ويتجلّى ذلك في :

- تضمين أبيات شعرية هنا وهناك.

- الأخذ عن المتقدّمين وقد يذكر المصدر (بلاد الرّوم) وقد لا يذكر (وصف رومة).

- الاهتمام بالعجائب وذلك خاصة في الباب السّابع ومن هذه العجائب نذكر على سبيل المثال :

جزيرة سرنديب (سيلان) «الانسان منهم (سكّان سرنديب) أربعة أشبار (. . . . .) يتسلّقون على الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها»[8].

«وفي جبال الزّابج (سرنديب) حيّات عظام تبلع الرّجل والجاموس ومنها

---

(6) المصطلح المستعمل لليمن : مخاليف وهو يقابل كور.

(7) المسالك ص 154.

(8) المسالك ص 65.

ما يبتلع الفيل»[9].

«عجائب الدّنيا أربع : مرآة كانت معلّقة بمنارة الاسكندرية كان يجلس الرجل تحتها فيرى ما بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر (. . . .) وفرس من نحاس كان بأرض الأندلس (. . . .) ومنارة من حاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد (. . . .) وشجرة من نحاس عليها سودانية من نحاس بأرض رومية . . . .»[10].

من عجائب البنيان يذكر ابن خرداذبه : الهرمين وفتحهما في أيّام ابن طولون وسدّ جوج وماجوج[11].

من عجائب البلدان يورد هذا الكلام «من دخل التُّبت (Le Tibet) لم يزل ضاحكا مسرورا من غير سبب يعرفه حتّى يخرج منها»[12].

II ـ الجَيْهاني : هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني. لا نعرف عنه سوى أنّه كان وزيرا في الدولة السّامانية بخرسان وأنّه توفّي حوالي 315 / 927 وأنّه ألف كتابا في المسالك والممالك لا تعرف عنه الا ما يقوله المقدّسي في مقدّمة أحسن التقاسيم. وهذا نصّ المقدّسي :

«أمّا أبو عبد الله الجيهاني فانّه كان وزير أمير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك اليها

---

(9) المسالك ص 65 كذلك ـ ومثل هذه الحكايات هي من باب الخرافة.

(10) المسالك ص 115 ـ 116 يقصد بالفرس من نحاس بالأندلس صنما بمدينة قادس وقد انهار هذا الصنم أيّام المرابطين. أمّا الخبران المواليان فهما من الخرافات.

(11) الخبر المتعلّق بالهرمين ص 159 ـ 160. والخبر المتعلّق بسدّ جوج وماجوج (ص 164 فيما بعد) يرويه ابن خرداذبه عن سلاّم الترجمان الذي قام برحلة الى الأصقاع الشمالية في أيّام الخليفة الواثق. والرّاجح أنّ المقصود بسدّ جوج وماجوج سدّ القوقاز المشهور عند دريند أنظر كراتشكوفسكي ـ ج 1 ص 139 ـ 140.

(12) المسالك ص 170. هذا الخبر موجود في كتاب الحيوان (للجاحظ (تحقيق محمد هارون. القاهرة 1356 ـ 1364 / 1938 ـ 1945) ج الرابع ص 135 ممّا يدلّ على أنّ ابن خرداذبه قد أخذ أيضا عن الجاحظ في الزيادات الموجودة بالمسودّة الثانية.

وارتفاع الخنّس[13] فيها وقيام الظلّ بها ليتوصّل بذلك الى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم له علم النجوم ودوران الملك. ألا ترى كيف جعل العالم سبعة أقاليم[14] وجعل لكلّ اقليم كوكبا مرّة يذكر النجوم والهندسة وكرّة يورد ما ليس للعوّام فيه فائدة وتارة ينعت أصنام الهند وطورا يصف عجائب السّند وحينا يفصّل الخراج ورأيته ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصّل الكور ولا رتّب الأجناس[15]ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقا وغربا وشمالا وجنوبا مع شرح ما فيها من السّهول والجبال والأودية والتّلال والمشاجر والأنهار وبذلك طال كتابه وغفل عن كثر الطرق والأخباد ووصف المدائن الجياد...»

التعليق : في هذا النّص يعرض المقدّسي غاية الجيهاني من وضع كتابه ومنهجه فينقد هذا المنهج ملحّا على ما يعتبره هو من باب النقائص ليبرز فضل كتابه أحسن التقاسيم على كتب غيره.

وبقطع النظر عن هذا النقد فانّ في النّص نقاطا تستدعي الوقوف عندها :

- لما كان الجيهاني وزيرا فان اهتمامه بالسّياسة يتجلّى في الحرص على معرفة البلدان من خلال غرضين : الدخل والمسالك وهذا الاهتمام لا ينفصل عن سياسة الدّولة السّامانية التي كانت تسعى الى توسيع رقعتها.
- فيما يخصّ المحتوى فانّ الرجل لم يقتصر على الأغراض الأساسية للجغرافيا الادارية بل تعدّاها الى عناصر كوسموغرافية (الأقاليم السّبعة - ارتفاع الكواكب في البلدان وقيام الظلّ بها) والى العجائب.

- أمّا عن المنهج فيلاحظ أن الجيهاني لم يعتمد فقط الوثائق الرسمية كما فعل ابن خرداذبه بل استقى جلّ المعلومات من الغرباء أي من الذين رحلوا الى

(13) الخنّس : الكواكب

(14) يتبنّى الجيهاني اذن تقسيم بطليموس لا التقسيم الايراني.

(15) أجناد : جمع جند أي منطقة عسكرية.

البلدان المذكورة في نصّه وكانوا شهّاد عيان وهكذا فانّ الجيهاني خطا خطوة جديدة في ميدان الجغرافيا الادارية وذلك أنه وان لم يعاين ينفسه فقد اتّخذ من العيان (شهادات الغرباء) مصدرا أساسيا فسنّ الطريق لمن سيأتي بعده.

III ـ اليعقوبي : هو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، كان جدّه الأعلى واضح من موالي الخليفة المنصور وعيّن واليا على أرمينيا ومصر ثمّ قتل لميوله الشّيعية وقد ظلّت هذه الميول في الاسرة الى عهد مؤلّفنا وكان جدّه ووالده من كبار موظّفي البريد ولكننا لا نعرف ما اذا شغل هو نفسه منصبا حكوميا.

ولد اليعقوبي ببغداد الا أنه غادرها مبكّرا فعاش طويلا بأرمينيا وخراسان أين صنّف كتابا في التاريخ[16] ثم زار الهند والشام ومصر والمغرب وألّف «تقويم البلدان»[17] حوالي 276/ 889 ـ 890 قبل وفاته بقليل اذ توفّي في السّنوات الأخيرة من القرن الثالث الهجري.

تحليل الكتاب :

نبدأ أوّلابالمنهج الذي توخّاه اليعقوبي في تصنيف كتابه ويكفي أن نسوق ما يقوله هو نفسه في المقدّمة :

«انّي عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سنّي وحدّة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كلّ بلد وبلد لأنّي سافرت حديث السنّ واتّصلت أسفاري ودام تغرّبي وكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره فاذا ذكر لي محلّ داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك وزرعه

(16) حقّق هذا الكتاب لأول مرّة من قبل المستشرق هوستا Housta. 1896 ونشر كذلك في جزأين ببيروت 1379 / 1960.

(17) الطبعة المعتمدة ـ طبعة ليدن 1892 وقد نقل هذا الكتاب الى الفرنسية المستشرق Gaston وقدّم له بمقدّمة جيّدة ـ القاهرة 1937.

مـا هو وسـاكنيـه من هم عـرب أم عـجم حـتى أسأل عن لبـاسـهم ودياناتهم ومقـالاتهم[18] والغـالبين عليـهم ... ومـا يقـرب منه من البلدان ... ثم أثبت مـا يخـبرنـي به من أثق بصدقه (أستظهر بمسألة قوم بعد قـوم حتى سـألت خلقـا كثيـرا وعالما مـن النـاس في الموسم[19] وغيـر الموسم من أهل المشـرق والمغـرب وكتب أخـبـارهم ورويت أحـاديثـهم وذكـرت من فـتح بلدا بلدا وجنّد مـصـرا مصـرا من الخلفاء والأمراء ومبلغ خـراجه ومـا يرتفع من أمـواله فلم أزل أكتب هذه الأخبـار وأؤلّف هذا الكتـاب دهرا طويلا وأضيف كلّ خبـر الى بلده وكلّ مـا أسمع به من ثـقات أهل الأمـصـار والأجناد والكور ومـا فـي كلّ مصـر من المدن والأقـاليم والطمـاسـيح ومن يسكنه ويغلب عليـه ويتـرأس فـيـه من قبـائل العرب وأجناس العجم .ومسـافة مـا بين البلد والبلد والمصر والمصر ومن فتحه من قادة جيوش الاسلام وتأريخ ذلك في سنته وأوقاته ومبلغ خراجه وسهله وجبله وبرّه وبحره وهواءه في شدّة حرّه وبرده ومياهه وشربه».

من هذا النّص نستنتج :

- أن مـصـادر اليـعـقـوبي هي التـجـربة الشـخـصـيـة (الأسـفـار) والعـيـان وأحـاديث الثـقـات من أهل كلّ بلد والتـجـربة الشّخصية والعيـان اللذان اعتـمـدهمـا صاحبنا في كتابه يعدّان عنصرين هامّين جدّا في تطوّر الجغرافيا العربية. اذ أنّ نمط المسـالك والممالك[20] الذي يمثّله الاصطخـري وابن حـوقل والمقدّسي يتـميّـز فيما يتميّز بهذين العنصرين.

- ان المادة مـتنوّعـة وشـاملة ويتـجلّى هذا لا في المـقـدّمـة فـقـط بل في مضمون الكتاب ففيه معطيات :

1) ادارية : تقـسـيم البلد الى ولايات والـولايات الى كـور وطسـاسـيح - تحديد الأجناد (ص 324) ذكـر مـقـر الولاة (ص 279) - التـعـريف بالمسـالك :

(18) المقالات : جمع مقالة : أي المعتقد - La profession de foi.

(19) يقصد موسم الحجّ.

(20) أنظر في تحديد هذا النمط التمهيد.

المراحل والمسافات وان لم تضبط هذه المراحل بالدقة التي التزمها ابم خرداذبه - طرق البريد (ص 276 - 279 - 292) الاعتناء الفائق بالخراج والضرائب في كل الكتّاب.

2) سياسية : اللوحة في المغرب (ص 342 وما بعدها) - قائمة الولاة بسجستان وخراسان (ص 282 فما بعدها و295 فما بعدها).

3) اقتصادية : الزّراعة بمصر (ص 331) بسجلماسة (ص 359) - الحركة التجارية : تصدر القمح من مصر (ص 313) وتعاطي البربر لتجارة العبيد السّود (ص 345) - النقود أو العملة (ص 293).

4) اجتماعية : سكّان بغداد (ص 246) مالكو الأرض بايران والقرويّون (ص 275 - 279) العمّال بمناجم الذّهب في وادي علاّقي (في الجنوب الغربي من أسوان) ص 334.

5) اثنوغرافية : أصل سكّان حلوان (ص 270) اصفهان (ص 275) - سجستان (ص 281) واحات مصر (ص 332) القيروان (348) والى هذه المعطيات يمكن أن نضيف تلك التي تتعلّق بالحياة اليومية من لباس وشراب ومسكن.

6) لغوية : استعمال الفارسية (ص 270) - لغة التخاطب بجبل نفوسة (ص 346). المصطلحات الفنّية في مصر (ص 331 و332) بالقيروان (ص 348).

7) دينية : الخرّمية[21] بايران والاباضيّة بشمال افريقيا ص 275 و 352 - 353.

8) جغرافية طبيعية : الجبال والتلال والسهول والصحاري وخاصّة المياه وهذا الغرض (Thème) الأخير لا تكاد صفحة من الكتاب تخلو منه على أنّ

---

(21) فرقة دينية ظهرت في أوائل القرن الثالث نعت أصحابها بالاباحية (أي عدما لتقيّد بالشريعة) أنظر في تحديد هذا النمط التمهيد.

الأنهار والقنوات والآبار لا يهتمّ بها لذاتها وانّما لحاجات الانسان الى عنصر الماء من شراب ونظافة وسقي ولذلك يكون الحديث عن المياه عادة ضمن الكلام عن المدن وضواحيها.

9) تاريخية : وهي تحتلّ مكانة هامّة في الكتاب وتساق خاصّة في الفقرات المتعلّقة بطوبوغرافية (الخطط) المدن : بغداد (ص 242 ـ 250) سامرّاء (ص 259 ـ 263) والكوفة (310 ـ 311).

ومن جهة أخرى يجدر أن نلاحظ أنّ «تقويم» البلدان» خلو من أي ذكر للعجائب مما يؤكّد نزعة المؤلّف الى التحليل العقلي.

انّ تنوّع المعطيات التي استشهدنا لكل منها ببعض العينات هي برنامج المسالك والممالك في القرن الرابع ولهذا السّبب أيضا يعدّ الكتاب مرحلة هامّة جدّا في تطوّر الجغرافيا العربية.

بقي سؤال : ما هي أوجه الاختلاف بين «تقويم البلدان» وكتب المسالك والممالك التي ظهرت في القرن الرابع ؟

بدأ اليعقوبي بوصف بغداد وسامرّاء، فأسهب الوصف اذ أخذ هذا القسم ربع الكتاب تقريبا «وقد علّل ابتداءه بالمدينتين على أنّهما عاصمتا الخلافة العبّاسية وقال : «انّما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وكثرة مياه وصحّة هواء .....»

وهذه النظرة الى العراق على أنه أفضل اقليم والى بغداد على أها عاصمة الدنيا لا تختلف عن نظرة أهل عصر المؤلّف وسوف تستمرّ الى القرن الرابع رغم ما أصاب العراق من تفكّك في أيّام الاصطخري وابن حوقل والمقدّسي فليس الاختلاف حينئذ في النظرة الى العراق وانّما في الاطالة والاسهاب في وصف هذا الاقليم ممّا أخلّ بتوازن الكتاب.

على أنّ نقطة الاختلاف الأساسية تكمن في تقيّد اليعقوبي بنظرية تقليدية تقسّم بمقتضاها الأرض حسب الجهاز الأهلية الأربع : الشمال والجنوب والشرق والغرب وفعلا فقد انطلق من بغداد وسامرّاء ليذكر سائر البلدان موزّعة حسب هذا التقسيم فكانت النتيجة أن شطرت الجزيرة العربية فوصفت نواحيها الغربية والجنوبية في موضع من الكتاب ونواحيها الشّرقية في موضع آخر وأن جزّئ العراق الى أربعة أجزاء : النواحي الغربية فالجنوبية فالشّرقية والشمالية التي احتلّت مواطن متفرّقة في الكتاب.

وتوجد نقطتان أخريان تجعلان «تقويم البلدان» يختلف عن كتب المسالك المذكورة :

- غزارة المادة التاريخية ولا غرابة في ذلك والرجل قد ألّف في التاريخ.

- محاور اهتمام الرجل : لقد رأينا أن مادة الكتاب متنوّعة ولكن ما يلفت انتباه القارئ هو أن اهتمام اليعقوبي يشتدّ اذا كان الاقليم ثريّا ويضعف اذا كان الاقليم على العكس من ذلك فقيرا والدليل على ذلك مثلا أن ما يقوله عن مكّة والمدينة والجزيرة العربية ضحل في حين أنّ الصّفحات المتعلّقة بخراسان غنيّة. ثمّ أنّه كذلك حريص في وصف الأقاليم والبلدان على جمع المعلومات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية التي من شأنها أن تفسّر حالة الأمن أو حالة الاضطراب ومثل هذه الاهتمامات من مميّزات رجل الادارة ونحن كما سلف أن قلنا لا نعرف ما اذا كان اليعقوبي قد شغل منصبا حكوميا ولكن يكفي أن نذكّر بأنّ صاحبنا نشأ في عائلة تولّى أفرادها أبا عن جدّ مناصب حكومية حتى نفهم لماذا كان ينظر اليعقوبي الى البلدان من زاوية ادارية خاصّة».

IV - قدامة بن جعفر : هو أرامي ينتمي الى أسرة مسيحية. ولد حوالي 270 / 883 بالبصرة وكان والده من رجال الادارة ولم يعتنق قدامة الاسلام الا بعد الحاح شديد من الخليفة المكتفي (حكم من 289 الى 295 / 902 -

908) فانفسح أمامه الطريق الى المناصب العليا فشغل في السنوات الأخيرة من حياته منصب صاحب البريد وبقي بهذا المنصب الى أن توفّي سنة 337 / 948.

ليس لقدامة مصنّف جغرافي بالمعنى الدقيق بل له كتاب ألّفه من أجل موظّفي الدولة وهو «كتاب الخراج وصناعة الكتابة» وقد تمّ تأليفه على ما يبدو حوالي سنة 316 / 928 وهو يتكوّن من ثمانية أقسام لم يصلنا منها الا أربعة. الخامس والسادس والسابع والثامن به نقص. وحتى هذه فانها لم تنشر كلها[22]. ومن طالعها لاحظ تشابها كبيرا بينها وبين كتاب ابن خرداذبه اذ انصبّ اهتمام قدامة على وصف طرق البريد والولايات وجباية الخراج وعلى الثغور وما خلفها من البلدان الأجنبية لكن الى جانب هذه الأغراض نجد معطيات في الجغرافيا الرّياضية (الأقاليم السّبعة) والجغرافيا الطبيعية (الجبال والسهول والأنهار[23]) وفي التاريخ خاصة تاريخ الفتوحات الاسلامية المأخوذة عن البلاذري[24] ومعطيات أخرى سياسية وأخلاقية.

تحليل الكتاب :

لقد وضع قدامة كتابه ليمدّ صنف الكتّاب بما يحتاجونه للقيام بوظيفتهم فكانت غايته اذن نفس الغاية التي رمى اليها ابن خرداذبه والجيهاني الا أن قدامة لم يقتصر على المسالك والخراج والثغور بل تعدّاها الى عرض مطوّل في الثقافة بمعنى الكلمة الواسع فخصّص القسم الرابع لفنّ الانشاء والقسم

---

(22) حقّق المستشرق دي خويه (De Goeje)الفصلين السادس والسابع من القسم السادس ونشرهما في ملحق لكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه ـ طبعة ليدن 1889 ـ وحقّق الأقسام الأربعة (باستثناء الفصل التاسع عشر من القسم السابع) على مكّي : قدامة بن جعفر وآثاره. أطروحة مرقونة ـ باريس 1955.

(23) الفصل الثاني من القسم الخامس.

(24) صاحب كتاب فتوح البلدان.

الثالث لفنّ البلاغة[25] والقسم السابع للقانون العقاري أور فيه كثيرا من الأحكام الفقهية والأحاديث على أنّ هذا القسم يختلف عن كتاب الخراج لأبي يوسف يعقوب وكتاب الخراج ليحيى بن آدم لأنّ صاحبه اهتمّ بالوجه التطبيقي لا بالوجه النظري فوضع مصنّفا في القانون التطبيقي الذي يعالج الواقع. ويشتمل هذا القسم أيضا على معطيات تاريخية مأخوذة كما قلنا عن البلاذري والقصد من تضمينها تحديد الاطار التاريخي والعرفي لاحتلال الأرض والتصرّف فيها. وخصّص قدامة القسم الثامن للسياسة وعلاقة الملك بالرعيّة وفيه يستغلّ مادة مألوفة ترجع أغلبها الى التراث الايراني والتراث اليوناني[26] لكن ليس هذا القسم كذلك مصنّفا نظريا مثل الأحكام السّلطانية[27] التي تعرض المثل الأعلى (L'idéal) في أصول الحكم وتنظيم الدولة وانّما هو تحليل لدواليب الحكم وتأمّل في حياة المجتمعات والحكم في رأي قدامة يمثّل المرحلة النهائية في تطوّر الانسان انطلاقا من الفرق الأساسي بين الانسان والحيوان ومرورا بمراحل عدّة تنشأ فيها شيئا فشيئا المقدّمات الكبرى للمجتمع الانساني : الأكل واللباس والتناسل وتأسيس المدن والنقود ... وفي الحديث عن السّلوك البشري لا يعمد قدامة الى ذكر المحاسن والمساوئ بل يسعى الى ضبط الخصال التي يجب أن تسود في المجتمع وخاصة في كل مستويات الادارة حتّى لا تتعطّل دواليب الدولة.

وهكذا كان الكتاب على حجمه وتنوّع مادّته متماسك البناء واضح الغاية فكلّ قسم منه يمثّل وجها من الثقافة التي يجب على الكاتب أن يتحلّى بها

---

(25) في مواضيع مختلفة من القسم الخامس يحيلنا قدامه نفسه الى هذين الجزأين كلّما تعلّق الأمر بالانشاء أو البلاغة.

(26) لا نعرف ما اذا كان قدامة متمكّنا من اللغة اليونانية ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّه كان متأثّرا بالفكر اليوناني ويظهر هذا التأثّر في كتابه المشهور : نقد الشّعر.

(27) مثلا الأحكام السّلطانية للماوردي (ت 450 / 1058).

وهي ثقافة تجمع بين معطيات صورة الأرض والجغرافيا الادارية والقانون والتاريخ والسياسة والأخلاق ولكن ما تجدر الاشارة اليه هو أن الرجل اعتمد في وضع كتابه على ثقافته الواسعة[28] فوسّع نطاق الجغرافيا الادارية ولكنها لم تعرف معه قفزة نوعية كما هو الشّأن عند اليعقوبي الذي اعتمد أساسا التجربة الشخصية (الأسفار) والعيان.

28) تنسب الى قدامة مؤلّفات عديدة، في جمع الأشعار (Anthologies) والنقد والتاريخ والفلسفة على أن الباحثين يشكّون في أن يكون قدامة ألّف في فلسفة - ولم تصلنا من أعماله الا نقد الشّعر وأقسام من كتاب الخراج وصناعة الكتابة.

من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه

النصّ الأول : (الطريق من برقة الى المغرب)

. . . ثمّ الى طرابلس أربعة وعشرون ميلا ثمّ الى سبرة أربعة وعشرون ميلا ثمّ الى بئر الجمّالين عشرون ميلا (. . .) ثمّ الى الفوّارة ثلاثون ميلا ثمّ الى قابس مدينة الأفارقة الأعاجم ثلاثون ميلا ثمّ الى بئر الزّيتونة ثلاثة عشر ميلا (. . . .) ثمّ الى القيروان مدينة المآجن أربعة وعشرون ميلا وهي مدينة افريقية وهي في وسط المغرب[1] وهي في يد ابن الأغلب[2] وفي يده قابس وجلولا وسبيطلة مدينة جرجير[3] الملك وكان روميا وبينهما وبين القيروان سبعون ميلا وزرود وغدامس وقفصة (. . .) ومدينة الزّاب (. . . .) وزغوان وتونس (. . . .) واسم مدينة تونس قرطاجنّة وهي على ساحل البحر يحيط بسورها 21.000 دراع وبين تونس وبرّ الأندلس عرض البحر وهو هناك ستة فراسخ ثمّ الى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة خمسة أيّام.

وفي يد الرّستمي الأباضي[4] وهو ميمون بن عبد الوهّاب بن عبد الرحمان بن رستم وهو من الفرس ويسلّم عليه بالخلافة (. . . .) تاهرت وما والاها وبين افريقية وتاهرت مسيرة شهر على الابل.

---

(1) المغرب عند العرب يبدأ من طرابلس أو حتّى شرقيّها ولذلك العتبروا أن القيروان في وسط المغرب.

(2) يقصد ابراهيم بن الأغلب مؤسّس الدولة الأغلبية التي دامت من 184 ـ 296 / 800 ـ909..

(3) جرجير (Grégoire) هو البطريق البيزنطي الذي استقلّ بسبيطلة وكان ذلك أيّام غزو المسلمين الأول (سنة 27 هـ / 648 م) وقد حاول الوقوف في وجههم فقتل وهزم جيشه.

(4) قامت الدولة الرّسمية من 145 هـ الى 299 هـ / 761 ـ 911 م.

(. . . .) وفي يد ولد ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب[5] رحمة الله عليهم تلمسان ومن تاهرت اليها مسيرة خمسة وعشرين يوما عمران ،كلها وفاس وبها منزله ومن تاهرت اليها مسيرة أربع وعشرين ليلة وخلفهما طنجة وخلف طنجة السّوس الأدنى[6]وأهلها بربر وخلف السوس الأدنى السّوس الأقصى وبينهما مسيرة تيّف وعشرين يوما وفي يديه وليلة ومدركة (. . . .) وليس يسلّم عليه بالخلافة وانّما يقال السلام عليك يا ابن رسول الله.

ملاحظات حول النصّ :

- لكم في الأسطر الأولى عيّنة : فالمادّة جافّة مقصورة على تعداد المراحل وذكر المسافات
- أمّا في بقية النص فانها أقل جفافا لأن المؤلّف أورد تفاصيل تتعلّق :

أ ـ بالناحية المعمارية : القيروان مدينة المآجن

ســـور قرطاجنّـــة

ب ـ بالتاريخ : سبيطلة مدينة جرجير

ج ـ بالسياسة : دول المغرب : الأغالبة بافريقية ـ بنو رستم بناحية تاهرت ـ الادريسيون بالمغرب (Le Maroc) والأميون بالأندلس (في بقية النّص).

---

(5) دامت الدولة الادريسية من 172 هـ الى 364 هـ / 788 ـ 974 م.

(6) يقسّم الجغرافيون العرب السّوس قسمين : السّوس الأدنى الذي يمتدّ على شمال المغرب (اليوم) الى وادي أمّ الربيعة والسّوس الأقصى الممتدّ على الأطلسين.

النصّ الثاني :(من المسالك لابن خرداذبه)

هذا مسلك التّجار اليهود الراذانية[7] الذين يتكلّمون بالعربية والفارسية والرّمية والافرنجية والأندلسية والصقلّية[8]. أنّهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برّا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والدّيباج وجلود الخزّ[9] والفراء[10] والسّمور[11] والسيوف ويركبون من فرنجة الى البحر الغربي[12] فيخرجون بالفرما[13] ويحملون تجارتهم على الظّهر[14] الى القلزم[15] وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثمّ يركبون البحر الشّرقي من القلزم الى الجار[16] وجدّه ثمّ يمضون الى السّند[17] والهند والصين فيحملون من الصّين المسك والعود والكافور والدار صيني[18] وغير ذلك ممّا يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثمّ يحملونه الى القرما ثمّ

---

(7) كلمة لا يعرف بالضبط أصلها وقد وردت بشكل آخر : رهدانية والجمع رهادنة ويقول بعض الباحثين انّ هذه الكلمة من أصل فارسي رآه دان : عليم بالمسالك.

(8) كلمة صقالبة تطلق عادة على سكّان أروبّا الوسطى ويقابلها بالفرنسية les Slaves.

(9) الخزّ : حيوان من جنس القواضم (Les rongeurs) يعيش بأمريكا الشمالية وأوروّبا وفروته ثمينة - بالفرنسية : le castor.

(10) الفراء : جمع فروة.

(11) السّمور : حيوان يأكل اللحم جسمه مستطيل - La martre ou la marte.

(12) أي البحر الأبيض المتوسّط والبحر الشّرقي : المحيط الهندي.

(13) ميناء بمصر على البحر الأبيض المتوسّط غربيّ مدينة العريش - هدمه الصّليبيون سنة 494 / 1100.

(14) عن طريق البرّ.

(15) مدينة صغيرة كانت تقع على البحر الأحمر بأطراف القناة التي كانت الى أيّام عمر بن الخطّاب تصل النيل بالبحر الأحمر.

(16) ميناء بالجزيرة العربية على البحر الأحمر شمالي جدة.

(17) يقابله اليوم الباكستان.

(18) نبات يستعمل دواء.

يركبون في البحر الغربي فربّما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها الى الرّوم وربّما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وان شاء واحملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربيّ فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية[19] ثمّ يركبون في الفرات الى بغداد ثمّ يركبون في دجلة الى الأبلّة ومن الأبلّة الى عمان والسند والهند والصّين كل ذلك متّصل ببعضه بعضا.

ملاحظــــات : يمثّل هذا النّص وثيقة هامّة جدّا عن دور التّجار اليهود في التبادل التّجاري بين الشّرق الأدنى وأوروبّا وبين أوروبّا والعالم الاسلامي.

واهتمام ابن خرداذبه بالنشاط التّجاري يتجلّى في نصوص أخرى (ص 70 «والذي يجيء في البحر الشّرقي» - والذي يجيء من البحر الغربي») على أنه في هذين النّصين لا يذكر الا المواد التي يستوردها العالم الاسلامي وخاصة بغداد من الشّرق ومن أوروبّا وبلاد الرّوم (بيزنطة) ويهمل صادرات العالم الاسلامي الى هذه النّواحي ويمكن أن نستخلص من هذا أمرين :

الأوّل يتعلّق بالحركة الاقتصادية وكثرة الاستهلاك بالعالم الاسلامي وخاصّة بالمدن الكبرى.

الثّاني يتعلّق بنظرة هذا الجغرافي للبلاد الأجنبية وهي نظرة متأثّرة بأخبار التّجار الذين كلّما نزلوا ببلد أجنبي كان اهتمامهم الأول بالمواد التي يحتاج اليها العالم الاسلامي وبالطرق التّجارية وطرق المعاملات.

---

(19) مدينة صغيرة على الفرات.

نصّ من كتاب «تقويم البلدان»
وصف المغرب

«من أراد أن يسلك من مصر الى برقة وأقاصي المغرب نفذ من الفسفاط[20] في الجانب الغربي من النّيل حتّى يأتي ترنوط ثمّ يسير الى منزل[21] عرف بالمنى وقد أقفر أهله ثم الى الدير الكبير المعروف ببومينا وفيه الكنيسة الموصوفة العجيبة البناء الكثيرة الرّخام ثمّ الى منزل معروف بذات الحمام وفيه مسجد جامع وهو من عمل[22] كورة الاسكندرية (. . .) ثم يسير الى خربة القوم ثمّ الرّمادة وهي أوّل منازل البربر سكنها قوم من مزاتة وغيرهم من العجم القدم وبها قوم من العرب من جهينة وبني مدلج (. . .) ثمّ الى وادي مخيل وهو منزل كالمدينة به مسجد الجامع وبرك الماء وأسواق قائمة وحصن حصين وفيه أخلاط من الناس وأكثرهم البربر ومن وادي مخيل الى مدينة برقة ثلاث مراحل ومدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة وهي مدينة عليها سور وأبواب حديدوخندق. أمر ببناء السّور المتوكّل[23] وشرب أهلها ماء الأمطار يأتي من الجبل بأودية الى برك عظام قد عملتها الخلفاء والأمراء لشرب أهل المدينة وخراج برقة قانون[24] قائم. كان الرّشيد[25] وجّه مولى له يعرف ببشّار فوزّع خراج الأرض بأربعة وعشرين

---

(20) تتكوّن عاصمة مصر من أربع مدن متلاصقة : الفسفاط وهي المدينة القديمة العسكر (بنيت في القرن الثاني هـ) القطائع (في القرن الثالث هـ) والقاهرة في (القرن الرابع هـ).

(21) يقصد بالمنزل المجموعة السّكنية.

(22) كان على رأس كل ولاية رجلان : الوالي (الأمير) والعامل (أو صاحب الخراج) الذي تتمثّل وظيفته في جبي الخراج وحمله الى خزانة الدّولة وقول اليعقوبي «من عمل كورة الاسكندرية» يعني أن جبي خراج ذات الحمام من مشمولات عامل الاسكندرية وكورها (ولايتها).

(23) الخليفة العبّاسي الذي حكم من 232 / 847 الى 247 / 861.

(24) أي اتّفاق بين السلطة وأهل برقة.

(25) الخليفة العباسي : من 170 / 786 الى 193 / 809.

ألف دينار على كلّ ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقات والجوالي[26] خمسة عشر ألف دينار ربّما زاد وربّما نقص والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى . . . . وتسمّى برقة أنطابلس هذا اسمها القديم افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين صلحا (. . . .) ومن أطرابلس الى أرض نفوسة وهم[27] قوم عجم الألسن اباضيّة كلهم لهم رئيس يقال له ألياس لا يخرجون على أمره ومنازلهم في جبال أطرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات[28] كثيرة لا يؤدّون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت[29] (. . . .) وديار نفوسة متّصلة من حد أطرابلس مما يلي القبلة الى قريب من القيروان ولهم قبائل كثيرة وبطون شتّى. ومن أطرابلس على الجادّة العظمى الى مدينة يقال لها قابس عظيمة على البحر المالح (. . . .) ومن قابس الى مدينة القيروان أربع مراحل (. . . .) ومدينة القيروان العظمى التي اختطّها عقبة بن نافع الفهريّ سنة ستّين في خلافة معاوية (. . . .) وشربهم (أي أهل القيروان) من ماء المطر. اذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسّيول دخل ماء المطر من الأودية الى برك عظام يقال لها المآجل[30] فمنها شرب السّقاة ولهم واد في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح لأنه في سباخ يستعمله الناس فيما يحتاجون اليه ومنازل بني الأغلب على ميلين من المدينة في قصور قد بني عليها عدّة حيطان لم تزل منازلهم حتى تحوّل عنها ابراهيم بن أحمد فنزل بموضع يقال له الرّقادة (. . . .) وفي مدينة القيروان أخلاط من الناس من قريش وسائر بطون العرب من مصر وربيعة وقحطان[31]

---

(26) ضريبة تؤخذ من غير المسلمين.

(27) نفوسة : قبيلة بربرية سمّيت بها المنطقة التي كانت تنزل بها. هم : أي سكّان أرض نفوسة وهم من البربر.

(28) العمارات ج عمارة أي المكان المعمور.

(29) يعني : أمير الدولة الرّسمية التي كانت دولة الخوارج الاباظيين.

(30) المآجل أو المآجن.

(31) ربيعة ومضر من القبائل التي كانت تنزل بشمال الجزيرة العربية وقحطان كانت نازلة بجنوب الجزيرة العربية (اليمن).

وبهـا أصناف من العـجم من أهل خـراسـان ومن كـان وردهم[32] مع عـمّـال بني هـاشـم[33] من الجـنـد وبـهـــــا عـــــجـم بلـد البـــــربـــر والـرّوم و أشـباه ذلك (. . . .) ومن القـيروان الى مـدينة تونـس وهي على سـاحـل البحـر وبها دار صناعة (. . . .) ومن ساحل تونس يعبر الى جزيرة الأندلس . . .»

ملاحظـــات : انّ مقـارنة هذا النّص ينصّ ابن خرداذبه تكفي وحدها لاثبات التطوّر الحاصل في نمط الجغرافيا الادارية من حيث المحتوى والأسلوب فالمادّة في نص اليعقوبي متنوّعة والأسلوب أسلوب وصفيّ.

---

(32) وردهم : هم يعود على العرب الأوائل الذين استقرّوا بافريقية.

(33) المقـصـود بعـمـال (أي هنـا ولاّة) بني هاشم (أي العـبّـاسين) الأغـالبـة لأنهم قبـل أن يسـتـقلّوا كانوا يمثّلون الخليفة العبّاسي.

من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر

النّص الأوّل :

«يحتاج في البريد الى ديوان[34] يكون مفردا ويكون الكتب المنفذة من جميع النواحي مقصودا بها صاحبه[35] ليكون هو المنفذ لكلّ شيء منها[36] الى الموضع المرسوم بالنفوذ اليه ويتولّى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار[37] في جميع النواحي على الخليفة أو عمل جوامع[38] لها ويكون اليه النظر في أمر الفرانقيين[39] والموقّعين[40] والمرتّبين في السكك[41] (. . . .) وتقليد أصحاب الخرائط[42] في سائر الامصار. والذي يحتاج اليه في صاحب هذا الدّيوان هو أن يكون ثقة امّا في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته (. . . .) والرّسوم التي يحتاج اليها من أمر الدّيوان هي ما يقارب الرّسوم التي بيّناها

---

(34) القسم الاداري (Le service) أو المصلحة (Département) بوزارة.

(35) التركيب في الأصل يكون صاحبه مقصودا بالكتب (أي الرّسائل والتقارير) المنفذة (المرسلة) من جميع النواحي.

(36) منها : الضمير يعود على النواحي أي الكتب الصّادرة من النّواحي.

(37) صاحب الخبر أو صاحب الأخبار : موظّف مكلّف بجمع الأخبار عن الناحية التي عيّن فيها وابلاغ السّلطة المركزية بكل ما يحدث فيها.

(38) عمل الجوامع : حرّر تقارير . جوامع جمع والمفرد جامع : أي في هذا السياق تقرير يحوصل فيه كل الكتب التي بلغته عن النواحي.

(39) جمع والمفرد فرانق ويجمع أيضا على فرانقية ـ والفرانق هو الساهر على نقل الكتب (الرّسائل).

(40) هم الكتّاب (Les secrétaires) المكلّفون بختم الكتب.

(41) المرتبون في السّكك المرتّبون : الموظفون الذين يقبضون مرتّبا ـ السكك ج سكّة : المرحلة في طريق البريد. ومعنى العبارة : الموظفون أو العمال السّاهرون على المحطات الموجودة في طريق البريد.

(42) أصحاب الخرائط : الخريطة هنا هي حقيبة الرسائل. وأصحب الخرائط هم الذين ينقلون الرسائل من النواحي الى صاحب البريد.

في غيره ممّا يضبط به أعمالهم وأحواله فأمّا غير ذلك من أمر[43] الطرق ومواضع السّكك والمسالك الى جميع النواحي فانّا لم نذكره ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه[44] ما لا يحتاج في الرجوع فيه الى غيره وما[45] إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة الى شخوصه وانفاذ جيش يهمّه أمره وغير ذلك ممّا تدعو الضرورة علم الطرق بسببه يوجد[46] عتيدا عنده ومضبوطا قبله ولم يحتج الى تكلّفُ عمله والمسألة عنه. فينبغي أن نكون الآن نأخذ في ذكر ذلك وتعديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل في مائه وخشونته وسهولته أو عمارته أو ما سوى ذلك من حاله ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السّلام[47] الى مكّة وهو المنسك[48] الأعظم وبيت الله الأقدم ونأخذ بعد البلوغ اليه بذكر ما بعده من الطريق الى اليمن ثم في سائر الجهات المقارنة له وتسميته انشاء الله.

---

(43) أمر : معرفة.

(44) منه : الضمير يعود على أمر الطرق.

(45) في الجملة اختزال وأصلها وما يحتاج اليه إن.

(46) يوجد عتيد عنده : أصل التركيب : ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع الى غيره. و(أن يكون معه) ما (يحتاج) ان سأله عنه الخليفة . . . . يوجد عتيدا عنده ـ يوجد عتيدا : جملة واقعة نعتا لما . . . .

(47) بغداد.

(48) وهو يعود على مكّة ـ المنسك : مكان للعبادة.

الثّغـــور الشّاميـــة

النّص الثاني :

«. . . . فلمّـا كـانت الرّوم على مـا وصفت[49] وجب أن نقـدّم الكلام في الثغور المقابلة لبلدهم على الكلام في غيرهـا فنقول : انّ هذه الثغور[50] منهـا برّية (. . . .) ومنها بحرية (. . . .) ومنها ما يجتمع فيه الأمران[51]. وتقع المغـازي من أهله في البـرّ والبـحـر. والشـغـور البـحـري ة على الاطلاق سواحل الشـأم ومصـر كلّها والمجتمع فيه الأمـران غـزو البرّ والبحر الشـغـور المعروفة بالشأمية. فلنبدأ بذكرها وهي طرسوس وأذنة والمصّيصة وعين زربة (. . . .) وارتفاعها[52] نحو المائة ألف دينار ينفق في مصالحها وسائر وجوه شـأنهـا وهي المراقب والحـرس والفـواثيـر[53] والرّكـاضة[54] والموكّلين بالدرب والحصون وغيـر ذلك ممّا جانسه من الأمور والأحوال ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعـاليك. وراتب مغـازيها الصّوائف والشواتي[55] في البرّ والبحر في السنة على التقريب مائتا ألف دينار وعلى المبالغة[56] يتّسع[57] ثلاثمائة ألف دينار

---

(49) كان الصّراع حادّا بين بغداد والقسطنطينية عاصمة الرّوم ولذلك اعتبرت آنذاك بيزنطة العدو الأول.

(50) المدينة أو المنطقة الواقعتان على الحدود.

(51) برّية وبحرية.

(52) مبلغ خراجها وضرائبها.

(53) الجواسيس.

(54) حاملو الرّسائل ـ سمّوا كذلك لسرعتهم في السّير.

(55) راتب مغـازيها : مبلغ ما تجني هذه الثغور من الغزوات. الصّوائف : مغـازي الصّيف. الشواتي : مغازي الشتاء.

(56) على أقصى تقدير.

(57) يبلغ.

والذي يلقاها[58] من بلاد العدو ويتّصل بها من جهة البرّ فالقبادق[59] ويقرب منها الناطليق[60] ومن جهة البحر سلوقية. وعواصم هذه الثغور وما ورائها الينا[61] من بلدان الاسلام[62] وانّما سمّي كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمدّه في أوقات النّفير (. . . . .).

---

(58) الضمير ها يعود على الثغور.

(59) تعريب لـ La Cappadoce

} والمنطقتان جزء من تركيا اليوم.

(60) تعريب لـ L'Anatolie

(61) ما وراءها الينا : أي المناطق التي هي من جهتنا (جهة المسلمين).

(62) من بلدان المسلمين : خبر ـ والمبتدأ : وعواصم . . . . الينا.

الجغرافيا في خدمة الأدب

ابن الفقيه : هو أبو بكر بن أحمد بن محمد عرف بابن الفقيه. لا نعرف عنه شيئا سوى أنّه ولد بهمذان في عائلة تتحلّى بثقافة دينية وأدبية وأنّه كان هو أيضا متضلّعا في الحديث والأدب. وقد ألّف كتابين : الأول جمع فيه أشعار المعاصرين له وهذا المصنّف لم يصل الينا والثاني «كتاب البلدان» الذي ألّفه حوالي سنة 290 / 903 وهذا المصنّف يشتمل على خمسة أجزاءفي ألف صفحة على ما يقال ولكن لم يصلنا منه الا مختصر عمله على الشيزري سنة 413 / 1022.

ليس كتاب البلدان حسبما يبدو من المختصر[1] كتابا في الجغرافيا بالمعنى الدقيق للكلمة بل هو كتاب جامع وضعه صاحبه على منهج الجاحظ وقصد به امتاع المثقّفين وعن هذا الكتاب يقول المقدّسي في مقدّمة أحسن التقاسيم : «.... وأمّا ابن الفقيه الهمذاني فانّه سلك طريقة أخرى ولم يذكر الا المدائن الكبرى ولم يرتّب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغّب فيها ودفعة يبكي وحينا يضحك ويلهي».

وقوله هذا صحيح لأن الكتاب حسبما يبدو من المختصر هو كتاب أدب لتنوّع المادّة التي يحتويها. وهو من جهة أخرى يفتقر الى خطة واضحة ويكفي لاثبات هذا أن نذكر عناوين الفصول والموضوعات التي يعالجها : المقدّمة

(1) الطبعة المعتمدة طبعة دي خويه ـ ليدن 1885.

في خلق الأرض والبحار المحيطة بها وما فيها من العجائب - الصين والهند - مكّة والكعبة والطائف والمدينة ومسجدها - تهامة ونجد واليمامة والبحرين - اليمن - انقلاب الهزل الى جدّ والجدّ الى هزل - في مدح التجوال - مصر والنيل - البلاد الواقعة في جنوب مصر (النوبة والحبشة) - المغرب - الشام - شمال العراق - بلاد الرّوم - مدح الآثار المشهورة وذمّها - الكوفة والبصرة - مقدّمة ثانية - فارس - أذربيجان - أرمينيا - جوج وماجوج - طبرستان وخراسان.

فبالاضافة الى أنّ المؤلّف لم يسلك خطة واضحة في ذكر البلدان فانّه يقطع نسق الحديث في مواطن ثلاثة : انقلاب الهزل الى جدّ والجدّ الى هزل ثم مدح التجوال (ص 41 - 56) مدح الآثار الشهيرة وذمّها (ص 151 - 161) - مقدّمة ثانية يعرض فيها مذهبه في الأدب (ص 192 - 195) ثمّ انّه كثيرا ما ينزلق في الاستطراد من ذلك أنّه في كلامه عن عين ماء قرب همذان يحدّثنا عن أنواع الماء ويمدح الماء العذب ثمّ يورد محاورة بين منتصر للعراق وممجّد لهمذان ومنقص من شأنهما ثمّ ينتقل الى حبّ الأوطان.

هذه لمحة عن الكتاب تبرز أن المصنّف وان احتوى على مادّة جغرافيا هو كتاب أدب من حيث أسلوب العرض - الاستطراد والمقابلة (المدح # الذمّ) - وهو كذلك من حيث المضمون وهذا ما سنحاول الآن أن نبيّنه.

مادة الكتاب ومصادره :

أ) الجغرافيا : يكاد الكتاب يكون مقصورا على العالم الاسلامي[2] وفي هذا الاقتصار نلمس تأثير صورة الأرض والجغرافيا الادارية. ومن جهة أخرى فان ايران والعراق والجزيرة العربية تحتلّ ثلثي الكتاب تقريبا في حين أنّ مصر

(2) باستثناء العالم الاسلامي يذكر الكاتب الصّين والهند وما يقوله في هذين البلدين (ص 13 - 16) مأخوذ من أخبار الصّين والهند كما يذكر بلاد الرّوم (ص 148 - 151) وما يقوله عنها مأخوذ في أغلبه عن سلاّم الترجمان.

لا تحتل الا اثنتين وعشرين صفحة والمغرب سوى ثلاث عشرة صفحة ويمكن أن نردّ عدم التوازن هذا الى :

. أنّ ابن الفقيه فارسي الأصل وهذا ما يفسّر اهتمامه بايران.
. أنه كان يعتبر هو أيضا أن العراق وسط العالم.
. أن الجزيرة العربية عزيزة على كل مسلم لأنها تحتضن مناسك الحجّ.

وفيما يتعلّق بالأغراض نفسها فهي أغراض الجغرافيا الادارية ـ المسالك والخراج والتقسيم الاداري ـ والمادة في هذا الباب مأخوذة في أغلبها عن ابن خرداذبه. أمّا الأخبار التي تدور حول الانتاج الزراعي والصّناعي والمبادلات وحياة البشر فهي لا تندرج في فنّ الجغرافيا لأن ابن الفقيه لا يروي الا ما كان عجيبا.

وأخيرا فانّ المادة الجغرافية قليلة اذا قيست بالموادّ الأخرى لأن البلدان والمدن المذكورة ليست محلّ دراسة وانّما هي اطار ينطلق منه المؤلّف لسرد أخبار شتّى فيطول الحديث عن البلدان والمدن التي يعرف عنها أخبارا كثيرة ويقصر الحديث عن تلك التي لا يعرف عنها الا أخبارا قليلة.

ب) التاريخ : انّ المعطيات التاريخية كثيرة مأخوذة من مصادر متعدّدة يذكر منها ابن الفقيه كتاب الفتوح للبلاذري وكتابا في التاريخ مفقود للمدائني وهذه المعطيات تتعلّق بثلاثة عهود :

ـ خلق العالم وعصور الرّسل من ابراهيم الى سليمان.
ـ تاريخ الفرس واليونان القديم.
ـ الجاهلية وتاريخ الاسلام الى القرن الثالث.

ومن هذه المعطيات تبرز أربعة وجوه يجمع بينها دورها في تاريخ البشرية :

ـ ابراهيم وموسى وخاصة سليمان بوصفه نبيّا تأتمر الجنّ بأوامره ومشيّدا لعدّة معالم في أنحاء متفرّقة من الدنيا.

ـ اسكندر المقدوني[3] الذي «دوّخ الأقاليم ومدّن المدن»[4] والذي اليه ينسب بناء المدن بمصر وخراسان وبلاد ما وراء النهر[5] وسدّ جوج وماجوج.
ـ محمد وعمر بن الخطاب : الأول بوصفه خاتم الأنبياء ومؤسّس الدولة الاسلامية والثاني بوصفه الخليفة المثالي وباعث الأمبراطورية الاسلامية.

ج) الآيات القرآنية النبوية :
د) الأخبار الدينية وغير الدينية.
هـ) الحكم والأمثال
و) الأشعار التي يتجاوز عدد الاستشهاد بها المائة والخمسين والتي هي لشعراء كثيرين منهم ذو الرمّة وأبو نواس وأبو العتاهية وأبو تمّام والبحتري.

بقي عنصر لا بدّ من التأكيد عليه وهو العجائب التي تحتلّ مكانة هامّة في الكتاب حتى اننا نستطيع أن نعتبرها المقوّم الأساسي فيه.

لقد لاحظنا أنّ الجغرافيا العربية قبل ابن الفقيه لا تخلو من العجيب ولكن قسط هذا العنصر كان صغيرا أمّا ابن الفقيه فقد وسّع ميدان العجيب (Le merveilleux) وذلك أنّه لا يقتصر على العجب الديني كالمعجزات ولا على الأغراض المألوفة[6] كالأبنية الشهيرة بل يضيف كلّ ما هو نادر أو خاصّ بمدينة أو بلد فاذا العجيب مبثوث في كلّ الكتاب سواء تعلّق بالتاريخ أو الطبيعة (الجبال، الأنهار، الحيوان، النبات) أو بالاقتصاد (الانتاج الزراعي والصّناعي والمبادلات) أو بالحياة اليومية (المأكل والملبس والمسكن الى غير ذلك) وبذلك

---

(3) سمّي أيضا في الرّوايات العربية القديمة : «ذو القرنين».
4) العبارة مأخوذة من مختصر كتاب البلدان ص 50 ـ ومعنى دوّخ الأقاليم : جابها ومدّن المدن : أسسها.
(5) النهر هو نهر جيحون (L'Oxus) وبلاد ما وراء النهر (La Transoxiane) خلف خراسان.
(6) أنظر دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الجديدة ـ مادة عجيب adjib.

أصبح الكتاب كتاب جغرافيا العجائب أو كتاب «الفولكلور»[7] الجغرافي عند المسلمين في القرن الثالث. نقول هذا خاصّة وأنّ موقفه من العجيب غير موقف الجاحظ الذي عني هو أيضا بهذا العنصر. فالجاحظ يتّخذ من المظاهر العجيبة فرصة للتأمّل وأعمال العقل فاذا اتّضح عنده أنّ من بين هذه الظواهر ما يتجاوز العقل والتفسير تفسيرا عقلانيا أرجع السرّ الى القدرة والحكمة الالهيتين ولكنه لا يقبل الخرافات في تفسير هذه الظاهرة أو تلك وبعبارة أوجز فهو يتّخذ من الشكّ طريقا الى اليقين وهذا ما يضمن امكانية البحث في المستقبل. أمّا ابن الفقيه فانّه يورد كلّ الخرافات والمعتقدات (Les croyances) ويثري ميدان العجيب غايته من ذلك شدّ قرّاء عصره الذين كانو مولعين بالعجيب وبذلك تتأكّد في كتابه وظيفة العجيب الترفيهية[8].

نقطة أخيرة : علاقة الجغرافيا بالأدب[9] في مفهوم الكلمة القديم أي الثقافة العامة. لقد رأينا أنّ الخوارزمي في شرحه الصّورة المأمونية ذكر بعض المباني الشهيرجة فاتّسم كتابه من هذه الناحية فقط بطابع أدبي وعند ابن خرداذبه تفتّحت الجغرافيا الادارية بصفة أوضح على الأدب (العجائب والأشعار) ولكنّ نصيب الأدب بقي ضعيفا اذا ما قيس بالمعطيات الفنّية (Technique) : المسالك والخراج والشغور ـ أمّا عند ابن الفقيه فقد انعكست الاية وأصبحت المعطيات الجغرافية جزءا صغيرا من الكتاب ورافدا من روافد الأدب الذي هو الأخذ من كلّ شيء بطرف وتبسيط (La littéralisation) ما هو تقني.

على أنّه يحسن بنا أن نرفع التباسا يتضمّنه قولنا في أوّل هذا الدّرس : انّ ابن الفقيه قد وضع كتابه على منهج الجاحظ. فقد قصدنا بذلك أنّ ابن الفقيه تأثّر بالجاحظ في نقاط معيّنة : الأخذ من كلّ شيء بطرف ومزج الجدّ بالهزل

---

(7) فولكلور كلمة دخيلة Folklor تتركّب من فولك (الشعب) ولور (Science) أي معارف الشعب وتصوّراته.

(8) ان هذه الوظيفة هي التي تفسّر مثلا اهتمام ابن خرداذبه اهتماما نسبيا بالعجائب.

(9) انظر دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة الجديدة ـ مادة أدب ـ ADAB.

والاستطراد. ولكن يوجد بين الرجين فارق هامّ جدّا فمؤلّفات الجاحظ هي من أدب التأمّل (La réflexion) والبحث تعالج أدقّ القضايا التي كانت مطروحة في القرن الثالث الدينية منها والتاريخية والعلمية في تمشّ (Démarche) يرفض الخرافات ويستند الى : العقل والعيان[10]. أمّا كتاب البلدان فهو من التسجيل والتحنيط اذ يقتصر صاحبه على الأخذ من هنا وهناك دون أن يعيد النظر فيما انتحل.

(10) انظر دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الجديدة ـ مادة : جاحظ مقدّمة شارل بلاّ (Charles Pellat) لكتاب التربيع والتدوير ـ دمشق، 1955 وأندري ميكال : جغرافية العالم الاسلامي البشرية ـ باريس ـ لاهاي 1967 الفصل الثاني ـ ص 35 ـ 56 (بالفرنسية).

من المختصر لابن الفقيه
خلق الأرض والأقاليم السّبعة

النّص الأول :

قال الله عزّ وجلّ : «انّ في خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآيات لأولي الألباب»[11]. وسئل النبي صلّى الله عليه وسلّم عن الأرض : سبع هي ؟ قال : نعم والسّماوات سبع وقرأ : الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن[12]. قال رجل : فنحن في وجه الأرض الأولى. قال : نعم وفي الثانية خلق يطيعون ولا يعصون وفي الثالثة خلق وفي الرآابعة صخرة ملساء والخامسة ضحضاحٌ من الماء والسّادسة سجّيل وعليها عرش ابليس والسّابعة ثور والأرضون على قرن الثّور على سمك والسمكة على الماء والماء على الثّرى والثّرى منقطع فيه علم العلماء. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السّهمي : صورة الدنيا على خمسة أجزاء كرأس الطّير والجناحين والصّدر والذنب فرأس الطّير الصّين وخلف الصّين خلق يقال لهم واق واق[13] ووراء واق واق من الأمم ما لا يحصيه الا الله. والجناح الأيمن الهند وخلف الهند البحر ليس خلفه خلق والجناح الأيسر الخزر[14] وخلف

(11) سورة آل عمران ـ الآية 187.

(12) سورة الطلاق ـ الآية 12.

(13) اسم يطلق على البلد وأهله وقد يكون البلد اليابان أو مدغشقر. أنظر فصل فرّان (Ferrand) في دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة القديمة ـ مادة «واق واق» Wàk-Wàk.

(14) أمة كانت تنزل بجنوب وادي (La vallée) الفولقا (Volga).

الخزر أمّتان يقال لأحديهما منشك وماشك[15] وخلفهما ياجورج[16] ومن الأمم ما لا يعلمه الا الله. وصدر الدنيا مكّة والحجاز والشام والعراق ومصر. والذنب من ذات الحمام[17] الى المغرب وشرّ ما في الطّير الذنب. وقال ابن عبّاس[18] الأرض كلها أربعة آلاف فرسخ في مثل ذلك. قال أمير المؤمنين[19] رضي الله عنه : الأرض مسيرة خمس مائة سنة، أربع مائة خراب ومائة عمران . قال : وفي يد المسلمين سنة (. . .) وذكر محمد بن موسى الخوارزمي[20] أنّ دور الأرض على الفضاء[21] تسعمائة فرسخ. العمران من ذلك نصف سدسها والباقي ليس فيه حيوان ولا نبات والبحار محسوبة من العمران (. . .) وقالوا : انّ الأقاليم سبعة . . . فالاقليم الأول مبتداه من الأرض المحرقة ومنتهاه أرض سرنديب وسكّانه سود قباح الوجوه كالسّباع وأعمارهم طويلة ودوابّهم وطيورهم أعظم من عامة البهائم والطّير وهناك رقى[22] وعقاقير وأحجار فيها شفاء ومنافع طبيعية وفيها تنانين وهوامّ ذات سموم وطوله[23] خمسة آلاف وخمسمائة فرسخ وعرضه ثلاثمائة وخمسة وثمانين فرسخا. والاقليم الثاني مبتداه من أرض سرنديب ومنتهاه أرض الحبشة

---

(15) اسمان لمنطقتين أو أمّتين اسطوريتين.

(16) أمّة اسطورية قبل انّها كانت تنزل خلف سدّ جوج وماجوج ويرى البعض ان هذا السدّ (أي الحائط) يقع بالقوقاز على مضيق دربند ويرى آخرون أن المقصود بهذا الاسم حائط الصين الكبير.

(17) منزل (Localité) على حدود مصر وليبيا.

(18) عبد الله بن العبّاس ابن همّ الرسول توفي 68 / 688. يتكرّر اسمه في الحديث بصفته رواية.

(19) علي بن أبي طالب.

(20) سبق ذكره في الحديث عن الصّورة المأمونية ـ توفي حوالي 230 / 844.

(21) في خطّ مستقيم.

(22) ج رقية : ما يستعان به على أمر ويكون هذا بالسّحر والطلاسم.

(23) طول الاقليم.

وهناك معادن الزبرجد والببّغاء ومنتهاه من قبل شرقيّه أرض السّند[24] وهناك سباع ضارية وحشرات وطير ممتنعة وأهلها[25] في القبح دون الاقليم الأول وفيها رقى وعقاقير وأهلها أقصر أعمارا من الأول. والاقليم الثالث مبتدأه عرض أرض الصغد[26] وجرجان[27] حتى ينتهي الى أرض الترك وحدّ الصّين الى أقصى المشرق ومن غربيّه نحو مصر ومن شرقيّه السّند وعدن ومنتهاه أرض الشام وفارس واصبهان[28] وهناك أناس حكماء وطوله وعرضه مثل الأول. والاقليم الرّابع بابل متوسّط الأقاليم وهو أفضلها مزاجا ومبتدأها من افريقية الى بلخ الى مشرق الأرض وعرضه وطوله كالأول. والاقليم الخامس قسطنطينية والرّوم والخزر وعرضه وطوله كالأول. والاقليم السّادس فرنجة[29] وأم أخرى وعرضه وطوله كالأول. والاقليم السّابع الترك ورجالهم ونساؤهم متركو الوجوه[30] لغلبة البرد عليهم وسباعهم صغيرة الأجساد ولا يوجد هناك حشرات ولا هو هوامّ ويسكنون الظلال[31] يتخذونها من الألواح ينقلونها على عجل[32] تجرّها الثيران وأنعامهم في الفيافي وفي أولادهم قلّة[33].

ما نلاحظه في هذا النص هو أنّه يغلب عليه الطابع الأسطوري والخرافي وذلك على الأقلّ في قسمه الأول. فالقرآن يكتفي بذكر الأرضين (ج أرض) السبع ولكن الرواية تنسب الى محمد تعدادا مفصّلا لها يعكس تصوّرات يهوديّة قديمة وكان دور كعب الأحبار ووهب بن منبّه في تسرّب الرّوايات اليهودية

---

(24) ما يقابل الباكستان اليوم.

(25) أ يعود الضمير على بلاد الاقليم الثاني ويفهم هذا من السّياق.

(26) ناحية سمرقند.

(27) المنطقة الواقعة على الجنوب الشرقي من بحر القزوين.

(28) اصبهان أو اصفهان.

(29) فرنسا.

(30) لا يلحق الرجال لحيهم والنساء لا يزلن الشّعر النابت في وجوههنّ.

(31) ج ظلّة : ما يستظلّ به من الحرّ والبرد.

(32) ج عجلة المقصود : عربات.

(33) المعنى غامض ولعلّه يقصد بالقلّة : الرّعدة.

الى الحديث دورا هامّا يتجلّى في الأحاديث المتعلّقة بخلق العالم وبالكوسموغرافيا وكذلك بالآخرة (وصف الدجّال الذي يظهر في آخر الزّمان - وصف الجنّة والنار . . .).

وتظهر كذلك الأسطورة في القولة المنسوبة لعمرو بن العاص وهذه الرّواية قد راجت بشكل خاص في مصر وهي أيضا قديمة عند السّاميين الغربيين الذين تصوّروا الأرض على صورة طائر كوني (Un oiseau cosmique).

وما هذه الأساطير والأقوال المختلفة (كالتي وردت على لسان علي بن أبي طالب) الا محاولة للاجابة على مسائل متعلّقة بنشأة الكون وشكله كانت تحيّز الانسان ولمّا كانت تنقصه الوسائل الفكرية والمادية للكشف عن حقائق الأمور في هذا المجال وضع هذه الأساطير والخرافات.

ومن جهة أخرى نلاحظ كذلك أن أبن الفقيه يورد نظرية بطمليوس في تقسيم الأرض الى سبعة أقاليم كما يورد قوله للخوارزمي في مقاييس الأرض وبذلك تتّضح طريقته في التأليف فهو يحشر في الباب الواحد كلّ ما يعرف عن الموضوع المطروق كحاطب ليل.

وأخيرا فانّه في حديثه عن الأقاليم السّبعة يترك جانبا الجغرافيا الطبيعية (الجبال والأنهار والبحار) والمدن ليهتمّ بالعجيب والغريب.

النّص الثاني :

وعن مكحول [34] قال : باليمن سدّ أسعد الملك[35] وهو سدّ بين جبلين بحجارة مربّعة منقّشة. بين الحجرين عمود من الحديد من الأعلى الى الأسفل. وقد رصّص ما بين الجبلين مقدار ميلين وسمكه ثلاثمائة ذراع. تنصبّ اليه أودية وأنهار فيرتفع الماء حتّى مزارعهم وحدائقهم وهو أعجب سدّ في الأرض. مكتوب عليه بالمسند[36] أشياء كثيرة (. . . .) وباليمنى قرية وبار وهي مسكن الجنّ وهي أخصب بلاد الله وأنزهها لا يقدر أحد على الدنوّ منها من الأنس وقال أبو المنذر :[37] وبار ما بين نجران[38] وحضرموت[39] وزعمت العرب أنّ الله حين أهلك عادا وثمودا سكنت الجنّ في منازل وبار وحمتها من كلّ من أرادها (. . . .) فان دنا من تلك البلاد انسان متعمّدا أو غالطا حثوا في وجهه التراب فان أبى الا الدخول خبّلوه وربّما قتلوه. . .

وبمصر الهرمان اللذان يرى أصحابها كأنهم دفنوا حديثا الا أنّهم في عمق من الأرض (. . .) وهي[40] مبنية بحجارة المرمر والرخام (. . .) منقور

(34) محدّث عاش بالشام وتوفّي سنة 112 / 730.

(35) أسعد الملك : اسم ملك أسطوري والسدّ هو سدّ مأرب بشرقيّ اليمن ويعرف كذلك بسدّ العرم.

(36) الخطّ الحميريّ.

(37) هو هشام الكلبيّ توفّي سنة 204 / 819 ـ من الاخباريين (المؤرخين) العراقيين المشهورين أمثال أبي عبيدة (توفّي حوالي 219 / 834) والمدائني (توفّي ما بين 215 و 231 / 839 ـ 845) وابن سعد (توفّي في 230 / 845).

(38) منطقة تقع في شمال اليمن.

(39) منطقة تقع في شرقيّ اليمن على ساحل البحر الهندي.

(40) يذكر المؤلّف الهرمين ثم يقول انها ثلاثة أهرام والضمير يعود على هذه الأهرام.

في كل حجارة بالكتاب المسند[41] (. . .) كلّ سحر وكلّ عجب من الطبّ وكل طلسم وكل خلقة طير (. . .) وبمصر الاسكندرية وهي من بناء الاسكندر[42] (. . .) وقال بعضهم : كانت الاسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار فكانوا[43] اذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ومن خرج اختطف وكان لهم ر اع يرعى الغنم على شاطئ البحر وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه على شاطئ البحرفكمن له الرّاعي في بعض المواضع حتى خرج فتشبّثت بشعرها[44] ومانعته فذهب بها الى منزله فآنست بهم[45] فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم عن ذلك فأخبروها أنّ من خرج في ذلك الوقت اختطف فعملت لهم طلسمات وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر ومن عجائب الأندلس مدينة البهت[46] وهي مدينة من حجر البهت من تطلّع فيها تاه واستغرب ضحكا حتى يتلف نفسه دهر طويل . . .

ملاحظة : يقول ابن خرداذبه في المسالك (ص 160) «. . .(يعني الاسكندرية) مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار الا بخرق سود مخافة عن أبصارهم من شدّة بياض حيطانها». انّ الخبر في حدّ ذاته من خلق الخيال لكن ابن الفقيه لا يكتفي بهذا القدر من العجيب بل يضيف عناصر جديدة حتى يقوّي عنصر العجيب.

---

(41) المقصود هنا : الخطّ الهيروغليفي.

(42) الاسكندر المقدوني.

(43) كانوا أي كان الناس (سكّان الاسكندرية).

(44) يعتبر المؤلّف أن الشيء العجيب الذي يخرج من البحر من الاناث وهذا ما يفسّر استعمال الضمير : ها.

(45) بهم : بأهل الاسكندرية.

(46) مدينة أسطورية تسمّى كذلك مدينة النحاس.

أدب الرّحلات في القرنين الثالث والرابع[1]

كانت للرّحلات خارج البلاد الاسلامية أسباب عدّة : دينية (نشر الدين الاسلامي) - سياسية (البعثات الرّسمية، الجوسسة، الحرب) - اقتصادية (المبادلات التجارية) - استكشافية (حبّ الاطّلاع) سواء داخل العالم الاسلامي أو خارجه[2].

ويمكن أن نقسّم الرّحلات تقسيما جغرافيا حسب الجهات التي زارها الدّعاة والسّفراء والجواسيس والأسرى والتجار والملاّحون والرّحالون الذين سافروا بدافع حبّ الاطّلاع فيكون التقسيم على النحو التالي :

- الرّحلات الى الشرق الأدنى :

كان الداعي اليها أساسا التجارة وقد تولّدت عن هذا النشاط الاقتصادي جملة من المؤلّفات :

---

(1) ما وصلنا من أخبار عن الرّحلات في القرن الأول والثّاني هي من باب الخرافات - انظر كراتشكوفسكي الجزء 1 ص 53 - 54 - 55 - 56.

(2) من الرّحلات الاستكشافية مغامرة «المغرورين» وجوهرها أن ثمانية أخرة من الأندلس عزموا على «ركوب بحر الظلمات (أي المحيط الأطلنطي) ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه» - عن تفاصيل هذه المغامرة التي لم يحدّد زمانها (ولعلّه القرن الثالث) والتي يشوبها كثير من الغموض أنظر الادريسي : نزهة المشتاق.

1) - **اخبار الهند والصّين** :[3] الكتاب مجموعة من الأخبار استقاها من التجار الذين أقاموا بالشرق الأدنى رجل مجهول اكتفى في تدوينها بتقييد ما سمع من مخبريه لذلك جاء كلّ خبر وحدة مستقلّة فانعدمت في هذه الأخبار تقنيات السّرد (Les techniques) ولذلك أيضا خلا الأسلوب من كلّ قيمة أدبية ورغم كلّ هذا فانّ أخبار الصّين والهند، تمتاز بطابعها العفوي وبثراء المعلومات ودقّتها.

ويكفينا دليلا على هذا الثراء أن نستعرض بعض مادة الكتاب[4].

- البحر : أ) حيوانات البحر الهندي : سمك غريب عجيب 1 - 2 - 3) جرادة البحر (19)

ب) المدّ والجزر

ج) الطريق من سيراف الى الصين بحرا : من سيراف (مدينة ايرانية كانت تقع على ساحل الخليج العربي الفارسي) الى مسقط ثمّ الى مدينة كولم (كيلو اليوم) التي تقع بأقصى الجنوب الغربي من الهند ثمّ الى شبه جزيرة كلاه (La péninsule de Malacca) ومنها شمالا الى ساحل الهند الصينية (L'Indochine) الشرقيّ ثمّ الى خانفو (Canton) بالصين (13 - 14 - 15 - 16).

- موسم الصّيف وموسم الشتاء في خليج البنغال (10) والمعلومات المقدّمة تهمّ حركة الملاحة[5].

---

(3) تحقيق جان سوفاجي (Jean Sauvaget) باريس - 1948. وقدّم المحقّق النص بمقدّمة هامّة جدّا وعلّق عليه تعليقات كثيرة ومفيدة.

(4) تحيل الأرقام في استعراض المادة الى رقم الفقرة كما وردت في تحقيق سوفاجي.

(5) الموسم (ومنها في الفرنسية (La mousson) تطلق على الرّيح التي تهبّ من البحر نحو الأرض (موسم الصيف) ومن الأرض نحو البحر (موسم الشتاء) وتصحب هذه الرّياح سحب داكنة وزوابع وأمطار غزيرة وتحدث هذه الظاهرة الطبيعية في المحيط الهندي وفي أستراليا.

ـ البلـــدان :

جزر المديف (4) ـ

السياسة : الحاكم امرأة وهذا طبعا أمر غريب في نظر المسلمين في القرون الوسطى وحتى الآن.

المنتجات : العنبر ـ النارجيل (La noix de coco) أو جوز الهند ـ المنسوجات ـ **العملة** (الودع).

جزيرة سرنديب (5) ـ

السياسة : يحكم هذه الجزيرة ملكان أحدهما سنغالي (Singhalais) والآخر تمولي.

المنتجات : الحجارات الكريمة.

العادات : حرق الموتى (51).

الخاصيات : بهذه الجزيرة جبل الراهون (Le Pic d'Adam) الذي نزل به آدم فبقي أثر رجله في الصّخر.

جزيرة صومترا (6) ـ

المنتجات : الكافور ـ البقّم (Bois de Brésil) الذي كان يستعمل للصّباغة والتداوي اذ كانت جذوره تعدّ دواءا فعّالا ضدّ السمّ.

العادات : الصّداق في الزواج : رؤوس الأموات.

جزر لنجَلوس (7) ـ أي جزر نكوبار (Les îles Nicobar) التي تقع شمال جزيرة صومترا.

طرق المعاملات : مبادلة العنبر والنارجيل بالحديد ومثل هذا التبادل يسمّى مقايضة (Le troc).

البنغـــــال (28) ـ

السياسة : يحكم البلاد ملك.

المنتجات : نسيج القطن.

العملة : الودع.

الخاصيات : البنغال بلاد الكركدنّ الذي تصنع من قرنه مناطق (Ceintures) يبلغ ثمن الواحدة 2000 أو 3000 دينار بالصّين.

على أنّ القسط الأكبر من الكتاب مخصّص للصّين والهند.

- الصّين :

أ) التنظيم السياسي والاداري : على رأس البلاد ملك لا يظهر الا مرّة في كلّ عشرة أشهر (39) وعلى رأس كل مدينة من المدن الكبرى وعددها مائتان أمير يسهر على الشؤون الادارية والعسكرية وخصّي يهتمّ بالشّؤون المالية (37).

للتنقّل من منطقة الى أخرى داخل الصّين لا بدّ من **براءة** (Laisser - passer).

ب) السّياسة الاجتماعية : الفقير والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلمون الخطّة والكتابة (26) بكل مدينة مدرسة ومعلّم. (48) يتسلم المرضى الفقراء من خزانة الدولة ثمن الأودية (46) عندما يبلغ الرجل ثمانين سنة تدفع له من خزانة الدولة جراية (47).

ت) القضاء : لا يكتفي القضاء بشهادة شاهد بل يحرص على أن يعترف المتّهم بما ينسب اليه (45) لا يعترف لأحد بدين له على غيره الا اذا قدّم وثيقة تحمل بصمات المدين (44) اذا ما أفلس تاجر تسدّد خزانة الدولة ديونه ويحرّم عليه تعاطي التجارة (45). للمسلمين حيّ خاص بهم في خانفو (Canton) وعلى رأس المجموعة شيخ منهم تعيّنه السّلطة الصّينية واذا ما قام نزاع بين فردين منها حكم بينهما قاض حسب الشريعة الاسلامية (12).

حد الزنى القتل (57) وكذلك حدّ السّرقة (23 ـ 58).

ث) المعطيات الاقتصادية :

المنتجات : الفخّار الجيّد (34).

العملة : معاملتهم بالفلوس (قطع من نحاس) لا بالذهب ولا بالفضّة (34).

الضرائب : ليس لهم ضريبة على الأرض وانّما الضريبة على الرأس وهي تختلف باختلاف الجنس (ذكر أو أنثى) ومقدار الثروة (40).

الاحتكار : تحتكر الدولة بيع الملح وهذا يوفّر لها أرباحا طائلة (41).

تدخّل الدولة : للدولة مخازن تخزن فيها كل المواد وتبيعها في حالات الغلاء بأثمان معقولة حتى تضغط على الأسعار (40).

ج) الحياة اليومية والعادات : الصينيون وسخون يستنتجون بقطع من الكاغظ (23) لباسهم من حرير صيفا وشتاء. وفي الشتاء يرتدي الواحد منهم أكثر من سروال واحد (21). والرجال على رؤوسهم ما يشبه القلانس (ج فلنسوة) والنساء حاسرات الرأس في شعورهنّ أمشاط (23).

طعامهم الأساسي الأرز (في الشمال) والقمح (في الجنوب) (22 و62) وخمرتهم من الأرز لا من العنب (22) من عاداتهم اللواط (59) ومضاجعة النساء حتى في فترة الحيض (55).

ح) هم من عبدة الأصنام (23 ـ 64).

ـ الهنـــــــد :

أ) التنظيم السياسي : بالهند عدةملوك منهم من يعادون الاسلام ومنهم من لا يعادونه وكل هؤلاء الملوك يخضعون للسّلطان الأعظم (25 ـ 26 ـ27).

ب) النظام الاجتماعي : الطبقات الاجتماعية المغلقة (Les cartes) (53) وفي أعلم السلم طبقة البراهمة رجال الدين.

ت) القضاء : حدّ الزنا والسرقة القتل (57).

ث) المعطيات الاقتصادية : الهند بلاد الفلفل (ما نسمّيه بالعامية الفلفل الأكحل) (56) والساج (25) الذي هو من الخشب الرّفيع (Le teck).

العملة : القطع من ذهب أو من فضّة (60) ـ الفضّة التّبر (26) ـ المقايضة بالحديد (14) ج) الحياة اليومية والعادات : بناء الهنود بالحجارة والجصّ والطّين

وبناء الصّينيين بالخشب (60) طعامهم الأساسي : الأرز (62) ـ هم لا يشربون الخمر (55) ـ هم يستعملون المسواك وهذه العادة لا توجد عند الصّينيين (71) هم يغتسلون كل يوم قبل الغذاء ثم يأكلون (71) وللهنود لحي وشوارب وهم يحلقون رؤوسهم ولحيهم في حالة الحداد (65) هم لا يجامعون المرأة الحائض بل يخرجونها من المنزل خوفا من النجس (71) أهل الهند يعيبون الموسيقى (55) وهذه الملاحظة خاطئة لأن للموسيقى دورا هامّا في حياتهم لعلاقتها بمعتقداتهم.

ح) الدين : هم ماجوس يعبدون الأصنام.

وتنتهي المقارنة الضمنية أو الصريحة بين الهند والصّين بملاحظة عامة (72) : الصين أجمل من الهند.

الصين عامرة كلها (أي آهلة وأرضها مخدومة).

الصينيون أجمل من الهنود وهم يشبهون العرب في لباسهم اذ هم يرتدون أقبية (ج قباء) (veste serrée à la taille) ويتحزّمون بمناطق (Ceintures).

تعليق :

أ) لمّا كان المخبرون تجّارا فان اهتمامهم انصبّ أساسا على المنتجات التي تصدّر الى العالم الاسلامي وبالتالي الى موارد رزقهم ولذلك قلّت الملاحظات المتعلّقة بالجغرافيا الطبيعية.

ب) انّ ما يقولونه عن البشر صادر عن رغبة في مدّ غيرهم من المسلمين (خاصة التجار) بمعلومات تفيدهم وهذا ما يفسّر العناية التي يولونها الى الوضع السّياسي والتنظيم الاداري والأمن والتجارة (المقايضة ـ المكاييل والموازين والعملة والضرائب) والقضاء وفيما يخصّ الحياة اليومية والعادات فما يلفت انتباههم هو العادات التي تشبه العادات العربية الاسلامية (المسواك وعدم شرب الخمر والتطهّر بالهند أو اللباس بالصين) وتلك التي تختلف عنها والتي تثير استغرابهم.

ت) أما فيما يخصّ الدين فان اعتزازهم بالدين الاسلامي واعتقادهم بأنهم يملكون الحقيقة المطلقة جعلاهم لا يحاولون معرفة معتقدات «الكفّار» وطقوس عباداتهم واقتصروا على القول أنّ الهنود والصينيين عبدة الأصنام.

ث) وخلاصة القول هي أن مرجعهم (Leur référence) في الحكم (oz Jugement de valeur) ـ سواء كان هذا الحكم ضمنيا أو صريحا ـ هو الاسلام والمجتمع الاسلامي.

2) ـ أبو زيد السّيرافي : سلسلة التواريخ[6]

هو أبو زيد الحسن بن يزيد السّيرافي لا نعرف عنه سوى أنه ولد بسيراف وانتقل سنة 303 / 916 الى البصرة أين التقى في نفس السّنة أو بعدها بقليل بالمسعودي الذي أخذ عنه «أخبار» الصّين والهند» في رواية جديدة تختلف عن الرّواية الأصلية وهذه الرّواية الجديدة التي دوّنها السّيرافي في نفس الفترة هي التي وصلت الينا في كتاب يحمل عنوانا لا علاقة له بالمحتوى وهو «سلسلة التواريخ»[7]. والسيرافي نفسه لم يكن رحّالة ولا تاجرا ولا بحّارا وانّما كان أديبا يهتمّ بالجغرافيا وخاصة بالقصص البحرية التي كان من السّهل جمع محصول وافر منها سواء في مسقط رأسه أو في البصرة ميناء بغداد.

ووجوه الاختلاف بين النصّين (أخبار الصين والهند ـ سلسلة التواريخ) عديدة :

6) النص المعتمد بتحقيق فرّان (Ferrand) ضمن كتبه :
Voyage du marchand araba Sulayman en Inde et en Chine, rédigě en 851, suivi de remarques par Abu Zayd (vers 916) _ Paris, 1922.

(7) يفضّل الباحثون استعمال عنوان آخر هو «ملحق أخبار الصين والهند» وهذا العنوان الذي نستعمله.

أ) انّ المخبرين في «أخبار الصين والهند» تجّار وفي «الملحق» بحّارة وهؤلاء كما هو معروف ميّالون الى المبالغة والكذب[8] وقد انجرّ عن هذا الاختلاف في المصادر أن احتوى «الملحق» على فقرات طويلة تعنى بالبحر وبظروف الملاحة وضع المراكب[9] وعن اهتمام أكبر بالعجيب. ويمكن أن نفسّر هذا التغيير تفسيرا تاريخيا فقد وافق ظهور «أخبار الصين والهند» فترة ازدهار التبادل التجاري بين بغداد والشرق الأدنى (من سنة 184 / 800) الى سنة 264 / 878) فكان التجّار يقيمون بمدن الشرق الأدنى وموانيه ممّا يمكّنهم من معرفة هذه النواحي فينقلون ما يعنون. أمّا «الملحق» فقد دوّن سنة 304 / 966 أي في فترة تقلّ فيها التبادل التجاري هذا وذلك لسببين اثنين :

أولا : الاضطرابات السّياسية التي حدثت في الصين ابتداءا من 262 / 875 والتي قتل من جرّانها عدد من التّجار المسلمين المقيمين بالمدن الصّينية.

ثانيا : الفوضى التي سادت العالم الاسلامي ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث (ثورة الزيج في 255 / 869 وهجمات القرامطة على العراق في 306 / 918 و 312 / 924 و 315 / 927 ـ دخول البويهيين الى بغداد سنة 324 / 935).

وهكذا أصبح مصدر الأخبار الملاّح وقوي عنصر العجيب على حساب الخبر المستقى عن طريق العيان.

ب) في «الملحق» تصرّف في المعلومات التي تقدمها «أخبار الصين والهند» تصرّفا يخرج بها من الواقع المعاين الى الخرافة ولنضرب لذلك مثلا : في الكتاب الثاني خبر يفيد أن الصينيين يأكلون لحم الأمراء المتمرّدين على الملك (56) ويصبح هذا الفعل في «الملحق» خاصية من خاصيات الصّينيين وبندا من

---

(8) يقول السّيرافي : «وأحجمت عن رواية الأخبار الكاذبة التي يرويها الملاّحون والتي لا يصدقونها هم أنفسهم «الملحق ص 139 ولكنه في الحقيقة يروي كثيرا من مثل هذه الأخبار ـ أنظر كذلك ما يقوله الجاحظ عن كذب الملاّحين ـ كتاب الحيوان ـ الجزء 6 ـ ص 139.

(9) الملحق : 93 ـ 126 ـ 130 و131.

بنود قضائهم الجزائي (Droit pénal) يطبّق في حالات عديدة كالزّنى[10].

ج) المرجع في الملحق كما هو الشأن في «أخبار الصين والهند» هو الاسلام والمجتمع الاسلامي لكن الأحكام في الكتاب الثاني هي غالبا ضمنية في حين أنها في الملحق صريحة لا تخلو من احتقار خاصة اذا ما تعلّق الأمر بالأديان وطقوس العبادات[11].

3) - عجائب الهند :[12]

مؤلّف الكتاب مجهول وقد نسب خطأ الى بزرج بن شهريار الذي هو في الحقيقة واحد من النّواخذة (ج ناخوذة : قائد سفينة) الذين دوّن المؤلّف المجهول حكاياتهم. وأحداث هذه الحكايات حسب التواريخ المذكورة في الكتاب نفسه جرت بين 288 / 900 - 901 و342 / 953 - 954 والرّاجح أن تاريخ وضع الكتاب كان حوالي 345 / 956 - 957 أمّا اطارها المكاني فهو الشرق الأقصى (خاصة الهند) وسواحل افريقيا الشرقية (من عمان الى زنزبار)[13] وعجائب الهند مجموعة من القصص تختلف طولا وقصرا ولكنها تختصّ كلّها بأسلوب حيّ سلس وببراعة في الفنّ القصصي يجعلان من الكتاب مصنّفا أدبيا ممتازا.

على أن هذه القصص تنتمي في أغلبها الى ميدان العجيب ففيما يخصّ الاطار المكاني يتداخل الواقع والخيال من ذلك أن من البلدان ما هي حقيقية (الهند - جزيرة سرنديب - الزايح . . .[14]) ومنها ما هي خيالية : جزيرة النساء وجزيرة القردة والذهب[15] وغيرها التي قال لنا أنها في الشرق الأقصى. ثمّ انّ كثيرا من القصص هي من نسيج الخيال وعلى سبيل المثال نذكر قصة الخاتم الذي عثر عليه في جوف سمكة وقصّة وادي الحجارات الكريمة

(10) الملحق : ص 79 - 80.

(11) الملحق : ص 116 - 117 - 121 - 122 . 123.

(12) الطبعة المعتمدة هي طبعة ليدن 1883 - 1886 تحقيق فان دار ليث.

(13) يطلق العرب على هذه السّواحل (من عمان الى زنزبار) عبارة بلاد الزنج.

(14) الزايح (Javaga) : تطلق الكلمة على جزيرة صومترا أو على جزيرتي جاوا وصومترا.

(15) عجائب الهند : ص 14، 15، 41.

الذي تحميه الثعابين[16]. والحيوانات البرّية المذكورة هي أيضا عجيبة : الثعبان الذي يبتلع ثورا (!) والقرد الذي هو بين الحيوان والانسان. والفيل الذي يختصّ بضخامة الجسم وبما يقدّمه لانسان من خدمات كالكنس. والكركدن الذي هو من لدن رجله الى ابطه قطعة واحدة (هكذا !)[17] والقط المجنّح (!) والطرنر العظيم الرخّ وهذان الحيوان الأخيران من نسج الخيال طبعا.

(أخيرا وخلافا لأخبار الصين والهند وحتى لملحق فانّ نصيب الأرض في عجائب الهند قليل اذا ما قورن بنصيب البحر وعالمه حتى انّه يمكننا أن نعتبر عجائب الهند لوحة كبير تصوّر عالم / البحر بنباته وحيواناته وأخطاره وعالم البحّارين. ففي البحر كما يقال لنا في الكتاب غابات أشجارها أعظم وأهول من أشجار الأرض وفيه كذلك مخلوقات متنوّعة جدّا تنوّع المخلوقات على وجه الأرض ولكل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض ما يشبهه من السمك على أن الحيوانات البحرية المذكورة هي خاصة الحيوانات التي تثير مخيّلة القارئ أمّا لضخامة جسمها كالوال (La baleine) أو لغرابة شكلها كالسّرطان (Le crabe) أو لخطرها كالمنشار (Le poisson-scie) أو لخاصية تجعلها تشبه حيوانا أرضيا : الجرادة الماذية أو السّمكة الطائرة. أمّا الملاحون فالملاحظات في شأنهم كثيرة وهي تتعلّق بمغامراتهم وسلوكهم الذي يتّسم بالتباهي بأعمالهم «البطولية» وبالقسوة في معاملة المسافرين وبالمجون والسّخف.

من خلال هذا العرض الوجيز يتّضح لنا أن الأخبار المستقاة من العيان (أخبار الصين والهند) عوّضتها في الملحق وعجائب الهند حكايات الملاّحين فانجرّ عن هذا الاختلاف في المصادر أنّ تقلّص الواقع المشاهد لفائدة الخيال وبذلك قلّت الفائدة الوثائقية في الكتابين الأخيرين ولكن هذا لا يعني أنهما عديما القيمة فبالاضافة الى القيمة الأدبية يكوّن الكتابان جزءا هامّا من مدوّنة (Un corpus) يمكن استغلالها لدراسة العجيب (Le merveilleux)وزقسامه ووظائفه الأدبية والسوسيولوجية[18].

---

(16) عجائب : ص 105 ـ 120.

(17) سبق الى هذا الوصف الخاطئ أخبار الصين والهند (28).

(18) من المراجع التي يمكن استغلالها في هذه الدراسة كتاب ت. تودوروف (T: Todorov)
Introduction à la littérature fantastique: Editions du Seuil- Paris, 1970.

نصوص من أخبار الصّين والهند

النص الأول :

ويقال انّ لملك الصّين من أمّهات المدائن أكثر من مائتي مدينة[19] ولكلّ مدينة ملك وخصيّ وتحت كلّ مدينة مدائن. فمن مدائنهم خانفو وهي مرسى السّفن. تحتها عشرون مدينة وانّما تسمّى مدينة اذا كان لها جادم[20] والجادم مثل البوق ينفخ فيه وهو طويل وغلظه ما يجمع الكفّين جميعا وهو مطليّ بدواء الصينيات[21] وطوله ثلاثة أو أربعة أذرع ورأسه دقيق بقدر ما يلتقمه الرجل ويذهب صوته نحوا من ميل ولكل مدينة أربعة أبواب فعلى كلّ باب منها من الجادم خمسة تنفخ في أوقات من الليل والنهار وعلى (باب) كل مدينة عشرة طبول تضرب معه وانما يفعل ذلك لتعلم طاعتهم للملك وبه يعرفون أوقات الليل والنهار ولهم علامات ووزن للسّاعات.

النصّ الثاني :

واذا ما مات الملك ببلاد السرنديب صيّر على عجلة قريبا من الأرض[22] وعلّق في مؤخّرتها مستلقيا على قفاه يجرّ شعر رأسه التراب عن الأرض وامرأة بيدها مكنسة تحثّ التراب على رأسه وتنادي : «أيّها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وكأن أمره نافذا فيكم وقد صار الى ما ترون من ترك الدنيا وأخذ روحه ملك الموت فلا تغترّوا بالحياة بعده» وكلاما نحو هذا ثلاثة أيّام ثم

---

(19) انّ عدد المدن هذا يدل على المستوى الحضاري الذي بلغته الصّين.

(20) تعريب للكلمة الصينية Gan d'oung.

(21) أي مطلي بنفس المادة التي تطلى بها الصينيات.

(22) أي وضع على عربة قريبة من الأرض (Un chariot bas).

يهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ثم يرمى برماده في الرّيح والهند كلّهم يحرقون موتاهم بالنار وسرنديب آخر الجزائر وهي من بلاد الهند وربّما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه وان شئن لم يفعلن.

النّص الثالث :

وأمّا أهل الهند فانه اذا ادّعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل قيل للمدّعي «أتحامله النار ؟»[23] فيقول : «نعم» فتحمى حديدة، احماء شديدا حتى تظهر النار فيها ثم يقال له : «ابسط يدك» فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق ثم يمشي بها مقبلا ومديرا ثم يلقيها عن يدهٌ فيؤتى بكيس من جلود فتدخل يده فيه ثم يختم بختم السّلطان فاذا كان بعد ثلاثة أيّام أتي بأرز غير مقشر فيقال : «افركه» فان لم يكن في يده أثر فقد فلج[24] ولا قتل عليه ويغرّم الذي ادّعى عليه منّا من ذهب[25] يقبضه السّلطان نفسه وربّما أغلوا الماء في قدر حديد أونحاس حتى لا يقدر أحد (أن) يدنو منه ثم يطرح فيه خاتم حديد ويقال : «أدخل يدك فتناول الخاتم» وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة ويغرم المدّعي أيضا منّا من ذهب.

---

(23) اي هل تقبل أن نختبره بالنار.

(24) فلج : فاز.

(25) المن : هو شرعا 180 مثقالا والمثقال 25.4 غرام.

نصوص من عجائب الهند

النّص الأول :

حدّثني أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمّويه بالبصرة أنه سمع في حداثته أن مردويه بن زرابحت وكان أحد ربّانية الصّين وبلاد الذهب ذكر أنه كان مجتازا بناحية جزيرة الزابج وأنه سلك في بعض الأيام بين قرنين ظاهرين في البحر قدّر أنهما جبلان في الماء وأنه لما جاوزهما غاصا في البحر فقدّرهما ظفري سرطان فقلت لأبي محمد : هل أحكي عنك هذه الحكاية فقال لي : قد سمعت بها وهو شيء عظيم. لا أدري ما أقول فيه الا أن السّرطان يعظم في البحر جدّا.

ويقال ان كل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض في البحر من السمك مثله وما يشبهه ولقد رأيت جون أيله[26] من البلاد الشامية سمكا صغيرا يشبه لون الشقراق[27] لا يغادر يطير من الماء ويغوص فيه.

ومن عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل من أن الأمواج اذا اضطربت وتكسّرت بعضها على بعض انقدحت منه النار يخيّل الى راكب البحر يسير في بحر نار.

النّص الثاني :

ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت الى يومنا هذا ما حدّثني به بعض لتّجار قال : خرجت في مركب من سيراف في سنة ثلاثمائة وستّ أريد

(26) جون : خليج ـ جون أيله : خليج العقبة بالبحر الأحمر.

(27) نوع من الطّير.

صيمور[28] وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبا وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر والمراكب الموصوفة في البحر ونواخذتها[29] مشهورون لهم قدر ومنزلة في البحر وكان في المراكب ألف وثلاثمائة رجل من التّجار والنواخذة والبانانية[30] وغيرهم من صنوف الناس وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يعرف قدره لكثرته. فلمّا سرنا أحد عشر يوما رأينا آثار الجبال ولوائح[31] أرض صيمور وما سار هذا السير السريع قبلهم أحد فيما سمعنا فاستبشرنا وسررنا وبشّر بعضنا بعضا بالسّلامة وأخذنا في الاستعداد لأنا قدّرنا أن نصبح من غد الأرض ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع وأخذنا الخبّ والمطر والرّعد والبرق الربّانية والبانانيّة : نطرح الأمتعة فمنعهم أحمد[32] وقال : لا أطرح الا بعد أن يخرج الأمر عن يديّ وأعلم أني هالك ونزل الرّجال ينزفون الجمّة[33] من الجانبين والمركبان على مثل حالنا كل واحد منهما ينتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره فيفعل مثله وضجّ التّجار وقالوا له[34] : اطرح الأمتعة وأنت في الحلّ فانّا نهلك فقال : لا أطرح البتّة، ولم يزل الأمر يتزايد الى أن مضت ستّة أيّام. فلمّا كان في اليوم السّادس وكاد المركب أن يغوص في البحر قال : اطرحوا الحمولة فلم يكن طرح شيء لأن الخوابي[35] والأعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه[36] خمسمائة منّ قد صار فيه ألف وخمسمائة منّ بالمطر وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب الى الماء ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلا وقيل لأحمد : قم فانزل في القارب فقال : لا أبرح من

(28) مدينة هندية على ساحل مليبار (Malabar).

(29) المفرد ناخذا أو ناخذاناه (كلمة فارسية) : قائد السفينة.

(30) المفرد : باناني أو بانيان (كلمة هندية معناها تاجر) على أن كلمة في عجائب الهند استعملت بمعنى البحّار وذلك أن الملاحين كانوا يتعاطون التجارة في المواني.

(31) ما لاح من بعيد.

(32) أحمد هذا هو ناخذا احدى السفن الثلاثة.

(33) ما جمّ من الماء في قعر السّفينة.

(34) الضمير يعود على أحمد.

(35) المفرد خابية والأصل خابئة من خبأ والمقصودة : الأمتعة المصرورة.

(36) الضمير يعود على المركب.

مركبي فانّه أرجا[37] في السلامة من القارب وان تلف تلفت معه فلاحظ لي في الرجوع بعد تلف مالي . . . وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة فلم يسلم منهم أحد الا نفر من الذين كانوا في القارب وكان في جملتهم ربّان مركب أحمد وكان اسمه بقي.

ملاحظة : هذا النّص من النصوص القليلة التي اقتصر فيها على رسم الواقع بلا تزيّد.

النص الثالث :

وحدّثني أحمد بن علي بن منير الناخذا السّيرافي وكان أيضا من بقية النواخذة الذين سافروا البحار ومضى لهم الاسم والصيت في البحر أنّ بعض شيوخ الهند حدّثه بسرنديب أن مركبا كسر له فسلم نفر من أهله في القارب ووقعوا الى جزيرة بقرب الهند فبقوا بها مدّة الى أن مات أكثرهم وبقي منهم سبعة وكانوا في مدّة مقامهم قد زأوا طيرا عظيما يقع في الجزيرة ويرعى فاذا كان وقت العصر طار فلا يدرون الى أين يمضي فأجمع رأيهم على أن يتعلّق واحد منهم برجليه ليحمله لمّا ضاقت صدورهم وعلموا أنه لا بدّ من الموت وتعلّقت نفوسهم بأمر الطائر وان كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذي يتمنّونه وان قتلهم فهو الذي يتوقّعونه فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر وجاء الطير على الرسم[38] فرعى فلمّا جاء وقت انصرافه تلطّف الرّجل في

---

(37) ترجى منه السلامة أكثر مما ترجى من القارب.

(38) على الرسم : على العادة.

الدّنو منه وتعلّق باحدى رجليه وشدّ نفسه مع ساقيه بقشور الشجر فطار به في الهواء وهو متعلّق بفخذيه وقد جعل رجليه مشتبكة برجليه فعبر بحرا وطرحه وقت غروب الشمس على جبل فحلّ نفسه وسقط كالميّت ممّا تعب وكلّ ومرّ به وما عاين من الأهوال فمكث لا يتحرّك الى أن طلعت الشمس من غد فقام ينظر فاذا راعي غنم فسأله بالهندية عن المواضع فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبنا فتحامل حتّى دخل القرية ولم يزل الطائر ينقلُ القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في تلك القرية وتسبّبوا الى النفوذ[39] الى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب وركبوا في مركب. واتّهم حدّثوا بأمر مركبهم والجزيرة التي وقعوا اليها ومقدار مسافة ما حملهم الطائر الى تلك القرية فوجدوه زيادة على مائتي فرسخ[40].

(39) طلبوا الوسيلة لبلوغ بعض بلاد الهند ووجدوها.

(40) أي ما يقارب 1100 كلم (أ).

الرحلة الى آسيا الوسطى

قبل الحديث عن الرحلات الى الشمال يحسن أن نستعرض في ايجاز الشعوب التي كانت وراء الحدود الاسلامية في آسيا الوسطى.

1) على الحدود الغربية (أي وراء أذربيجان) : شعوب القوقاز[1].

أ) ـ القوقاز الشرقي : ورث الاسلام هذه الناحية عن الأكاسرة الى مدينة دربند على السواحل العربية من بحر القزوين) وراء دربند شعبان : شعب خيذان Les Qaytak وشعب الخزر[2].

ب) ـ القوقاز الأوسط : كان به الآبر (Les Avars)[3] وهم خليط من

(1) يسمى العرب جبل قوقاز : القبق.

(2) انظر فيما يخص الخزر الصفحات الموالية.

(3) يطلق عليهم كذلك : عبارة أهل السّرير لأنهم ورثوا العرش عن الأكاسرة بعد هزيمتهم من قبل المسلمين.

المسيحيين والمشركين (des païens) واللان (Les Alains)[4] وهم من أصل فارسي واليهم ينسب باب من أبواب القوقاز الأوسط : باب اللان La passa de Dariah .

ج) ـ القوقاز الغربي والقوقاز الجنوبي : كان بهما الشركس (الكاسك أو الكشك عند الجغرافيين العرب) والأبخاز وهم من النصارى والى جنوبهم الجرجان (أو الجرزان) (Les Géorgiens) وهم كذلك من النصارى ولذلك كانت علاقتهم بالأرمن (Les Arméniens) علاقات متينة.

كان الاسلام بالقوقاز يواجه شعوبا كثيرة ولذلك كان الاعتناء بالثغور وخاصة منها الثغور الواقعة بأبواب القوقاز أي أفواه الشعاب (Les Défilés) التي يمكن أن يهجم منها الأعداء على أذربيجان والعراق على أن هذا الحذر لم يمنع التبادل التجاري بين الاسلام والشعوب المذكورة.

2) على الحدود الشرقية : خراسان وبلاد ما وراء النهر.

كان على الاسلام أن يواجه على حدوده الشرقية الأتراك الذين يمتد عالمهم من سواحل بحر القزوين الشرقية الى جبال التاي (Altar) وأهم القبائل التركية هي :

أ) ـ التغزغر : خليط من الأتراك والماغول وهم الذين يسمون بالأويغير (Les Ouïghirs) كانوا نازلين بوادي الأورخون (La vallée d'Orkhon) جنوب بحيرة بيكال (lac Baïkal) ثم طردهم الخرخيز (les Khirghiz)[5] حوالي 240 / 840 فنزحوا الى الجنوب نحو جبال تيان شان (Tien - Chan) واستقروا بالجهة الشرقية منها.

---

(4) المزيد من المعلومات أنظر دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الجديدة مادة : Alain ج 1 ص 365.

(5) قبيلة من القبائل التركية سيرد الكلام عنها بعد أسطر.

ب) ـ الخـرلخ (أو الخلّخ) (les Qarluq) : كـانوا نـازلين غـربـي بلاد التغزغـز فكانت أراضيهم تمتدّ من غربي جبال تيان شان الى جهة أسفيجاب المدينة الاسلامية الواقعة وراء نهر سيحون (Sir - Darya).

ج) ـ الخرخيز : كانوا نازلين شمال بلاد التغزغز فكانت أراضيهم تمتد من بحيرة بلكاش (lac Balkach) الى بحيرة بيكال على أن الجزء الأكبر منها كان بجبال الاي والقبائل الثلاثة المذكورة قبائل جبلية في حين أن بقية القبائل قبائل كانت تعيش في الأراضي المبسوطة.

د) ـ الكيماك (les Kimak) : كانوا شمال التغزغز والخرخيز وكانوا ينتقلون بين نهر سيحون ومفاوز (les steppes) روسيا الغربية.

هـ) ـ القفجق (les Kiptchaks) والبشجرت (أو البشجرد) والبجنك (أو البجاناك) (les Petchénègues) وهذه القبائل كانت تعيش بالسهول : القفجق من نهر ايرتيش (Irtych)الى جبال الأورال (Oural) والبشجرد والبجنك من جبال الأورال الى نهر الفولجا (اتل).

و) ـ العز (أو العزية) الدين ينتمي اليهم السلاجقة ـ كانت أراضيهم من بحر القزوين الى نهر سيحون على تقويس من بلاد الاسلام اذ كانوا على أبواب جرجان المدينة الاسلامية الواقعة في الجنوب الغربي من بحر القزوين وحول منطقة خوارزم الواقعة جنوب بحر أرال (La Mer d'Aral) وعلى أبواب مدينة مرو (بخراسان) وبخارى وسمرقند (ببلاد ما وراء النهر أي نهر جيحون) وأشفيجاب وراء نهر سيحون.

بعد هذا العرض الوجيز ننتقل الآن الى الرحالين :

I ـ تميم بن بحر المطوّعي :

لا نعرف شيئا عن الرجل لأن نسبته توحي بأنه كان من المتطوعين لحماية الثغور وكان عددهم كبيرا خاصة على حدود القوقاز وخراسان. وقد كلف تميم

على ما يبدو بمهمه سياسية الى خاقان الترك والتعزعز بين 143 / 760 و184 / 800 لمّا كانت مملكتهم بوادي الأورخون ولئن لم يصلنا من نص رحلته الا قطعة حفظها لنا ابن خرداذبه في المسالك (ص 31.30) وابن الفقيه في المختصر (ص 328 ـ 329) وياقوت الحموي في معجم البلدان (ج 1 ص 840) فان هذه القطعة تدل على أن الرجل هو أول عربي بمدنا بمعلومات عن التعزعز قبل نزوحهم الى جبال تيان شان.

يقول ابن خرداذبه نقلا عن تميم دون أن يذكر مصدره[6].

«ومن نوشجان الأعلى الى مدينة خاقان التغزغز[7] مسيرة ثلاثة أشهر في قرى كبار وخصب وأهلها أتراك فيهم مجوس / يعبدون النار وفهم زنادقة والملك في مدينة عظيمة[8] لها آثنا عشر بابا من حديد وأهلهازنادقة وعن يسارها كيماك[9] وأمامها[10] الصين على ثلاثمائة فرسخ وللملك التغزغز خيمة من ذهب على أعلى قصره تسع مائة رجل ترى من خمسة فراسخ. فأما ملك كيماك ففي خيام يتبع الكلأ، بين طراز[11] وبين موضعه[12] مسيرة واحد وثمانين يوما في مفاوز. . .

---

(6) أول من ذكر تميم بن بحر هو ابن الفقيه وبذلك أمكن معرفة مصدر ابن خرداذبه وياقوت الحموي وغيرهما في الحديث عن التغزغز ومملكتهم بوادي أورخون.

(7) خاقان : ملك.

(8) المدينة المقصودة هي عاصمة التغزغز خامجو (أو خامشو) (Kan - Chou).

(9) احدى قبائل الترك الكبيرة وقد سبق ذكرها.

(10) أي شمالها.

(11) طراز : مدينة اسلامية شمال اسفيجاب والمدينتان تقعان وراء نهر سيحون.

(12) مقرّه.

II ـ أحمد بن فضلان ورسالته[13]

كل ما نعرف عن الرجل أنه شارك في سفارة الى بلغار(Les Bulgares) الفولقا[14] في أيّام الخليفة العباسي المقتدر وكان البلغار قد أرسلوا رسولا الى عاصمه الخلاقة يرجون العون من المقتدر على الخزر[15] ويطلبون انفاذ من يفقّههم في الدين الاسلامي الذين اعتنقوه منذ مدة وقد كلف ابن فضلان بدور التفقيه.

خرجت السفارة من بغداد في 11 صفر 309 / 21 جوان 921 ووصلت الى ملك البلغار يوم 12 محرم 310 / 12 ماي 922 وقد مرّت في طريقها بهمذان فالري (قرب طهران اليوم) ونيصابور ومرو وعبرت نهر جيحون فبلغت بخارى أين التقى ابن فضلان في سبتمبر 921 بضورين السمانيين والجغرافي الشهير الجيهاني ثم سارت على ضفة نهر جيحون الى خوارزم وعبرت صحراء أوست أورت (les steppes d'Oust-Ourt) ونهر يَيق (le fleuve Oural) فوصلت الى حوض الفولقا. أما خط سير الرجعة فهو مجهول اذ أن خاتمة الرسالة قد امتدت إليها يد الضياع.

---

(13) النص المعتمد : رسالة ابن فضلان ـ تحقيق سامي الدّهان ـ دمشق 1959.

(14) يسمّيهم ابن فضلان : الصقالبة ـ أمّا قولنا بلغار الفولقا وللتفريق بين هؤلاء بلغار دنب (أو دنابي) (Le Danube) الذين يطلق عليهم اسم برجان. والمجموعتان من أصل واحد فالبلغار الى القرن الأول هـ / القرن التاسع كانوا نازلين بالقوقاز بين نهر كوبان (Kouban) وبحر ازوف (Mer d'Azov) ثم نزح قسم منهم الى الشمال واستقر بمصب الكاما في الفولقا(Le Coufluent Kama-Volga) وهم بلغار الفولقا ونزح القسم الآخر نحو العرب الى بلاد الدنابي (Les pays du Danube).

(15) كان الخزر ينزلون على الضفة اليمنى من نهر الفولقا وكانوا يسيطرون على مناطق شاسعة تمتدّ من بلاد بلغار الفولقا شمالا الى القوقاز وبحر القزوين جنوبا. وقد اعتنقوا دين موسى في عهد هارون الرشيد -170 ـ 193 / 780 ـ 809) على أن المجتمع لم يكن على دين واحد فكان فيه اليهود والنصارى والمسلمون والوثنيون.

وهذه الرسالة أثر طريف وهام لسببين اثنين :

- السبب الأول : هو أنها سرد (Un Récit) يتخلله وصف وتعبير عن مشاعر مختلفة من فرح وغبطة وخوف وفزع ودهشة وعجب. ثم ان السرد يقوم على معادلة بين الزمان والمكان (كنت سنة كذا يوم كذا بمكان فرأيت) والسرد والمعادلة المذكورة علامتان أساسيتان لنمط الرحلة ومن هذا الجانب يمكن أن نعد الرسالة هذه رحلة.

- السبب الثاني : هو أن ابن فضلان يمدّنا بمعلومات دقيقة ومتنوعة عن خوارزم وأهلها وعن الترك (الغزّ والبجنك والبشعرد) وعن بلغار الفولقا وعن الروس الذين رآهم ببلاد البلغار وأخيرا عن الخزر الذين سيورد بشأنهم أخبارا سمعها بهذه البلاد نفسها.

وقد انتبه المستشرقون الى أهمية رسالة ابن فضلان فعكفوا على دراستها فأفرد لها المستشرق الروسي فرين (Frahn) بحثا ممتازا كان حافزا لظهور بحوث أخرى. نذكر منها بحث برتولد (Barthold)، وقد ترجمت الرسالة الى الفرنسية من قبل موريس كانار (Marouis Canard) الذي أثرى الترجمة بحواشي وتعاليق مفيدة جدا[16].

تحليل الرسالة :

يمكن أن نقسم مادة الرسالة الى قسمين أساسيين : المادة الجغرافية أو بالأحرى المادة المتعلقة بالطبيعة والمادة الاتنوغرافية أي المادة المتعلقة بالبشر.

1) الجغرافية الطبيعية

يتكون هذا القسم من ملاحظات استقاها الرجل من تجربته الخاصة فلا مجال فيها لأية نظرية أما الأغراض (les thèmes) فهي تحوم حول :

(16) Annales de l'Institut d'Etudes Orientales (A.I.E.O) de la Faculté des Lettres de l'Université d'Alger; XVI; 1958; pp 41 - 146.

- الهواء (الطقس) - شدة البرد.
- الغياض والأنهار.
- طلوع الشمس وغيابها بالأصقاع الشمالية.
- قصر الليل بهذه الجهات وما يثيره من مشاكل فيما يخصّ أوقات الصلاة.
- كثرة الصواعق ببلاد الصقالبة.

2) العناصر الاتنوغرافية (les éléments ethnographiques) وهي كثيرة متنوعة.

أ) - الأتـــراك

- التنظيم الداخلي : في أعلى الهرم الخاقان وله نواب على أن أمرهم شورى بينهم[17] وذلك أنهم «متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسّهم فنقض ما أجمعوا عليه» (ص 91) أي بعبارة أخرى لكل فرد حق الأعتراض وهذا طبعا يثير دهشة ابن فضلان لأن الشورى في البلاد الاسلامية كانت مقصورة على أهل الحل والعقد».
- الحياة الاقتصادية : الأتراك كما يصفهم ابن فضلان قوم رحل[18] يستمدون ثروتهم أساسا من تربية الماشية والغزّ أكثرهم ثراء فمنهم «من يملك عشرة آلاف دابّة ومائة ألف رأس من الغنم» (ص 106) على أن تربية الماشية ليست مصدر رزقهم الوحيد فهم يحمون القوافل التي تجتاز ببلدهم مقابل هدايا.
- الحياة اليومية :

---

(17) الضمير هم يعود على الغز.

(18) في الحقيقة كان للأتراك مدن - يقول ابن خرداذبه (ص 31) : وجميع مدائن الترك ست عشر مدينة). أنظر كذلك المسعودي : مروج الذهب، تحقيق بلا (Ch. Pellat) الفقرة 224. على أن الصفة الغالبة في حياتهم الترحال.

المأكل والمشـرب : ليس لهم حبـوب سـوى الجـاورس وهو الدخن (le millet) طعامهم الأساسي : الدّخن ولحم الدواب (البقر والغنم والخيل) وألبانها.

اللباس : لباسهم من لبد (Feutre) وفراء.

المسكن : بيوت من لبد.

الهيئة والنظافة : هم يحلقون لحيهم لا شواربهم.

هم لا يستنجـون من غـائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غيـر ذلك وأقذرهم البشغرد.

وضع المرأة : هي لا تحتجب ولكنها تعدم في حالة زنا كما يعدم الزاني.

الزواج : المهـر ثيـاب أو دواب واذا وفّى الرجل بالصـداق دخل الى المنزل الذي فيه خطيبته فيأخذها.

لا يتزوج التركي الا من امرأة واحدة.

اذا مـات رجل وله زوجـة وأولاد تزوج الأكبـر من ولده بامـرأته اذا لم تكن أمه.

الموت ورسوم الحداد (أنظر النص).

- المعتـقدات : لا يقـدر أحـد من التـجار أو غيـرهم من المسلمين أن يغتـسـل من جنـابة بمحـضـرتهـم الا ليـلا من حـيـث لا يـرونه وذلك أنـهم يغـضـبـون ويقولون : هذا يريد أن يسحرنا لأنه قد نفرس في الماء ويغرّمونه مالا.

هم لا يدينون لله بدين ويسمون كبراؤهم أربابا.

اذا لحق أحـدهم مكروه استـعطف تنكري (Tengri) الذي هو اله مـشتـرك بين الأتراك والماغول.

والبشعرد ينحتون خشبة على قدر الحليل يعبدونها بدعوى أن الانسان يحرج من الاحليل (أي الذكـر) ومنهـم من يعـبـد اثني عـشـر ربّا وطـائفـة تعـبـد الحيسات وطائفة تعبد السمك وأخرى تعبد الكراكيّ (وهو طائر).

ب) ـ الصقالبة

ـ التنظيم الداخلي : من علامات هيبة الملك أنه اذا اجتاز في السوق لم يبق أحد الا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت ابطه وكل من يجلس بين يديه يجلس باركا مكشوف الرأس وفي المآدب يكون الملك وحده على سرير ولا يمد أحد يده الى الأكل حتى يناوله لقمة فساعة يتناولها تأتيه مائدة.

ـ علاقة ملك الصقالبة بملك الخزر.

على ملك الصقالبة ضريبة الى ملك الخزر وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر وهذه الاشارات تدلنا على ضغط الخزر على الصقالبة ولذلك طلب ملك الصقالبة العون من الخليفة العباسي.

ـ الحياة الاقتصادية.

المنتجات الزراعية : الجاورس والحنطة والشعير والعسل والرمان والبندق.

التجارة : للصقالبة سوق عظيمة على نهر اتل (الفولقا).

هم يجهلون الغنم من بلاد الترك كما يجلبون جلود السمّور والثعلب الأسود التي يصدرونها.

الضرائب : يؤدي الصقالبة لملكهم في كل سنة من كل بيت جلد سمّور للملك كذلك حصة من كل غنيمة ومن أقام وليمة لا بد له من زله[19] للملك علىٰ قدر الوليمة وقسط من نبيذ العسل والحنطة ويأخذ الملك من حمولة السفن القادمة من بلد الخزر العشر كما يختار من كل عشرة رؤوس من الرقيق رأسا.

القضاء : حدّ الزنا الشنق نصفين وكذلك حد السرقة وحد القتل القصاص.

---

(19) الزلّة : ما تحمله من مائدة صديقك او قريبك.

الحياة اليومية :

المأكل : الجاورس والحنطة والشعير ولحم الدابة.

ليس لهم زيت ولا دهن سوى دهن السمك.

المسكن : القباب (ج قبة : خيمة).

العائلة : الجد هو الذي يربي حفيده حتى يصير رجلا.

اذا مات الرجل ورثه أخوه دون أولاده.

الصحة : أكثرهم معلول ويموت أكثرهم بالقولنج[20].

- الموت ورسم الحداد :

يوضع بباب قبة الميّت مطرد (راية) ويدفن الميت ويجعل حول قبره سلاحه.

لا تبكي عليه النساء بل الرجال ويضرب العبيد (ان كان له عبيد) جنوبهم بسيور من جلد ويدوم الحداد سنتين.

- المعتقدات :

هم يتبركون بعواء الكلاب ويفرحون به ويقولون سنة خصب وبركة وسلامة» (ص 127).

اذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه على حالته حتى يتلفه الزمان ويقولون «هذا بيت مغضوب عليهم» (ص 132).

واذا رأوا انسانا له معرفة بالأشياء قالوا : «هذا حقّه أن يخدم ربنا» فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلا وعلّقوه في شجرة حتى يتقطع (ص 132 - 133).

ومن بال على سلاحه انتهبوه وأخذوا سلاحه وثيابه وجميع ما معه ومن حط عنه سلاحه وجعله ناحية وبال لم يتعرضوا له.

(20) القولنة : مرض بالأمعاء مؤلم جدا يعسر معه خروج الثقل والريح.

ج) ـ الروس : رأى منهم ابن فضلان البعض ببلاد الصقالبة

ـ الخلق ة واللباس والحياة الجنسية (أنظر النص).

ـ حد السرقة : الشنق.

ـ الموت : اذا مات الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث : ثلث لأهله وثلث يقطعون له به ثيابا وثلث يشترون به نبيدا يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها.

ـ المعتقدات ـ هم يسجدون لأخشاب رسمت عليها وجوه تشبه وجه الانسان.

النّص الأول : شدة البرد بخوارزم

. . . فأقمنا بالجرجانية[21] أيّاما وجمد نهر جيحون من أوله الى آخره وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرا وكانت الخيل والبعال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتحرك فأقام على ذلك ثلاثة أشهر.

فرأينا بلدا ما ظننا الا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه ولا يسقط الثلج الا ومعه ربح عاصف شديدة (. . .) ولقد رأيت لهواء بردها (أي جرجانية) بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الانسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدا ولا يستقبله انسان ولقد كنت أخرج من الحمام فاذا

(21) جرجانية : مدينة بخوارزم تقع على الضفة الغربية من نهر جيحون قرب مصبه في بحيرة جرجان (أي بحر أرال mer d'Aral).

دخلت الى البيت نظرت الى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها الى النار ولقد كنت أنام في بيت جوف بيت وفيه قبة لبود[22] تركية وأنا مدثر بالأكسية والفرى[23] فربما التصق خدّي على المخدّة.

ولقد رأيت الجباب بها تكسى البوستينات[24] من جلود الغنم لئلا تتشقق وتنكسر فلا يعني ذلك شيئا.

ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد وأن الشجرة العظيمة العادية لتتفلّق بنصفين لذلك.

ابن فضلان

النّص الثاني :

. . . واذا مات الرجل منهم (أي الترك) حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت وعمدوا اليه فألبسوه قرطقته[25] ومنطقته[26] وقوسه . . . وجعلوا في يده قدحا من خشب فيه نبيذ وتركوا بين يديه اناء من خشب فيه نبيذ وجاؤوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه وجعلوا فوقه مثل القبة من الطين وعمدوا الى دوابه على قدر كثرتها فقتلوا منها مائة رأس الى مائتي رأس الى رأس واحد وأكلوا لحومها الا الرأس

---

(22) لبودج ومفرد لبد : كل شعر أو صوف متلبد سمي به للصوق بعضه ببعض.

(23) كذا في الأصل ولعلها الفراء ج فروة.

(24) ج بوستين : العباءة أو المعطف الكبير من الجلد الغليظ.

(25) قرطق أو قرطفة : قميص أو معطف قصير يصل الى نتصف الجسم.

(26) حزام عريض من جلد.

والقـوائم والجلد والذنب فـانهم يصلبـون ذلك على الخـشب وقـالوا : هذه دوابه يركبها الى الجنة فان كان قتل انسانا وكـان شجاعا نحتوا صورا من خشب على عدد من قتل وجعلوها على قبره وقالوا «هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة».

وربّما تغافلوا على قتل الدواب يوما ويومين فيحـثهم شيخ من كبارهم فيقول «رأيت فلانا يعني الميت ـ في النوم فقال لي «هو ذا تراني وقد سبقني أصحابي وشققت رجلاي من اتباعي لهم ولست ألحقهم وقد بقيت وحدي «فعندها يعتمدون الى درابه فيقتلونها ويصلبونها عند قبره فاذا كان بعد يوم أو اثنين جاءهم ذلك الشيخ وقال «قد رأيت فلانا وقال : عرّف أهلي وأصحابي أني قد لحقت من تقدمني واسترحت من التعب.

ابن فضلان

النّص الثالث :

ورأيت الروسية وقد وافوا في تجاراتهم ونزلوا على نهر اتل فلم أرأتم أبدانا منهم كأنهم النخل شقر حمر لا يلبسون القراطق[27] ولا الخفاتين[28] ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه ويخرج احدى يديه منه ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين . . .

وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقّه مشدودة اما من حديد وأما من فضة وأما نحاس واما ذهب على قدر مال زوجها ومقداره وفي كل حقه حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضا وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة لأن

---

(27) كلمة سبق شرحها.

(28) الخفاتين ج والمفرد خفّان : صدرية تحت الثياب.

الرجل اذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقا وان ملك عشرين ألفا صاغ لها طوقين وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها يزداد طوقا لامرأته فربما كان في عتق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة . . .

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من طعام . . .

ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر ولكل واحد سرير يجلس عليه ومعهم الجواري الروقة[29] للتجار فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر اليه . . .

وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلا نهارا وربما مات الواحد منهم والقدح في يده واذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : من منكم يموت معه ؟ فيقول بعضهم : أنا فاذا قال ذلك لا يستوي له أن يرجع أبدا ولو أراد ذلك ما ترك وأكثر من يفعل لهذا الجواري.

ابن فضلان

(29) الجواري الروقة : الجواري الجميلات اللاتي يرقن.

بـلاد الـروم (Byzance)

كانت بيـزنطة[1] أقـرب البلدان الى العـالم لاسـلامي وأشـدها خطرا عليـه ولذلك كـان من الضروري مـعرفـة الأمبـراطورية الرّومـيـة ماضيـهـا وحـاضـرهـا، حدودها، وتنظيمها الداخلي ومدى قـوّتها. ولا غـرو اذن أن تحتلّ بيزنطة مكانة هامة في كتب الجغرافيا العربية.

ـ المصـــادر :

من مصادر الجغرافيين في حـديثهم عن بيزنطة ولاة الثغور[2] والسفراء[3] والرسل المكلّفون بفـداء الأسرى[4] والجواسيس[5] والأسـرى الذين قضـوا الأشهـر والأعوام بالمدن الرومية ونجد ذكرا لأسـماء كل هؤلاء باستثناء الأسرى والحال أنّ الجغـرافيين مـدينون لهم بكمّية وافـرة من المعلومـات ولئن ذكـر مـسلم الجـرمي وهارون بن يحي فلأنهما وضعا مصنّفين عن بلاد الروم.

1) مسلم الجرمي :

لا نعـرف عن الـرجل سـوى الخبـر المـتعلق باطلاق سـراحـه والذي أورده المسعودي في التنبيه ضمن الحديث عن فداء الأسرى المسلمين.

«والفداء الثـالث فداء خاقـان في خلافة الـواثق في شهر مـحرم سنة 231 / (سبتمبر 845) وفيـه خرج مـسلم بن أبي مـسلم الجرمي وكـان ذا معرفـة بأهل

---

(1) انظر عن علاقة الاسلام ببيزنطة : Vasilier 5 A. A° Byzance et les Arabes, publié par M. Canard et H. Grégoire; Bruxelles; 1935 et 1950.

(2) المسعودي : مروج الذهب ـ طبعة بلاّ 305.

(3) المقدسي : أحسن التقاسيم ص 153 ـ طبعة ليدن.

(4) المسعودي : مروج 739.

(5) ابن حوقل : صورة الأرض ـ طبعة ليدن ص 197 والمسعودي : مروج 495.

الروم وأرضهم وله مصنّفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو اليها والغارات عليها ومن جارهم من الممالك من البرجان[6] والابر (les Avars)[7] والصقالبة[8] والخزر[9] وغيرهم . . .»

وما يلفت الانتباه في هذه الفقرة هو القول بأن للجرمي مصنفات ولو وصلتنا هذه المصنّفات لاستطعنا أن نتبيّن دورها في تطوّر المعلومات الجغرافية عند العرب على أنّ ابن خرداذبه حفظ لنا منها قطعة (المسالك ص 105 - 113) تتعلّق بتنظيم الأمبراطورية الداخلي بين سنة 214 / 829 و231 / 845. وممّا لا شك فيه أنّ مصنّفات الجرمي كانت مصدرا هاما في معرفة المسلمين بالدولة البيزنطية وقد تناقل مادتها (أو بعض مادتها) ابن خرداذبه وابن الفقيه وقدامه ابن جعفر والمسعودي لذلك وجب على المؤرّخ المهتمّ ببيزنطة أن يتفطّن الى أنّ ما يقوله هؤلاء الجغرافيون في بيزنطة يتعلق أغلبه بالفترة المذكورة (أي 214 - 231 هـ) لا بالفترة التي وضعوا فيها كتبهم[10].

أما القطعة ذاتها فهي على قصرها تحتوي على معلومات هامة نقتصر على البعض منها :

أ) **التقسيم الاداري** : عدد الولايات - حدود كلّ ولاية وحصونها.

ب) **الملك** : «الملك فيهم غلبة لا وراثة ولا كتاب يتّبع» أي أن الملك من غلب اذ الملك عندهم لا يورث ولا هو محدد بدستور.

(6) البرجان : هم بلغار الدنوب (les Bulgares du Danube) الذين سبق الحديث عنهم.

(7) سبق التعريف بهم.

(8) يستعمل المسعودي كلمة صقالبة في معنى les Slaves ويقصد بها في هذا النّص الأمّة المجاورة لمنطقة مقدونيا (la Macédoine) التي كانت من ولايات الأمبراطورية البيزنطية).

(9) سبق التعريف بهم.

(10) أطرف المعلومات وأجدّها هي تلك التي يقدّمها المسعودي في كتابي التنبيه ومروج الذهب وابن حوقل في صورة الأرض.

علامات الملك : اللباس. يقول ابن خرداذبه «لباس الملك الفرفير صنف من الحرير فيه لمع الى السواد قليلا، لا يلبس الفرفير والخفّ الأحمر الا الملك ومن تعرض لذلك (خالف ذلك) قتل».

حاشية الملك : اثنا عشر بطريقا (patrices) ستة منهم مقيمون بالقسطنطينية بحضرة الطاغية (يعني الملك) وستة في الأعمال (أي الولايات). وكذلك أربعمائة رجل لباسهم الطيالسة الخضر المزوّرة بالذهب وهم لمشورة الملك (أي هم من يستشيرهم الملك) والقيام بأمره وأمر البطارقة وباعدام أسرى المسلمين.

ت) **الجيش** : المرسمون في الديوان : مائة وعشرون ألفا. «على كل عشرة آلاف رجل بطريق يساعده طرمخان (deux tumarques) كلّ طرماخ على خمسة آلاف رجل ومع كل طرماخ خمسة طرنجارين (drongaires) كلّ طرنجار على ألف رجل ومع كل طرنجار خمسة قمامسة (comtes) كل قومس على مائتين.. .»

أجور الجند : أ) **القوّاد** : من رطل الى أربعين رطلا ذهبا في السنة حسب المراتب.

ب) **الجند** : ما بين ثمانية عشر دينارا الى اثني عشر دينارا ذهبيا في السّنة.

ث) **الخراج والضرائب** : خراج الروم على المحصول الزراعي : على كل مائتي مدي (ما يقارب 900 صاع) ثلاثة دنانير ذهبا.

الضريبة على الرأس : دينار على كل يهودي ومجوسي في السّنة.

الضريبة على كل بيت يوقد فيه نار : ستة دراهم في السنة.

2) هارون بن يحي :

بعد نصف قرن تقريبا من مسلم الجرمي وذلك حوالي عام 288 / 900 وقع هارون بن يحي في الأسر قرب عسقلان وسبق الى القسطنطينية وسلانيك (Salonique) والبندقية ورومة، وفي رومة حصل على معلومات عن برغنديا

(La Burgondie) وفرنجة (La France) وبريطانيا. وقد وصلنا من مؤلّفه جزء فقط حفظه لنا ابن رسته في الأعلاق النفسية[11] وهذا الجزء يتعلّق بوصف القسطنطينية ورومة ولئن كا وصف القسطنطينية طريفا يقوم على العيان[12] فانّ وصف رومة على العكس من ذلك خال من كل طرافة يقتصر على ذكر العجائب.

- إنّ المادة الجغرافية المتعلقة ببيزنطة أوسع من أن تحصر في المصدرين المذكورين (مسلم الجرمي وهارون بن يحي) وان ركّزنا الحديث على هذين الرّجلين فلأنّهما من أقدم المصادر ولأن مادتهما قد تناقلتهما كتب الجغرافيا العربية فكانت بمثابة النواة على أنّ هذا لا يعني أنّ الجغرافيين الذين أتوا بعد مسلم الجرمي وهارون بن يحي لم يضيفوا شيئا فيكفي الاطلاع على دراسة أندري ميكال[13] التي جمع فيها أقوال الجغرافيين العرب عن بيزنطة لنتبيّن فضل ابن الفقيه وابن رسته وقدامة بن جعفر والمقدّسي وخاصة ابن حوقل والمسعودي في التعريف بالأمبراطورية البيزنطية.

لكن يحسن التنبيه الى أن الجغرافيين العرب في حديثهم عن بيزنطة قد صبّوا اهتمامهم على تاريخها وتنظيمها السّياسي والاداري والعسكري وأهملوا الجانب الطبيعي والحياة اليومية ويرجع هذا الى سببين اثنين :

- الأول هو أصناف المخبرين (les informateurs) فقد كانوا كما أشرنا ولاّة وسفراء وجواسيس وأسرى لذلك اتّجهت أنظارهم الى تنظيم بيزنطة أساسا.

- الثاني وهو الأهم هو أن بيزنطة كانت تعتبر العدو الأول لذلك كان الحرص على تقييم قوّتها وقد اشتدّ الشعور بالخطر في القرن الرابع بعد أن سقطت بأيدي البيزنطيين طرسوس وأنطاكية وبعد أن خرّبوا حلب وحمص وذلك في أواخر أيّام سيف الدولة الحمداني (توفّي 356 / 967).

---

(11) طبعة ليدن 1967 ص 119 . . . 132.

(12) أنظر النّص في الصفحات الموالية.

(13) André Miquel. La Géographie humaine, tome II (1975), 381-481.

نص : وصف القسطنطينية (هارون بن يحي)

من كتاب الأعلاق النفسية لابن رسته

وهي مدينة عظيمة اثنا عشر فرسخا في اثني عشر فرسخا وفرسخهم على ما ذكر ميل[14] ونصف ويحيط البحر مما يلي المشرق منها، وغربيّها صحراء يؤخذ منها الى رومية (رومة) وعليها حصن والباب الذي يؤخذ منه الى رومية من ذهب والى جانبه ناس من خدمه ويسمى باب الذهب وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة وتمثال على صورة رجل قائم قد أخذ بزمام تلك الفيلة ولها باب مما يلي الجزيرة يقال له بيعاس وهو باب من حديد وبقرب الكنيسة في وسط المدينة بلاط الملك والى جانبه موضع يقال له البدرون[15] وهو يشبه الميدان (. . .) وعلى غربي الميدان مما يلي باب الذهب بابان، يسوقون الى هذين البابين ثمانية من الخيل وهناك عجلتان من ذهب يشدّ كل عجلة على أربعة من الخيل ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثيابا منسوجة بالذهب ويتركها تجري بمانيط اليها من العجل حتّى تخرج من تلك الأبواب فتدور ثلاث دورات[16] فأيّها سبق صاحبها ألقي اليه من دار الملك طوق من ذهب وكلّ من في القسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون.

وعلى قصر الملك سور واحد يحيط بجميع القصر ودورانه فرسخ، أحد جنباته مما يلي المغرب متصل بالبحر وله ثلاثة أبواب من حديد يقال لأحدهما باب البيدرون والآخر باب المنكنا والثالث باب البحر أمّا باب البيدرون فتدخل في دهليز مقدار مائة خطوة وعلى الجانبين من الدهليز أسرة موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربات ووسائد وعليها قوم من السّودان متَنَصّرة بأيديهم أترسة ملبّسة ذهبا ورماح عليها ذهب وأمّا باب المنكنا فتدخل الى دهليز طوله مقدار مائتي خطوة في عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام وأسرّة

(14) الميل العربي يساوي الفرسخ أي ما يقارب كيلومترين.

(15) البذرون أو البيدرون : Hyppodrome (ميدان سباق الخيل).

(16) كانت العجلات تدور حول دكّة نصبت وسط الميدان.

موضوعة في جانبي الدهليز عليها قوم خزر[17] في أيديهم القسى وفي الدهليز أربعة حبوس حبس منها للمسلمين وحبس لأهل طرسوس وحبس للْعامّة وحبس لصاحب الشرط وباب البحر فإنّك في دهليز طوله ثلاثمائة خطوة في عرض خمسين خطورة وهو مفروش بآجر أحمر وفي الدهليز أسرة يمنة ويسرة وعليها قوم أتراك بأيديهم القسّي والأترسة فتمضي في الدهليز حتى تنتهي الى فضاء مقدار ثلاثمائة خطوة ثم تنتهي الى الستر المعلق على الباب الذي يفضي الى الدار[18].

- الرحلة الى أوروبا : ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي

ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي : يهودي أندلسي مثقف كان يشتغل بالتجارة وقد قام حوالي سنة 354 / 965 برحلة طويلة الى أوروبا زار خلالها ألمانيا وقابل الأمبراطور (Othon) الأول في مدينة مجد برج (Magdebourg) كما زار امارات الصقالبة في أوروبا الوسطى في ذلك العصر : امارة ناقون[19] بشمال ألمانيا وبولونيا وبويمة (La Bohême) (تشيكوسلوفاكيا حاليا) ووضع كتابًا عن هذه الرحلة لم تصلنا منه الا شذرات حفظها لنا البكري في «المسالك والممالك»[20] وهذه الشذرات[21] تدل على دقّة ملاحظات الرجل وتنوّع اهتماماته مما يجعل منها وثيقة هامّة.

---

(17) قوم من الخزر.

(18) دار الملك.

(19) ناقون (Nackon) : أمير قبائل الأبدية (Les Obrodites) التي سكنت شمال ألمانيا في منطقة مكلنبورغ - تفرين(Mecklembourg-Schewin) توفي هذا الأمير حوالي 965 م.

(20) جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب (المسالك والممالك) للبكري - تحقيق عبد الرحمان علي الحجي - بيروت 1387 / 1948.

(21) نفس المصدر من ص 154 . . . 191.

النّص الأول : حصون الصقالبة

تَعْمَدُ (الصقالبة) الى المروج الكثيرة المياه فتخطّ فيها خطا مستديرا أو مربّعا قدر ما تريد من شكل الحصن وسعة ساحته وتحفر حواليه وتردم بالتراب المحقور وقد أوثق بالألواح والخشب على مثال الطوابي[22] حتى يبلغ السور إلى الغاية التي تريد وتذرع له بابا من أيّ شق تشاء ويختلف اليه على جسر من خشب.

النّص الثاني : مدينة فراغة[23] وبلاد بويمة.

مدينة فراغة مبنية بالحجر والجير وهي أكثر البلاد متاجر تأتيها من مدينة كركوا[24] الرّوس والصقالبة بالمتاجر ويأتيهم من بلاد الأتراك الاسلام (أي أهل الاسلام) واليهود والترك بالمتاجر أيضا والمثاقيل المرقطية[25] فيحملون من عندهم الدقيق والقزدير وضروب الأوبار وبلادهم أطيب بلاد أهل الجوف[26] وأزكاها معيشة يباع القمح عندهم بقيشار[27] وما يكفي به المرء شهرا ويباع الشعير بقنشار علف أربعين ليلة لدابّة ويباع عندهم عشر دجاجات بقنشار وبمدينة فراغة تصنع السروج واللّجم والدّروق[28] المستعملة والمتخذة في بلادهم.

ويصنع في بلاد بويمة منديلات خفاف مهلّلة النسج على هيئة الشبكة وثمنها في كل زمان عشرة مناديل بقنشار بها يتبايعون ويتعاملون يملكون

---

(22) الطابية هي الحصن.

(23) فراغة : براغ (Prague)عاصمة تشيكوسلوفاكيا.

(24) كركوا : كراكوفيا (Cracovie) في جنوب بولونيا وكانت بيد الملك توفي 967 م) ملك كركوا وفراغة وبويمة (La Bohême) ـ في نصوص أخرى نجد : كيكوا.

(25) يبدو أنها عملة بيزنطية.

(26) بلاد الجوف (أي الشمال).

(27) الفلس.

(28) المفرد : درقة وهي الترس (le bouclier) المصنوع من جلد.

منها الأوعية وهي عندهم مال وأثمان الأشياء يبتاع بها، الحنطة والدقيق والخيل والذهب والفضة وجميع الأشياء ومن العجيب أن أهل بويمة سمر سود الشعور والشقرة فيهم قليلة.

ملاحظة : لا نستغرب من ابراهيم بن يعقوب وهو تاجر أن يهتمّ بالمبادلات التجارية والأسعار والعملة.

النّص الثالث : الفلاحـة

سكنوا (الصقالبة) من البلدان أجزلها ريعا وأكثرها أقواتا وهم مجتهدون في الفلاحة وطلب الرزاق ويفوقون في ذلك جميع أمم الجوف (أي الشمال) ... وليس يكون الجوع في بلدان الجوف كلّها من القحط وتوالي الجدب انما يكون من كثرة الغيث وتوالي الجمّة. . . وهم يزرعون في فصلين من العام في القيظ والربيع ويرفعون رفعين[29] وأكثرهم زرعهم الدّخن[30] ... وأكثر أشجار شعابهم التفاح والأجاص والفرسك[31].

النّص الرابع : ليس للصقالبة حمّامات

وليس لهم حمّامات وانّما يتخذون بيوتا من خشب ويسد خصاصه[32] بشيء يتكون على أشجارهم يشبه الطّحلب ويسمونه مح وهو مقام الزّفت لسفنهم ويبنون كانونا من حجارة في احدى زواياه ويفتحون في أعلاه روزنة[33] تلقاءه لخروج دخانه فاذا سخن سدوا تلك الروزنة وأغلقوا باب البيت وفيه مناصب الماء وصبوا من ذلك الماء على الكانون المحتمي وترتفع أبخرته ويكون بيد كل واحد منهم ضغث من حشيش يحرك به الهواء ويجذبه الى نفسه فتنفتح مسامّهم ويخرج فضول أجسامهم فتجري منهم السيول ولا يكون على أحدهم أثر جرب ولا قرح وهم يسمون هذا البيت الأطيا.

---

(29) يحصدون مرّتين.

(30) نوع من الذرة : le millet.

(31) الخوخ.

(32) خصاصه : فراغه أي الفراغ بين الأخشاب.

(33) كلمة فارسية تعني الكوة.

النّص الخامس : البــرد

وبلاد الصقالبة أشد البلاد بردا وأقوى ما يكون ذلك عندهم اذا أقمرت الليالي وأصحت الأيام فحينئذ يشتد البرد ويقوي الجمد فتتحجّر الأرض وتجمد الأتربة كلّها وتتقرمد[34] البئر والحياض حتّى تأتي كالحجارة واذا استنثر الناس على لحامهم صفائح الجمد[35] يكون الزجاج فيعسر تكسره حتى يصطلي أو يدخل كنا واذا كان الليل مظلما والنهار مغيّما فحينئذ ينجلي الضريب[36] ويفتر البرد وفي هذا الوقت تنكسر السّفن ويهلك من فيها لأنه يواجهها من جليد أنهار هذه البلاد قطع كالجبال الرّواسي.

النّص السادس : الأديان والعادات

الصقالبة أجناس (. . .) منها ما هو ينقاد الى دين النصرانية (. . .) ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد الى شريعة وهم جاهلية. . .

والجنس الذي ذكرنا أنه يدعى سونين (الضرب : (les serbes) يحرقون أنفسهم بالنار اذا مات رئيسهم ويحرقون دوابّهم ولهم أفعال مثل أفعال الهند (. . .) وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميّت ويزعمون أنّ سرورهم وأطرابهم لرحمة ربه ايّاه ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوهن بالسكاكين واذا زعمت واحدة منهن أنها محبّة له علّقت حبلا وارتقت اليه على كرسي فتشدّ به في عنقها ثم يجذب الكرسي من تحتها فتبقى معلّقة تضطرب حتى تموت ثم تحرق وتلحق بزوجها.

---

(34) تجمد.

(35) المعنى : يجمد النفس على اللحي فيكون كالزجاج.

(36) الثلــج.

ـ الرحلة الى بلاد النوبة (La Nubie) : رحلة الأسواني

بعث القائد الفاطمي جوهر الصقلي ابن سليم الأسواني الى بلاد النوبة في مهمه سياسية حوالي سنة 360 / 970 وضع الأسواني كتابا بعنوان «كتاب أخبار النوبة ومقرة وعلوة والبجة والنيل»[37] وفيه وصف دقيق لكلّ النواحي التي زارها ولسكانها لكن يد الضياع امتدت الى هذا الكتاب فلم يبق منه الا شذرات لدى المقريزي في كتابه «الموعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار وهذه الشدرات دليل على أن الأسواني لم يضع تقريرا رسميا وانما كتابا جمع فيه مادّة ثرية مستمدة في أغلب الأحيان من الملاحظة المباشرة.

تحليل ما تبقى من كتاب النوبة :

1) المعطيات الطبيعية

أ) النيل : يمتاز وصف الأسواني للنيل بالكثير من الدقّة على الرغم من أنه يخضع أحيانا لتأثير الرواية السائرة في عصره التي تقول بأن أحد روافد النيل آتية من بلاد الزنج أي افريقيا الشرقية وبأن مجرى كل من النيل الأبيض والنيل الأخضر (نقول اليوم النيل الأزرق) قبل التقاء النهرين يبلغ وسعه مسافة شهر. لكن رغم هذا ورغم بعض الأخطاء الأخرى[38] فانّ وصفه الذي يمثل مدى ما وصلت اليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل يقترب من الواقع الذي لم يضبط الا في أواخر القرن الثامن عشر.

ب) الحيوانات والنبات : يذكر الأسواني الحيوانات التي رآها ولا يتخذ من هذا الميدان (حيوانات افريقيا السوداء) فرصة للأخبار العجيبة.

ـ الحيوانات الوحشية : الدرق (l'oryx) الذي يصنع من جلده الترس للمسمى باسم الحيوان، وحيوان شبيه بالغزال (le digdig) وفرس النهر (l'hyppopotame) والتمساح.

(37) سنفسر هذه الأسماء في الصفحات الموالية.

(38) من الأخطاء الأخرى الخلط بين حوض أتبرا وحوض النيل الأزرق.

- الحيوانات الأهلية : دجاج الحبشة (la pintade) وأنواع من الحمام مثل القمري.

- الأشجار الغابية : السّاج (le teck) والسدر الذي تصنع منه القسي لليونة عوده.

ت) ومن جهة أخرى فان الوصف يشمل المناظر الطبيعية الموزعة بين الحقول على ضفاف النيل وبين الجبال من صخر ورمال الصحراء.

2) المعطيات السياسية

يقسّم الأسواني النوبة الى أربع مناطق :

- النوبة : يعني بها بلاد مريس[39] الواقعة بين الشلال الأول جنوب أسوان والشلال الثالث للنيل.

- مقره : البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الخامس.

- علوة : من الشلال الخامس الى مدينة سوبا الواقعة بحوض النيل الأزرق.

- بلاد البجة : المفازة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والتي تمتد من الصعيد شمالا الى الصومال حاليا.

وهذا التقسيم هو تقسيم جغرافي - سياسي فبلاد مريس التي يطلق عليها الاسواني اسم النوبة كانت وحدة سياسية قبل أن تصبح خاضعة لملك مقرّه الذي يمثله في بلاد مريس نائبه. أمّا مقرّه فهي مملكة كبيرة وعاصمتها دنقالة[40] مشهورة وعلوه مملكة كبيرة أيضا وعاصمتها سوبا[41]. وعن هذه البلاد يقول الأسواني «هي أغنى من مقرّه والنوبة». والبجاة (سكّان بجة) بطون على رأس كل بطن رئيس ونظامهم نظام قبلي شبيه بنظام العرب في الجاهلية.

---

(39) مريس : كلمة قبطية تعني الجنوب ومنها المريسي أي الريح الجنوبية التي تهبّ على مصر.

(40) تقع هذه المدينة على النيل الأبيض بين الشلاّل الثالث والشلال الرابع.

(41) تقع بمصبّ النيل الأزرق في النيل الأبيض.

3) النشاط الاقتصادي

الزّراعة : بأودية النيل وأرفاده ـ الحبوب : الذرة (le millet) والدخن (le sorgho). الأشجار : الزيتون[42] والدّوم هو نخل قصير يسمّى ثمره المقل. النباتات الصناعية : القطن.

وانّ الحقول مؤشّر من مؤشّرات حياة الاستقرار التي يتوجها بناء القرى والمدن وهذا النوع من الحياة كما يتجلّى من أقوال الأسواني مرتبط بوجود الماء ولذلك لا يظهر نمط العيش هذا الا على ضفاف النيل وأرفاده (ses affluents) فالبجاة الدين يعيشون في المفازات هم قوم رحّل يستمدّون رزقهم من تربية الابل والغنم ومن حماية القوافل.

التجارة : يهتم الأسواني شأنه شأن بقية الجغرافيين العرب بالمواد المصدرة من النوبة الى بلاد الاسلام وخاصة منها الذهب الذي كان يزخر به وادي علاقي[43] في الجنوب الشرقي من أسوان والذي كان ينقل من وادي علاقي الى أسوان ومنها الى الشمال نحو بقية المدن المصرية أو من وادي علاّقي الى عيذاب (ميناء على البحر الأحمر) ومنها يصدّر الى جهات مختلفة من العالم الاسلامي وغير العالم الاسلامي.

4) الأديان والعادات

ـ النوبة معقل من معاقل المسيحية (La Chrétienté) فبلاد مريس (باستثناء الحزام المتاخم لمصر) ومقرة وعلوة تدين بالدين المسيحي على أن الأسواني لاحظ بعض العادات التي ترجع الى الأديان الافريقية القديمة وخاصة منها تقديم القرابين إلى الجبال والمياه والكواكب والحيوان والنبات.

---

(42) الزيتون خاص بمناطق البحر الأبيض المتوسّط ولعل المقصود في نص الأسواني زيتون الحبشة الذي ينبت بدون غراسة.

(43) هذا الوادي جزء من بلاد باجة. وليس فيه ماء وانما سمي كذلك لأنّ الأرض منخفضة (une dépression).

- أمّا الاسلام فقد دخل الى جهة بلاق[44] والى بلاد البجة ولكنه لم ينتشر في كل هذه البلاد ومن جهة أخرى فحتّى الذين أسلموا من البجاة كان اسلامهم سطحيا لأنّ العوائد الجاهلية (Les Coutumes païennes) بقيت حية بينهم. فالبجاة يشبهون عرب الجاهلية في نظامهم القبلي وكرمهم واعتمادهم في الكسب على الغزو وهم كذلك يعتقدون في الكهّان وأقوالهم.

لكن لهم عادات خاصة بهم :

النظام الأمومي (le matriarcat) الذي بمقتضاه ينتسب الفرد الى أمه وفيه الارث تكون الأولوية الى ابن الأخت أو ابن البنت.

وهم «يختنون» البنات ويقطعون رؤوس ثدي (جمع ثدي) الأطفال الذكور حتى لا يشبهوا النساء.

وأخيرا هم يقلعون أسنانهم الأماميّة (Les Incisives) ويشقون آذانهم.

- رحلتا أبي دلف مسعر

هو أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي، تقرب من سنة 330 / 941 و 380 / 990 الى نصر الثاني ابن أحمد الساماني[45] (توفي سنة 331 / 942) ببخاري ثم الى بني صفّار نوّاب السامانيين بسجستان ثم الى الصاحب بن عباد وزير البويهيين[46] بمدينة الري وخالط المكدين والشطار فانتمى الى فئة الساسانيين وألف في لغة المكدين قصيدته المشهورة «القصيدة الساسانية» التي عرض فيها حيل هذه الفئة وفلسفتهم في الحياة[47] وله كذلك رسالتان الأولى

---

(44) بلاق : مدينة على النيل بين أسوان والشلال الأول.

(45) قامت الدولة الساسانية في خراسان وبلاد ما وراء النهر سنة 261 / 874 وقضى عليها البويهيون سنة 390 / 999.

(46) قامت الدولة البويهية في منطقة فارس (عاصمتها شيراز) ومنطقة الجبل (عاصمتها الري) وجهة كرمان سنة 321 / 934 ودخل معز الدولة البويهي مدينة بغداد سنة 334 / 945 وانقرضت هذه الدولة سنة 447 / 1055.

(47) أنظر يتيمة الدهر للثعالبي - القاهرة 1956 - ج 3 ص 358 - ومما لا شك فيه أن الهمذاني في مقاماته تأثر بهذه القصيدة.

موضوعها رحلة الى آسيا الوسطى (بلاد الترك) والهند حفظ لنا منها ابن النديم شذرات في الفهرست[48] والثانية تتعلق برحلة داخل ايران وأرمينيا وقد حقّقها المستشرق مينورسكي (Minorsky) (القاهرة 1955) ثم أعاد تحقيقها المستشرقان السوفياتيان بولغاكوف وخالدوف (Bulgakov et Khalidov) (موسكو 1960)[49].

والرسالة الأولى لا تستجيب لمقومات الرحلة الأساسية فالحديث فيها عن المسالك مضطرب خيالي أحيانا الى درجة أن بعض الباحثين شكّوا في واقعية هذه الرحلة والحقيقة أن أبادلف قام فعلا برحلة الى هذه الجهات لكن رسالته مزيج من الذكريات والانتحال يغلب عليها عنصر العجيب وهذا العجيب قلما يكون من باب الخرافة والخيال المحض.

أمّا الرسالة الثانية فهي أثر شخصي يقوم أساسا على الملاحظة المباشرة ويتجلى فيه الاهتمام بالهواء (المناخ) والمناظر الطبيعية والمسالك والمدن والمباني ومنتجات الأرض والصناعات والأثمان والعادات وفيها يتضح كذلك شغف أبي دلف مسعر بالمعادن والنباتات الطبية. فالرجل لم يكن سفيرا ولا أسيرا ولا تاجرا فينصب اهتمامه على ميدان معين بل كان جوالة يجد متعة في الأسفار لذلك جاءت مادة الرسالة الثانية متنوعة وكان أسلوبها عفويا.

وبين هذه الرسالة ونمط «المسالك والممالك» (الاصطخري وابن حوقل والمقدسي) وجها شبه فبالاضافة الى الاعتماد على الملاحظة المباشرة أساسا كما هو الشأن في جلّ الرحلات نلاحظ قاسما مشتركا آخر هو التنقل داخل حدود الاسلام لا خارجها على أنه يوجد اختلاف في عرض المادة فأبو دلف

---

(48) تحقيق فلوقل (Flügel) ليبزق (Leipzig) 1 / 1872 ج 1 ص 346 وما بعدها. توجد هذه الشذرات كذلك في عجائب المخلوقات للقزويني ومعجم البلدان لياقوت ج 3. ص 440 وما بعدها.

(49) اعتمدنا هذه الطبعة.

ساق مادّته حسب مراحل السفر في حين أن الاصطخري وابن حوقل والمقدّمي قد جمعوا مادتهم حول محاور جغرافية (الأقاليم).

النّص الأول : من الرسالة الأولى

فلمّا وصلت الى كله[50] رأيتها عظيمة عالية السور كثيرة البساتين غزيرة المياه ووجدت بها معدنا للرصاص (. . . .) وخرجت منها الى بلد الفلفل فشاهدت نباته وهو شجر عادي لا يزول الماء من تحته فاذا هبّت الريح تساقط حمله (. . .) وعليه ضريبة وهو حرّ لا مالك وحمله لا يزول شتاء ولا صيفا وهو عناقيد فاذا حميت الشمس انطبق على العنقود عدّة من ورقه لئلاّ يحترق بالشمس فاذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق.

النّص الثاني : من الرسالة الثانية

وفي بلاد الهند بيت من ذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة لا يصل اليه الا العبّاد والمطر لا يسقط عليه واذا لَثَمَه مريض أو معتل فانه يشفى من مرضه لساعته وهو معلّق بين الأرض والسماء دون أن يرتكز على عمد.

ملاحظة : هذا مثال من الأمثلة القليلة التي تبلغ فيها الرواية حد الخرافة.

النّص الأول : من الرسالة الثانية

. . . وبأرمينة معدن الملح الأندراني وبها معدن مغنيسيا ومعدن نحاس (...) وبها نبات الخزامى والشيح الذي يخرج الحيّات[51] من الجوف الا أن التركي خير منه وأقوى (. . .) وبها عيون يخرج منها ماء حامض مفتح وبها زرنيخ أصفر وبها زاجات وكباريت قليلة ولا معدن ولا فضة ولا ذهب بها.

---

(50) سبق التعريف بكله (أو كلاه).

(51) يقصد بالحيات : الدود الطويلة le ténia ou le ver solitaire.

وأرمينية رخيصة الأسعار وربّما كان القحط بها عظيما جدا وهي كثيرة الآفات (. . .) وتقوم بها عدّة أسواق في السنة تباع فيها كثير من الفرش والديباج والبغال وغير ذلك وأرمينية قليلة الآثار.

ملاحظة : هذا نصّ مستمد من الملاحظة المباشرة وان كان لا يخلو من عنصر العجيب المتمثل في انطباق الأوراق عندما تحمي الشمس وانفتاحها عندما تزول الشمس.

النّص الثاني : من الرسالة الثانية

بطبرستان مدن كثيرة وأعمال واسعة بها عياض لا تحصى وأنهار ومياه واسعة وبها عدة معادن للذهب أجلها وأجودها ما يوجد بخشم وهو شعب في جبل بها وطبرستان اليوم في يد العلويه[52] وهم ملوكها وعدلهم ظاهر وسياستهم منتظمة وأمر الرعية معهم مستقيم (. . .) وبطبرستان أترج[53] ليس في سائر البلدان مثله حسنا وكبرا ويعمل بها ماء الزعفران ولا يتمّ عمله في غيرها والمطر فيها دائم مدة الشتاء وأكثر أشهر الصيف وبها حمامات كثيرة ولها قصب سكر وَوَرْدُها غير ذكي وبها جماعة يتعاطون الحذق بعلم النجوم وبها معادن زاجات وشبوب ومنها الشبّ الأبيض الذي يصلح لتبييض الفضة السوداء وليس يكون الا بها (. . .) وتعمل بها أكسية عجيبة يبلغ الكساء منها جملة دنانير وكذا مناديلها موصوفة في جميع البلدان.

---

(52) الشيعه.

(53) ما نسميه اليوم الحوامض (البرتقال والليمون).

النّص الثالث : من الرسالة الثانية

مدينة رام هرمز[54] مدينة جليلة وفيها أبنية عجيبة والمعادن في أعماقها كثيرة وقلما رأيت ملحا أحكم في الصنعة من ملحها[55] وبها هوآم قتالة وبها عيون الكبريت الأصفر البحري ولا يوجد هذا الكبريت في غيرها وفي أهلها سماحة ليست لغيرهم من أهل الأهواز وأكثر نساءها لا يرددن يدا وأهلها قليلو العيرة[56].

(54) مدينة على نهر سُمّيَ هو أيضا هرمز وهي تقع بخُوزستَان.
(55) مدينة على نهر هو أيضا هرمز وهي تقع بخوزستان.
(56) هو نوع من الجص المالح (du gypse salpêtre).

المدرسة الكلاسيكية : الاصطخري وابن حوقل والمقدسي

I - الرؤيـة

نشأت المدرسة الكلاسيكية بالمشرق في القرن الرّابع هـ / العاشر م. وهو عَصْر انقسم فيه العالم الاسلامي الى عدّة دول أهمها الدولة البويهية بالعراق وغربي ايران والدولة السمانية بخراسان وبلاد ما وراء النهر والفاطمية بمصر وجزء من الشام والأموية بالأندلس وأضحت مؤسسة الخلافة مجرد رمز. لكنّ ممثلي المدرسة الكلاسيكية يقدمون «المملكة الاسلامية» وكأنها سياسيا بناء متماسك محوره عاصمة الخلافة العبّاسية وهذا الموقف ينم عن نظرة ماضوية (Passéiste) وعن تعلّق بتصور (Un concept) كان متجذرا في الضمير الجماعي بالمشرق[1].

هذا لا يعني أنهم كانوا يجهلون الواقع ففي كتبهم ملاحظات عديدة تثبت معرفتهم بما كان عليه العالم الاسلامي، نذكر على سبيل المثال وضع المدن

(1) لم يكن هذا التصوّر متجذرا في الضمير الجماعي في المغرب فلا نجد عبارة «مملكة الاسلام» في كتب الجغرافيين المغاربة.

العراقية السيء[2] والأزمات الاقتصادية والاجتماعية[3] وهجمات البيزنطيين[4] والصراع بين أموي الأندلس والفاطميين[5] الا أنهم لا يرون في هذه الأحداث سوى نقاط سوداء في حين أننا نعلم اليوم أنها كانت مؤشرات على تفكك «مملكة الاسلام» سياسيا وعلامات تنبئ بزوال مؤسسة الخلافة. ومما يدل كذلك على معرفتهم بالواقع هو أنه عندما نقارن ما يقولونه عن العراق بما يقولونه عن مصر وخراسان نلاحظ أن نصيب العراق قليل وأن الاهتمام قد انصب على مصر وخراسان المزدهرين ولكنهم مع ذلك يمدحون اقليم العراق جريا على العادة. يقول المقدسي : «هذا اقليم الظرفاء ومنبع العلماء، لطيف الماء، عجيب الهواء، ومختار الخلفاء، أخرج أبا حنيفة فقير الفقراء وسفيان سيد القراء ومنه كان أبو عبيدة والفراء . . . كل فقيه ومقرئ وأديب وسري وحكيم وداه وزاهد ونجيب وظريف ولبيب . . . . أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا وبغداد الممدوحة في الورى والكوفة الجليلة وسمرا ونهره من الجنة بلا مرا ...»[6].

II ـ الموضوع والمنهج

ـ تتميز هذه المدرسة من حيث الموضوع بقصر البحث على بلاد الاسلام فلا تذكر من البلاد الأجنبية الا البلاد المتاخمة للعالم الاسلامي ويكون الكلام عنها امتدادا لوصف هذا الاقليم الاسلامي أو ذاك.

---

(2) المقدسي : ص 118 (البصزرة) ـ 120 (بغداد).

(3) ابن حوقل : ص 241 ـ 242.

(4) ابن حوقل : ص 203 ـ 205.

(5) كان الصراع شديدا بين العبيديين وأمويّ الأندلس من أجل السيطرة على سجلماسة الواقعة بالجنوب الغربي من المغرب الأقصى والمحطة الهامة على طريق الذهب المستودرد من بلاد السودان (أي النيجر وغانا) وهذا الصراع على المستوى الاقتصادي وجه من وجوه الصراع بين دولة سنية ودولة شيعية.

(6) أحسن التقاسيم ـ طبعة ليدن 1906 ـ ص 113 ـ على أنه يجب أن نضيف أن هذا المدح قد شفع بأسطر يظهر منها جليا الجانب السلبي أي الحال الذي آل اليه العراق في القرن الرابع هـ.

- أمّا المادة فهي مستمدّة أساسا من التجربة الشخصية والمعاينة وهذه الطريقة في البحث ليست جديدة[7] و لكن الحديث هو أنها استغلت في اطار محدّد : الاقليم في مفهومه الترابي السياسي[8] فقيد كل ما يتعلّق بكل وحدة جغرافية سياسية.

على أنّ العيان لم يكن المصدر الوحيد فقد اعتمد في درجة ثانية على الثقات من المخبرين وأحيانا على كتب السابقين خاصة في المقدّمات الكوسموغرافية وفي الحديث عن البلدان الأجنبية.

- وقد أفضت طريقة البحث المتوخاة الى دراسة دقيقة وشاملة فتنوعت المعلومات المقدمة الى القارئ ويمكن أن نبوّبها على النحو التالي :

دراسة المحيط الطبيعي : التضاريس والمناخ والمياه والبحار على أنه يَجِبُ التنبيه الى أن المحيط لم يدرس لحدّ ذاته بل ان الدراسة ترمي أساسا الى ضبط علاقة الانسان بهذا المحيط أي بعبارة أخرى الى ابراز أثر المحيط الطبيعي في خِلقة الانسان وصحته وخلقه ونمط عيشه وعقليته[9].

دراسة المحيط الزّمني : يتجلى هذا المحور في الفقرات والملاحظات المتعلقة بأهمّ الأحداث التي عرفتها المنطقة أو المدينة وفي الكلام عن ماضي المدن (تاريخ مبانيها، مشاهير رجالها، ماضي الفرق والمذاهب وحاضرها ...) والغرض من هذا التذكير بالماضي تفسير الحاضر.

التقسيم الاداري والطرق : وهذان الغرضان يذكراننا بمحاور الجغرافيا الادارية أمّا المحور الأخير وهو أهمّ المحاور في نمط المسالك فانه يخص دراسة البشر.

---

(7) راجع ما قلناه عن الرحّالين.

(8) راجع ما قلناه عن تقسيم البلخي.

(9) أول من سن هذا النوع من الدراسة فربط علاقة الانسان بمحيطه الطبيعي هو الجاحظ في كتاب الحيوان (أنظر مثلا كلامه عن مدينة الأهوازج 4 ص 140 ـ 143) وفي كتاب الأمصار وعجائب البلدان حقّقه شارل بلاّ (Pellat) ونشره بمجلة المشرق، مارس ـ أفريل 1966 ـ ص 169 ـ 205.

أ) الأجناس (Les ethnies) في الاقليم أو حتى في المدينة الواحدة.

ب) الحياة الدينية : الفرق والمذاهب والقراءات

ج) الطباع والسلوك

هـ) الأنشطة الاقتصادية : المنتجات والتبادل التجاري والمكابيل والموازين والعملة والأسعار والضرائب.

و) الحياة اليومية : المأكل والمشرب والمسكن والملبس.

ز) العادات والتقاليد

ملاحظـــات

1) - ان نمط المسالك قد استفاد من الاتجاهات التي سبقته ولكنه يتميز عليها بعدة ميزات أهمّها :

- إنّ ممثّلي المدرسة الكلاسيكية قد جعلوا من التجربة الشخصية طرية البحث في دراسة العالم الاسلامي في حين أن الذين توخوا هذا المنهج قبلهم قد استعملوه خاصة في وصف البلاد الأجنبية.

- أن الدراسة في نمط المسالك دراسة مركزة وشاملة محورها البشر.

2) - أن ممثلي نمط المالك لم يضعوا مؤلفاتهم لافادة فئة معينة من المجتمع بل حرصوا على أن تشمل الفائدة كل القراء. يقول المقدسي في مقدمة أحسن التقاسيم : . . . وعلمت أنه (يعني العلم الذي كتب فيه) باب لا بد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والأخيار اذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء» من هذا القول يتضح أن ممثلي نمط المسالك وخاصة منهم المقدسي وإن كانوا واعين بميزة كتبهم العلمية وبما يتطلبه علم الجغرافيا من شروط منهجية سعوا الى أن يضمنوا لمؤلفاهم الرواج لذلك أكّد المقدسي أن علم الجغرافيا يفيد كل القراء ولذلك أيضا أخذ بعين الاعتبار - شأنه في هذا شأن ابن حوقل وفي درجة أقل شأن الصطخري - ذوق المثقفين في عصره فمزج الجد بالهزل[10] واستعمل في

(10) يظهر الحرص على الترويج عن نفس القارئ في الأخبار والنكت على أنه يجب أن نضيف أن العجيب بمعنى الخرافة لا حظّ له في نمط المسالك والممالك.

العرض المناظرة والمقابلة كما ضمن هنا وهناك أبياتا من الشّعر وعمد الى السّجع في تقديم الأقاليم ووصف المدن وكل هذه أساليب متداولة في كتب الأدب.

III - ممثلو المدرسة الكلاسيكية

اليعقوبي : ان اليعقوبي رغم أوجه الاختلاف التي تفصل كتابه «تقويم البلدان» عن كتب الاصطخري وابن حوقل والمقدّسي[11] كان له فضل كبير في ظهور هذه المدرسة وذلك لسببين اثنين :

الأول : هو أن الرجل اعتمد أساسا في دراسته للعالم الاسلامي على التجربة الشخصية والمعاينة ونبذ العجيب.

الثاني : هو أن الأغراض (Les thèmes) التي طرقها - السياسيّة منها والادارية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية والدينية - هي بالذات برنامج «المسالك والممالك».

ولكن تمسّكه بالتقاليد العراقية التي تقسّم العالم الى أربعة أجزاء (الشمال والجنوب والشرق والغرب) انطلاقا من بغداد محور الدنيا وتأثّره بمحيطه العائلي والاجتماعي (الكتاب) الذي جعله ينظر الى الولايات نظرة الكاتب فيهتمّ قبل كل شيء بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي من شأنها أن تفسر حالة الأمن أو بالعكس حالة الاضطراب واسهامه أحيانا في عرض الماضي كل هذا يحول دون اعتباره ممثلا حقيقيا من ممثلي المدرسة الكلاسيكية وان كان فضله كبيرا في ظهورها كما قلنا.

1) - الاصطخري : كتاب المسالك والممالك

هو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (نسبة الى مدينة اصطخر) - أغفلت ذكره كتب التراجم فلا نعرف عن حياته سوى أنه توفّي بعد 340 هـ. وأنه كان رحالة زار مصر والشام والجزيرة العربية والعراق وايران وبلاد ما وراء النهر وأنه أخيرا صاحب «كتاب المسالك والممالك» الذي أنفق

---

(11) راجع ما قلناه عن اليعقوبي في الصفحات المخصصة للجغرافيا الادارية.

السّنين الطويلة في تأليفه والذي أصبح مرجعا من مراجع الجغرافيين المعاصرين له مثل ابن حوقل[12] والذين أتوا بعده مثل ياقوت الحموي[13].

- منهج الاصطخري

يقول في المقدمة : «. . . . أما بعد فاني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة اليها[14] ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض[15] بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة[16] تحكي موضع ذلك الاقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار وما يحتاج الى معرفته في جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم». ثم يضيف : «ففضّلت بلاد الاسلام عشرين اقليما وابتدأت بديار العرب فجعلتها اقليما لأن فيه الكعبة ومكّة وأم القرى وهي واسطة هذه الأقاليم ثم اتبعت ديار العرب ببحر فارس[17] لأنه يكتنف أكثر ديار العرب ثم ذكرت المغرب حتى انتهيت الى مصر فذكرتها[18] ثم ذكرت الشام ثم بحر الروم[19] ثم

(12) التقى الاصطخري وابن حوقل ولكننا لا نعرف أين ومتى كل ما نعرف أن هذا اللقاء حدث فعلا وأن الاصطخري طلب من ابن حوقل أن يصلح لَهُ كتابه حيث ظلّ (أنظر مقدمة صورة الأرض لابن حوقل) - أما تاريخ اللقاء الذي يذكره كراتسكوفسكي (340 هـ / 951 - 952) فلا وجود لأي دليل يثبته.

(13) معجم الأدباء - طبعة الرفاعي، القاهرة 1355 - 1357 / 1936 - 1938، ج 1 ص 11.

(14) الكور التي تتبع جبانيا كل مدينة من هذه المدن.

(15) يقصد تقسيم بطمليوس.

(16) لقد وضع الاصطخري لكل اقليم صورة أي خارطة.

(17) في الحقيقة تجاوز كلامه عن الخليج العربي الفارسي الى المحيط الهندي.

(18) ذكر في اقليم المغرب : الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط (الجزائر) وافريقية ثم انتقل الى اقليم مصر.

(19) البحر الأبيض المتوسط : تضمن حديثه عن هذا الاقليم فيما تضمن الاخبار عن صقلية واقريطش (La Crête).

الجزيرة[20] ثم العراق ثم خوزستان[21] ثم فارس[22]. ثم كرمان[23] ثم المنصورة[24] وما يتصل بها من بلاد السند والهند ثم أذربيجان[25] وما يتصل بها ثم كور الجبال[26] ثم الديلم[27] ثم بحر الخزر[28] ثم المغازة التي بين فارس وخراسان وما يتصل بها ثم خراسان ثم ما وراء النهر. من هذه الفقرة نستنتج :

أ) أن الاصطخري قصر دراسته على العالم الاسلامي فقسمه الى عشرين اقليما كما فعل البلخي ثم وصف هذه الأقاليم واحدا بعد الآخر طبقا للترتيب الذي ذكره.

ب) أنه وضع لكل اقليم خارطة وجعل الخرائط عمادا للحديث وهو في هذا أيضا يقفو أثر البلخي الا أنه في كلامه عن كل اقليم يتجاوز مرحلة التعليق الجاف الى الوصف وجمع ما يحتاج اليه لمعرفة كل اقليم.

ج) ان الاصطخري وان تأثر بمنهج البلخي في هذا الباب قد تنبّه الى الفارق بين الحدود السياسية والحدود الجغرافية فجمع المنطقة الجغرافية وان كانت مجزأة سياسيا. يقول : «فأما الريّ فاننا ضممناها الى الديلم وان كانت قائمة

---

(20) الجزء الشمالي من العراق : La haute Mésopotamie.

(21) يحدّ هذا الاقليم غربا مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) وشرقا مدينة اصفهان وشمالا همذان وجنوبا عبدان. ومن مدنه الكبيرة الأهواز وجنديسابور والسوس وتستر وأكبر أنهاره نهر تستر.

(22) يقع هذا الاقليم جنوب اقليم خوزستان ويحدّه غربا الخليج العربي الفارسي وشرقا اقليم مكران ومن مدنه شيراز وفيزوزبادوسيراف واصطخر.

(23) يقع هذا الاقليم في جنوب ايران. ويحدّه شرقا أرض مكران وغربا اقليم فارس وشمالا مغازة فارس وسجستان وجنوبا الخليج. أهمّ منه هرمز.

(24) مدينة يحيط بها خليج من نهر مهران (L'Indus) بالسند (الباكستان حاليا).

(25) اقليم بالجنوب الغربي من بحر الخزر. وأكبر مدنه أردبيل وتبريز.

(26) اقليم يقع جنوب أذربيجان واقليم الديلم وأهم مدنه همذان واصبهان.

(27) يقع هذا الاقليم على سواحل بحر الخزر الجنوبية، شرقيّ أذربيجان.

(28) بحر الخزر : بحر الكاسبيان La Mer Caspienne.

بنفسها[29] لأن اتصالها بها اتصال واحد وليس بينهما حاجز يستحق به الانفراد عنها» ويقول كذلك عن بلاد ما وراء النهر : «وقد كان في التقدير أن نصور نصف خوارزم في صورة خراسان ونصفها في صورة ما وراء النهر[30] فاخترت أن تكون خوارزم مجموعة في الصورة وجعلتها في صورة ما وراء النهر فأبلغ بذلك غرضي من غير تكرار في الصورتين».

- مصادر الاصطخري

أ) المعاينة : وهذا المصدر قد مكنه من جمع معلومات ثابتة وطريفة من ذلك أنه فيما نعلم أول من ذكر قصب السكر والأرز ضمن الانتاج الزراعي بخوزستان وكذلك أول من أمدنا بمعلومات دقيقة عن المنسوجات بهذا الاقليم فقال : «وبقرقوب[31] السوسنجرد وماش مطرز) الذي يحمل الى الآفاق وبها وبالسوس[32] طراز للسلطان[33] وببصنّى تعمل الستور التي تحمل الى الآفاق (أي الى كل الجهات) المكتوب عليها «عمل بصنيّ»[34] وقد تعمل ببرذون وكليوان وغيرها من المدن ستور يكتب عليها بصنى وتدلس في ستور بصنّى الا أن المعدن (أي لمركز الحقيقي لصناعة هذه الستور) بصنى.

---

(29) الريّ : مدينة كبير مرتبطة جغرافيا باقليم الدّيلم ولكنها سياسيا كانت بيد البويهيين الذين استولوا على منطقة الجبال منذ العقد الثالث من القرن الرابع.

(30) تقع منطقة خوارزم على ضفهتي نهر جيحون الفاصل بين اقليم خراسان واقليم ما وراء النهر وفضّل الاصطخري أن يجمع الشقين في صورة واحدة أدخلها في صورة (خارطة) ما وراء النهر.

(31) مدينة صغيرة بخوزستان.

(32) السوس : مدينة بخوزستان وتطلق الكلمة أحيانا على مدينة وجهتها فلا يجب أن نخلط بين السوس بالمشرق والسوس بالمغرب الأقصى.

(33) دار طراز للسلطان أي معمل نسيج حكومي تابع للدولة.

(34) من أشهر الصناعات الاسلامية النسيج وقد اختصّت بعض المدن بنسيج القطن أو الصوف أو الكتان أو الحرير - أنظر كتاب آدم متز، الحضارة العربية الاسلامية في القرن الرابع هجرى - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده - القاهرة 1957 - ج 2 ص 344 وما بعدها.

ب) الأخبار المستقاة على عين المكان

انّ الاصطخري لا يقبل كلّ الأخبار فهو يحترز من بعضها فيقول مثلا : «ولهم بالسوس (مدينة بخوزستان) - **بلغني والله أعلم** - أن تابوتا وجد في أيام أبي موسى الأشعري فذكروا أن فيه عظام دانيال النبي عليه السلام ....». ويرفض أخرى لأنه يعدّها من الخرافات. يقول : «ويتحدّث في خرافات الفرس أن الضحاك[35] حيّ في هذا الجبل (جبل دنباوند باقليم الجبال) وأن السحرة من جميع الأرض تأوى اليه» كما يقول في ختام حديثه عن اليمن : «ويحكي عن الغيلان بها من الأعجوبة ما لا أستجيز حكايته».

ج) الأخبار المأخوذة من مصادر شفوية أو من الكتب وقد اعتمدها في وصف المناطق التي لم يزرها المغرب والسند والهند على أنه يجدر أن نلاحظ أنه حتى في حديثه عن بلاد السند والهند التي كثيرا ما كانت تهيج مخيّلة العرب لا يذكر أية عجيبة.

- مادة الكتاب

يمكن أن نقسّم مادة الكتاب الى الأغراض الكبرى التالية :

أ) حدود الاقليم

ب) الطرق والمسافات بين المراحل (المدن)

ج) المدن : هذا الغرض هو أهمّ الأغراض إذ أن المدينة منطلق لعرض شامل عن السكان وحياتهم (الأجناس - الطباع - المذاهب - اللغات واللهجات - الأنشطة الاقتصادية - العادات) كما أنه غالبا ما تكون المعطيات الطبيعية (خاصة المياه) مدمجة في الحديث عن المدن والهدف من عرضها تعليل نمط عيش السكّان وهكذا يكون التعريف بالاقليم قائما أساسا على وصف مدنه باستثناء بعض الأقاليم (خوزستان - فارس - كرمان) التي سلك المؤلف في وصفها مسلكا آخر إذ قدم لنا عن كل إقليم لوحة عامة (التضاريس - الهواء - المياه - الانتاج الزراعي والصناعي - اللغة - الحياة اليومية - الأخلاق والسلوك - المذاهب) لا

(35) أنظر كذلك وصفه لضواحي بخاري.

يحتلّ فيها غرض المدن الا نصيبا قليلا.

اما الأسلوب فاذا استثنينا بعض الفقرات التي لا يخلو فيها التعبير من طابع أدبي فنّي مثل قوله : «وبحر القلزم (البحر الأحمر) مثل الوادي به جبال كثيرة قد علا الماء عليها ... وماؤه صاف فى تلك الجبال فيه»[36] فان الأسلوب جاف أقرب الى أسلوب المذكّرة (La fiche) منه الى الأسلوب الأدبي والسبب في ذلك هو أن الاصطخري لم يتخلص بصفة نهائية من التجاه الخرائطي(Cartographique) الذي سنه البلخي في «صورة الأقاليم» والذي يكون فيه الحديث تعليقا جافا على الخارطة على أنه يجب أن نضيف أنه بفضل تعدد مصادره وخاصة منها العيان كان حديثه ثريّا بالمعلومات وان لم يبلغ ثراء حديث المقدّسي.

---

(36) الفقرة الخاصة بهذا البحر في الكتاب المذكور.

البصـــــرة

وأما مدن العراق فالبصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم وانما اختطُها المسلمون أيام عمر بن الخطاب ومصّرها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل[37] كلها ويحيط بغربيها البادية[38] مقوّسا وليس فيها مياه الا الأنهار[39] وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدّت أيام بلال بن أبي بردة على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري فيها الزواريق وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال بن أبي بردة حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع فربّما رأيت في مقدار رمية سهم عددا من الأنهار صغارا تجري في كلها زواريق صغار ولكل نهر اسم ين ينسب به الى صاحبه الذي احتفره أو الى الناحية التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي فجوّزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها[40] وأكثر أبنيتها (البصرة) بالآجر ... ولها نخيل متّصل من عبدسي الى عبادان نيف خمسون فرسخا متصلا لا يكون الانسان منه في مكان الا وهو في نهر ونخيل أو يكون بحيث يراهما وهي في مستوى[41] لا جبال فيه لا بها قبر طلحة بن عبيد الله من الصحابة في المدينة وخارج المربد في البادية قبر أنس بن مالك والحسن البصري وابن سيرين والمشاهير من علماء البصرة وزهّادها / ولها (البصرة) نهر يعرف بنهر الأبلة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبلّة وعلى حافتي هذا النهر قصور

---

(37) خطّت المدينة فنزلت كل قبيلة حيّا.

(38) أرض غير عامرة.

(39) النهر هو كل مجرى للماء ويمكن أن تطلق الكلمة على مجرى كبير (نهر النيل) أو على مجرى صغير كما هو الشأن في هذا النص والأنهار التي يصفها الاصطخري هنا متفرعة كلها عن الفرات.

(40) بعد المعاينة أقر الاصطخري بصحة الخبر.

(41) المستوى : الأرض المستوية.

وبساتين متصلة كأنها بستان واحد قد مدت على خيط واحد [. . .] وأنهار البصرة كلّها منخرقة بعضها الى بعض حتى اذا جاء مد البحر[42] تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم وجميع أنهارهم فاذا جزر البحر أنحط الماء حتى تخلو منه البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار الا أن الغالب على مائهم (أهل البصرة) الملوحة وانّما يستقون اذا جزر الماء الى حد النهر معقل ثم يعذب ولا يضره ماء البحر [. . .] وفي حدود البصرة بين أضعاف قراها آجام كثيرة وبطائح.

كتاب المسالك والممالك ـ تحقيق محمد عبد العال الحيني، القاهرة 1381 / 1961، ص 57

(42) الخليج العربي الفارسي.

الاصطخري : النّص الثاني

اقليم خوزستان

وخوزستان في مستوى وأرض سهلة ومياه جارية فمن أكبر أنهارها نهر تستر[43] وهو النهر الذي بنى عليه سابور الملك[44] شاذروان[45] بباب تستر حتى ارتقع ماؤه الى أرض المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض ويجري من ناحية تستر نهر المسرقان فاذا انتهى الى عسكر مكرم[46] فعليه جسر كبير نحو عشرين سفينة[47] تجري فيه[48] السفن العظام ... وليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال الا شيء يسير يتاخم نواحي تستر وجنديسابور وبناحية ايذج واصفهان والباقي من خوزستان كأنه أرض العراق وأما هواؤها[49] وماؤها وتربتها وصحة أهلها فان مياهها طيبة عذبة جارية ولا أعرف بجميع خوزستان بلدا ماؤهم (السكان) من البئر لكثرة المياه الجارية بها وأما ترابها فان ما بعد عن دجلة الى ناحية الشمال أيبس وأصح وما كان الى دجلة أقرب فهو جنس أرض البصرة في التسبخ وكذلك في الصحة ونقاء البشرة في الناس فيما بعد عن دجلة [. . .] وأمّا ثمارهم (أهل خوزستان)

---

(43) النهر المقصود هو نهر كارون وقد سماه الجغرافيون العرب بأسماء عدة : نهر خوزستان نهر الأهواز ـ دجيل الأهواز (الأهواز أهم مدن خوزستان تقع على نهر كارون) ـ نهر تستر لأنه يمرّ بهذه المدينة.

(44) قبل الاسلام.

(45) شاذروان : كلمة فارسية تعني خزّان ماء كبير.

(46) المسرقان : المقصود بنهر المسرقان قناة واسعة حفرها أهل الأهواز لجلب قسط من ماء كارون وقد أطلق اسم المسرقان على نهر كارون وقول الاصطخري : فاذا انتهى الى عسكر مكر (مدينة جنوب تستر غير بعيدة عنها) يعني اذا انتهى نهر كارون الى هذه المدينة.

(47) جسر من سفن (Un pont de bateaux) أي أي الجسر يتكون من نحو عشرين سفينة وضعت جنبا الى جنب.

(48) فيه : الضمير يعود على النهر.

(49) يستعمل الجغرافيون العرب كلمة هواء ويقصدون بها المناخ.

وزرعهم فان الغالب على البلاد من الأشجار النخل ولهم عامة الحبوب من الحنطة والشعير والباقلاء (الفول) وأكثر حبوبها بعد الحنطة والشعير الأرز فيخبزونه وهو لهم قوت وكذلك في رستاق العراق وليس من بلد ليس به قصب سكر من هذه الكور الكبار (كورخوزستان) ولكن أكثر ما بها من السكر بالمسرقان ويقع جميعه الى عسكر مكرم[50] [. . .] وعندهم عامّة الثمار لا يكاد يخطئهم الا الجوز وما ل يكون الا ببلاد الصّرود[51].

وأما لسانهم فان عامتهم يتكلمون بالفارسية والعربية غير أن لهم لسانا آخر ليس بعبراني ولا سرياني ولا فارسي، وزيّهم زيّ أهل العراق في الملابس من القمص والطيالسة والعمائم وفي أضعافهم[52] من يلبس الأزر والميازر[53] والغالب على أخلاقهم سوء الخلق والمنافسة فيما بينهم في اليسير من الأمور وشدّة الامساك[54] والغالب على خلقهم (أي الخلقة) صفرة اللون والنحافة وخفّة اللحى، ووفور الشعر فيهم أقل مما في غيرهم من المدن وهذه صفة عامة الجروم[55] وأمّا ما ينتحلونه من الديانات فانّ الغالب بخوزستان الاعتزال والغلبة عليهم دون سائر النحل[56] وفي سائر كورهم من أهل الملل نحو ما في سائر الأمصار.

كتاب المسالك والممالك ص 62 ـ 63 ـ 64

---

(50) مدينة الكورة.

(51) الطّرود أو السّرود : الجهات الباردة ويقابلها الجرم.

(52) ضعفاء الحال منهم.

(53) الأرز جمع ومفرده أزار والميازر جمع ومفرده منزر.

(54) الامساك البخل.

(55) الجروم (ضد الصّرود) ـ الجهات الحارة.

(56) أي أن الاعتزال يغلب عليهم وبقية النحل الأخرى هي دون الاعتزال انتشارا.

2) ـ ابن حوقل : كتاب صورة الأرض[57].

ـ هو أبو القاسم محمّد النصيبي (نسبة الى مدينة نصيبين بالجزيرة أي القسم الشمالي من العراق) المعروف بابن حوقل. غادر العراق يوم 7 رمضان 331 / 15 ماي 943 ليجوب العالم الاسلامي غربه وشرقه فزار مصر وبلاد النوبة والمغرب والأندلس وصقلّية والعراق والشام وأذربيجان وأرمينيا وبلاد الفرس (ايران) وبلاد ما وراء النهر ودامت رحلاته ما يقارب الثلاثين سنة.

والأسباب التي دعته الى التجوال هي التجارة وحب الاطلاع على أن المستشرق دوزي (Dozy) يرى في ابن حوقل جاسوسا من جواسيس الفاطميين معتمدا في رأيه هذا تنويه ابن حوقل بماضي الفاطميين بالمغرب قبل انتقالهم الى مصر وكذلك الصّورة السلبية التي رسمها عن أهل الأندلس وعن نظامهم الاداري والحربي والتي أنهاها بالتعبير عن دهشته من احتفاظهم باستقلالهم فعدّ دوزي هذا الكلام ايعازا للفاطميين بضمّ الأندلس الى مملكتهم.

وهذا الرأي لا يخلو من مبالغة فابن حوقل لا يخفي ميوله الشيعية ويتجلّى ذلك في مناسبات عديدة ولكنه لم يتعصّب الى فرقة شيعية معيّنة ناهيك أنه أهدى مسودة كتابه الأولى[58] الى سيف الدولة الحمداني (ت 356 / 967) والدولة الحمدانية دولة إمامية[59] كما أنه كان باتصال بالأوساط القرمطية فقدّم لنا معلومات وافرة عن قرامطة البحرين[60] وفي حديثه عن دولة الأدارسة[61] بالمغرب الأقصى ينطلق لسانه بالمدح. كل هذا يدعونا الى الاحتراز

---

(57) الطبعة المعتمدة هي طبعة ليدن 1938 ـ تحقيق كراموس (J.H. Kramers).

(58) وضع ابن حوقل مسودّة أولى رفعها الى سيف الدولة الحمداني بعنوان «كتاب المسالك والممالك ثم وضع مسودّة ثانية حوالي 367 / 977 وبين المسودّتين بعض الفوارق.

(59) الأمامية أو الاثنا عشرية فرقة شيعية تقول بأن المهدي المنتظر هو الامام الثاني عشر.

(60) ظهرت حركة القرامطة حوالي 278 هـ. وأسس أبو سعيد الجنّابي الدولة القومطية بالبحرين في أواخر القرن الثالث. والقرامطة وجهان لحركة واحدة حركة الباطنية التي كانت تسعى الى تحطيم الخلافة لعباسية والمذاهب السنّية.

(61) الدولة الادريسية دولة شيعية قامت بالمغرب الأقصى وكانت عاصمتها فاس وقد دامت من 172 الى 364 هـ.

من رأي دوزى ويجعلنا نقول : ان ابن حوقل كان شيعيا ولكنه لم يكن في خدمة الفاطميين وان كان معجبا بهم.

- كتاب صورة الأرض

انّ ما حد ابن حوقل على تأليف كتابه هو أنه كان «في حالة الحداثة شغفا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار [. . .) كثير الاستعلام والاستخبار يسأل عنها المسافرين ووكلاء التجار»[62] ثم أنه قرأ الكتب المؤلفة فيها[63] وأعانه على تأليف كتاب صورة الأرض أسفاره العديدة وملاقاته الاصطخري. يقول : «ولقيت أبا الاسحاق الفارسي وقد صور صورة لأرض الهند فخلطها وصوّر فارس فجوّدها وكنت قد صوّرت أذربيجان فاستحسنها والجزيرة فاستجادها وأخرج التي لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال (أي الاصطخري) قد نظرت في أثرك وأنا أسألك اصلاح كتابي حيث ضللت فأصلحت منه غير شكل (أي أكثر من صورة) وعزوته اليه ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب واصلاحه وتصويره»[64].

يتّضح ممّا سبق مصادر ابن حوقل :

- المصادر الشفوية
- المصادر المكتوبة
- العيان والتجربة الشخصية

وفيما يخصّ التأليف يقرّ ابن حوقل بأن عمله مواصلة لعمل الاصطخري ومقارنة الكتابين تثبت فعلاً ابن حوقل يدين لسابقه بالكثير من ذلك أن تقسيه العالم الاسلامي الى عشرين اقليما مطابق كل المطابقة لتقسيم البلخي حتى في الترتيب، وفي وصف الأقاليم نفسه أخذ ابن حوقل عن الاصطخري الكثير

---

(62) العبارات بين القوسين مأخوذة من مقدمة كتاب صورة الأرض مع تعويض ضمير المتكلم بضمير الغائب.

(63) يذكر منها كتاب ابن خرداذبه وكتاب الجيهاني.

(64) عاصمة بلاد السّند - عمل : الرقعة التي تضع اداريا وجبائيا الى مدينة.

خاصة في وصف الجزيرة العربية وسجستان وبحر فارس وبحر الروم. وهذا مثال مأخوذ من وصف سجستان :

أ) نص الاصطخري

وأمّا سجستان وما يتصل بها مما قد جمعت اليها في الصورة (أي الخريطة) فالذي يحيط بها مما يلي الشرق مفازة بين كرمان وأرض السّند وشيء من عمل ملتان[65] ومما يلي المغرب خراسان وشيء من عمل الهند وممّا يلي الشمال أرض الهند ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وكرمان ...

وأمّا مدنها وما يقع في أضعافها ممّا يحتاج الى معرفة فلها من المدن زرنج وبست وغزنة [. . .] ومدينتها العظيمة تسمّى زرنج وهي مدينة عليها حصن وخندق والماء الذي بالخندق فيه أيضا فضل من المياه ولها خمسة أبواب . . .

ب) نصّ ابن حوقل

وأمّا سجستان وما يتصل بها مما قد جمعت اليها في الصورة فالذي يحيط بها مما يلي المشرق مفازة بين كرمان وأرض السّند وبين سجستان وشيء من عمل ملتان وممّا يلي المغرب خراسان وشيء من عمل الهند ومما يلي الشمال أرض الهند ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وكرمان ...

وأمّا مدنها وما يقع في أضعافها ممّا يحتاج الى معرفته فلها من المدن زرنج وبست وغزنة . . . ومدينتها العظمى تسمى زرنج وهي مدينة عليها حصن **ولها ربض واسع الأبنية كثير المساكن وفيه دور الامارة لآل الصفار[66] الى غير ذلك من الحال والفنادق وعليه سور حصين دائريه وخندق حصين أيضا** والماء الذي بالخندق ينبع من مكان ويقع فيه

(65) من مقدمة كتاب صورة الأرض.

(66) أسس بنو صفار دولتهم حوالي سنة 250 / 864. وفي أول الأمر امتدّ نفوذهم على كلّ بلاد الفرس ثم تقلّص هذا النفوذ فلم تبق بأيديهم الا منطقة سجستان وسقطت هذه الدولة سنة 559 / 1163.

أيضا فضل من المياه الجارية **اليها**[67] ولها خمسة أبواب . . .

ومثل هذا التشابه بين نصّي الاصطخري وابن حوقل يتكرر وهو ما يثبت أن صاحب كتاب صورة الأرض أخذ ـ كما قلنا ـ الكثير عن سابقه على أنه وجب أن نضيف أن ابن حوقل لم يكن منتحلا في كل كتابه ففي كثير من الأحيان دفعته تجربته الشخصية الى حذف ما كان يراه خاطئا والى اضافة معلومات جديدة[68] ثم أن الصفحات التي خص بها المغرب صفحات طريفة تعدّ من أهم المصادر لمعرفة أوضاع المغرب في القرن الرابع وتتجلى شخصية الرجل كذلك في شدّة اهتمامه بالحياة السياسية والدينية وهذا ما يفسّر وفرة المعلومات التاريخية التي أضافها الى كتاب الاصطخري والتي لا تخلّ بتوازن مؤلفه اذ هي مدمجة في وصف الاقليم والغاية منها تفسير حاضر المجموعة البشرية التي تعيش في هذا الاقليم أو ذاك.

ومن جهة أخرى ان الاقليم عند ابن حوقل ليس منطقة منعزلة بل هو مرتبط بالأقاليم المجاورة ببقية العالم الاسلامي ذلك أن الرجل عندما يذكر منتجات اقليم يشفع كلامه هذا بملاحظات تتعلّق بالمبادلات التجارية بين هذا الاقليم وغيره من الأقاليم فحديثه عن المغرب يبرز دوز هذا الاقليم في العلاقات التجارية وغيرها بين الشمال والجنوب[69] وبين الغرب والشرق[70] وهو دور مرتبط بتجارة الذهب والعبيد من بلاد السودان ولما كانت هذه التجارة مصدر أرباح طائلة قام الصراع بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة الفاطمية بمصر[71].

---

(67) دار الإمارة : المباني التي بها الدواوين وبيت المال.

(68) انظر على سبيل المثال النص المدرج أعلاه.

(69) بين شمال افريقيا وبلاد السّودان (النيجر ومالي وغانا).

(70) الجزء الغربي والجزء الشّرقي نم العالم الاسلامي.

(71) قام هذا الصراع منذ أن استقرّ الأمر للعبيدين بافريقية وبلغ ذروته في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي وعهد عبد الرحمان الثالث ثم تواصل بعد أن انتقلت الدولة الفاطمية الى مصر.

ابن حوقل : النّص الأول

. . . فأمّا أطرابلس فكانت قديما مز عمل افريقية وسمعت من يذكر أن عمل[72] افريقية لمّا كانت أطرابلس مضافة اليها معروف معلوم وكان من صبرة وهي منزل من أطرابلس على يوم وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا [. . .] وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السّلطان بعضها الى داخل السّور وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية وارتفاعها[73] دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره : كالخوخ الفرسك والكمّثرى[74] اللذين لا شبه لهما بمكان وبها الجهاز[75] الكثير من صوف الرفيع وطيقان الأكسية[76] الفاخرة الرزق والحجب النفوسية[77] والسّود والبيض الثمينة الى[78] مراكب تحطّ ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مرّ الأوقات والسّاعات صباحا ومساء من بلاد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم. وأهلها قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال متميّزون بالتجمّل في اللباس وحسن الصور والقصد في المعاش الى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيّات جميلة [. . .]

---

(72) الكورة : قسمة ادارية. والعمل : قسمة جبائية.

(73) مبلغ خراجها وضرائبها.

(74) الفرسك أو الفرسك كلمة فارسية : الخوخ - استعمل ابن حوقل كلمتين لنفس الثمرة والكمثّري : الاجاص أو الأنجاص (بالمغرب) - وفي المشرق تستعمل كلمة اجاص لعيون البشر الثمرة التي نسميها اليوم بتونس في اللغة الدارجة «العوينة».

(75) الجهاز : ما يحتاج اليه في الحياة اليومية من لباس وفرش وغيرها.

(76) الطيقان التي تكسي بها الجدران.

(77) المصنوعة بجبل نفوسه.

(78) الى : بها ...... وبها .... الى (النهاية في التعداد).

ابن حوقل : النّص الثاني

وطبرقة قرية وهي عدوة لأهل الأندلس اليها ينتهون ومنها الى الأندلس يركبون وهي قرية وبئة وبها عقارب قاتلة [. . .] ومن أراد طبرقة من تونس على الجادّة[79] اجتاز مدينة باجة وهي مدينة قديمة أزلية كثيرة القمح والشعير ولها من الغلاّت والزروع ما ليس بجميع المغرب فهو عندها كثرة وجودة ونقاء الى جوهر في نفس حبوبها وهي صحيحة الهواء كثيرة الرخاء واسعة الفضاء غزيرة الداخل على السلطان وافرة الأرباح على تجارها والمزارعين بها وطبرقة المذكورة مع صغر مقدارها وتفه منزلتها فانها اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالأندلسيين والتّجار عليها ونزولهم فيها وتعشيرهم كان في سالف الزّمان بها. . .

وعلى الساحل منها بهذا البحر على نحو مرحلة مرسى الخزر وفيه معدن المرجان ومرسى الخزر أيضا قرية غير أنها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة ولا يوجد المرجان في مكان غير هذه القرية المدعوّة بمرسى الخزر ومدينة تنّس (بالجزائر) وبمدينة سبتة المحاذية من الأندلس لمدينة جبل طارق وهي المعروفة بالجزيرة الخضراء والذي بها من المرجان قليل الجوهر حقير المقدار في جنب ما يخرج من مرسى الخزر ولسلطان المغرب[80] بها أمناء على ما يخرج منه [. . .] وللتجار بها أموال كثيرة من أقطار النواحي عند سماسرة سوق لبيع المرجان وشراه ويعمل بها في أكثر الأوقات في اثارة المرجان الخمسون قاريا [. . .] والعاملون فيها يكثرون الأكل والشرب والخلاعة ولهم بها مكاسب وافرة. . .

---

(79) الريق البرية.

(80) سلطان ....؟؟

ابن حوقل : النص الثالث

وفيما بين أودغست[81] وسجلماسة غير قبيلة من قبائل البربر متعزّبون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العازبة فمن ذلك شرطة وسمسطة وبنو مسوفا قبيل عظيم من المقيمين بقلب البرّ على مياه غير طائلة ولا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق وفيهم من لم يسمع بها الا بالمثل وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم ولهم ملك يملكهم ويدبّرهم تكبره صنهاجة[82] وسائر تلك الديار لأنهم يملكون تلك الطريق[83] وفيهم البسالة والجرأة والفروسية على الابل والخفة والجري والمعرفة بأوضاع البسرّ وأشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة ولهم الحسّ الذي لا يدانيه في الدلالة الا من قاربهم وسعى سعيهم |. . .| ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم ورجالهم ولم ير لأحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت من وجوههم غير عيونهم وذلك أنهم يتلثّمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك |. . .| ولهم لوازم[84] على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان ومن ذلك قوام بعض شؤونهم.

ومن بأداني سجلماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفونه والشعير ويزرعونه والتمور والطيّبات وفي أغراضهم أصحاب البرانس المقيمون بين السوس وأغمات وفاس ولهم لوازم على المجتازين من فاس الى سجلماسة يلزمونهم على ما معهم من التجارة ويخفرونهم[85] وفي كثير منهم

---

(81) مدينة كانت بجنوب موريطانيا وكانت احدى المحطات التي تحطّ بها القوافل التجارية القاصدة غانا أو الراجعة من غانا بلاد الذهب.

(82) صنهاجة وزناتة أكبر القبائل البربرية.

(83) أي لا يستطيع احد أن يسافر بين سجلماسة وأودعست الا اذا سمحوا له بذلك.

(84) ضرائب.

(85) يحمونهم.

الشراية[86] والتدين القوى بها والتمسّك بها وفي بعضهم الاعتزال والعلم ومن بالسوس ونواحي درعة شيعة . . .

ومن بالسواحل من البربرينواحي الهبط وأرض طنجة وأزيلي وفاس والسوس وتامدلت[87] ففي خفض من العيش وطيبة المآكل وخاصة من بالهبط في ضمن عبد الله من ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[88] صلوات الله عليهم أجمعين[89]. . .

3) ـ المقدّسي

ـ هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي (أو المقدسي). ولد حوالي 334 / 945 ببيت المقدس في عائلة حرفيين اذ كان جدّه أبو بكر بنّاء[90] وكذلك والد أمه وهذا ما يفسر اهتمام صاحبنا بالفن المعماري ـ أما تكوينه الثقافي فهو تكوين كلاسيكي يقوم أساسا على الأدب والعلوم الدينية خاصة منها الفقه.

دفعه ولعه بالأسفار الى زيارة كل العالم الاسلامي باستثناء الأندلس والسند وبدأ في وضع كتابه «أحسن التقاسيم» بشيراز سنة 375 / 985 وهو في سن الأربعين ورفع المسودّة الأولى الى السّامانيين والثانية الى الفاطميين.

ـ آراؤه الدينية

يتساءل المرء لماذا رفع المقدّسي المسودّة الأولى الى السامانيين والمسودّة الثانية الى الفاطميين الاسماعيليين ـ ان هذا السؤال يدعونا الى النظر في آراء

---

(86) الشراية من شرى نفسه لربّه : أي باعها وتطلق العبارة على الخوارج فيقال «هم شراة».

(87) تامدلت : تقع هذه المحطة جنوب سجلماسة.

(88) يقصد دولة الادريسيين.

(89) لاحظوا استعمال هذه العبارة التي تدلّ على تشيع ابن حوقل فأهل السنة يقولون «رضي الله عنهم».

(90) بنى جدّه ميناء عكّة في عهد أحمد بن طولون الذي ولاّه الخليفة العباسي المستعين على مصر سنة 254 / 868. ثم استقل بالحكم ومدّ سلطانه على مصر والشام ـ توفّي سنة 270 / 883 ـ من مآثره جامع ابن طولون بالقاهرة.

الرجل الدينية. ان المقدسي يهتم بكل الاتجاهات الدينية المتواجدة بالعالم الاسلامي في عصره من شيعة ومعتزلة وخوارج ومذاهب سنّية (بما فيها الظاهرية) وصوفيّة على أن هذه الموضوعيّة لم تمنعه من التعبير عن موقفه الشخصي فهو لا يخفى تشيّعه ولكنه في نفس الحين يقول بأعمال الرأي[91] ويقر بمشروعية خلافة أبي بكر وعمرو وعثمان وفي عبارة وجيزة فان المقدّسي وان كان متشيّعا ينقد الغلو مهما كان مصدره[92] ويدعو الى اسلام متفتّح ثريّ باتجاهاته المختلفة شريطة أن يحافظ على الجوهر : الايمان بالله ورسوله وكتابه والتمسك بقواعد الاسلام الخمس[93] واذا تذكرنا أن السّامانيين السنّيين كانوا لا يعادون الشيعة[94] فهمنا لماذا رفع اليهم مسودّة كتابه الأولى أما فيما يخصّ الفاطميين فهم شيعة ولا غرابة أن يرفع اليهم المسودّة الثانية على أن هذا الاهداء لا يعني أنه كان متعصّبا للاسماعيلية التي تنتمي اليها الدولة الفاطمية.

- كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»

أ) مصادر المقدّسي

يقول : «أعلم أني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدي الصّواب واستعنت بفهم أولي الألباب وسألت الله عزّ اسمه أن يجنّبني الخطأ والزلل ويبلغني الرجاء والأمل فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته وعرفته وعلقته وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان ومن قواعده أيضا وأركانه وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في

(91) أحسن التقاسيم - طبعة ليدن - 1906 ص 32 - 156 - 270 - ومما يثبت كذلك قوله بأعمال الرأي اعجابه بأبي حنيفة.

(92) ينعت المقدّسي المتعصّبين لعلى بالجهّال (ص 128 - 195) وينعت السنّيين المغالين في معاوية بالمشبّهة - ص 236 - 365 - 384.

(93) أحسن التقاسيم ص 366 - 367.

(94) في خراسان بلاد السّامانيين لم يلحقه الأذى الذي لحقه ببغداد وباصفهان من السنّيين المتعصّبين لمّا اعترض على بعض مقولاتهم.

الأطراف التي بعدت عنها ولم يتقدّر لي الوصول اليها فما وقع عليه اتفاقهم أثبّته وما اختلفوا فيه نبذته (ص 3) . . .».

ويقول في مكان آخر :

«أعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنّفوا هذا الباب غير أن أكثر تصانيفهم بل كلها سماع لهم ونحن فلم يبق اقليم الا وقد دخلناه وما تركنا مع ذلك البحث والنظر في الغيب (أي في المناطق التي لم يزرها) فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثّقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب (أي الجغرافيا) وفي غيره[95]. وما بقيت خزانة ملك[96] الا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة الا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ولا أهل زهد الا وقد خالطتهم ولا مذكّر (من يتعاطى الذكر في الجوامع) بلد الا وقد شهدتهم حتى استقام لي ما أبتغيه في هذا الباب .... ص 43.

ويضيف متحدثا عن أسفاره :

«. . . ثم انه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين الا وقد أخذت منه نصيبا غير الكدية[97] وركوب الكبيرة فقد تفهّمت وتأدّبت وتزهّدت وتعبّدت وفقّهت وأدّبت على المنابر وأذّنت على المنائر وأمّمت في المساجد وذكّرت في الجوامع واختلفت الى المدارس ودعوت في المحافل وتكلّمت في المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائين[98] الثرائد ومع النواتي[99] العصائد وطردت

(95) يذكر المقدّسي من الجغرافيين الذين اطلع على كتبهم : ابن خرداذبه والجيهاني وقدامه بن جعفر والاصطخري ومن الأدباء الجاحظ وابن الفقيه ومن المؤرخين البلاذري والشمشاطي (أبو الحسن علي بن محمد) المقرّب من الحمدانيين والذي توفي بعد سنة 377 / 987 - وفي كثير من الأحيان يقتصر على قوله : قرأت دون أن يذكر الكتاب وصاحبه.

(96) خاصة المكتبات التي أسّسها البويهيون ص 159 - 258 - 294 (خزائن عضد الدولة).

(97) الكدية : التحيّل لكسب المال - أنظر مقامات الهمذاني.

(98) الخانقة : كلمة فارسية تعني الزّاوية والخانقانيون هم المتصوفون الذين يعيشون في الخوانق.

(99) المفرد : نوتي : ملاّح.

في الليالي من المساجد وسحت في البراري وتهت في الصحاري وصدقت الورع زمانا وأكلت الحرام عيانا . . . وخالطت السّلطان وملكت العبيد وحملت على رأسي بالزّبيل وأشرفت مرارا على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السّلاطين والوزراء وصاحبت في الطريق الفسّاق وبعت البضائع في الأسواق وسجنت في الحبوس وأخذت على أني جاسوس . . . ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلة وسكنت بين الجهّال في محلّة الحاكة . . . وكسيت خلع الملوك وأمروا بالصلات وعريت وافتقرت مرّات . . . ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لم نصنّفه جزافا[100] ولا رتّبناه مجازا ويميّزه عن غيره. فكم بين من قاسى هذه الأسباب[101] وبين من صنف كتابه في الرّفاهية ووضعه على السّماع . . .» (ص 43 وما بعد).

من هذه الفقرات يتجلّى مصادر المقدّسي وهي العيان والتجربة الشخصية ـ النقل عن الثقات من المخبرين بعد التثب والتمحيص ـ الأخذ من الكتب عند الضرورة. ومن جهة أخرى فان الرجل معتزّ بأسفاره فخور بمغامواته التي مكّنته من الاطلاع على البلدان فقط بل على مخالطة شرائح مختلفة من المجتمعات الاسلامية فكانت رحلاته عبر الزمان والمكان والسلم الاجتماعي(Les hiérarchies sociales) من السوقة الى الملوك.

ب) المنهــج

يقتصر المقدّسي (أويكاد)[102] في كتابه على العالم الاسلامي شأنه في هذا شأن الاصطخري وابن حوقل[103] ولكنه يقسّم العالم الاسلامي الى أربعة عشر اقليما :

---

(100) جازف : حدّث عن سماع.

(101) المغامرات.

(102) ص 136 ـ 137 (القسطنطينية) ـ ص 360 ـ 361 (البلغار والخزر).

(103) وهو كذلك ينطلق من خريطة (صورة) كل اقليم فيجعل الخرائط عماد الوصف ومن المؤسف أن المحقّق قد أسقط الخرائط التي رسمها المقدسي.

. ستة أقاليم عربية : الجزيرة العربية ـ العراق ـ أقور (أي الجزيرة) ـ الشام ـ مصر ـ المغرب. وقد أنهى كلامه عن هذه الأقاليم العربية بصفحات خصصها عن بادية العرب (أي بادية الشام) ومسالكها.

. ثمانية أقاليم أعجمية : بلاد ما وراء النهر (ويسمّيها جانب هيطل) ـ اقليم الديلم[104] ـ اقليم الرحاب (أرّان[105] وآذربيجان وأرمينيا) ـ اقليم الجبال ـ اقليم خوزستان ـ اقليم فارس ـ اقليم كرمان ـ اقليم السّند ـ وقد أنهى كلامه عن أقاليم الأعاجم بصفحات عديدة وصف فيها المفازة التي بين هذه الأقاليم ومسالكها.

.ويقوم وصف الأقاليم على تخطيط يلتزمه المؤلّف في كل كتابه :

أ) تقديم عام أو لوحة عامة عن كل اقليم :

ب) ذكر كوركل اقليم ومدن كل كورة

ت) وصف المدن مدينة مدينة

من ذلك مثلا :

«واسط قصبة[106] عظيمة ذات جانبين وجامعين وجسر بينهما، كثيرة الخير، بها جامع الحجّاج (بن يوسف) في الغربيّ[107] في طرف الأسواق بعيد عن الشطّ (شط الفرات) متشعّث عامر بالقرآن. اختطّها (المدينة) الحجّاج وسمّيت واسط لأنها بين قصبات العراق وبين الأهواز، رفقة، صحيحة الهواء، عذبة الماء، حسنة الأسواق، واسعة السواد (الريف) وقد جعل في طرفي الجسر

---

(104) هذا الاقليم على قوس جنوب بحر كاسبيان (La Mer Caspienne) وأهم مدنه : زنجان وقزوين وآمل وجرجان.

(105) تقع هذه المنطقة شمال أذربيجان على سواحل بحر كاسبيان العربية. (ويسمّى الجغرافيون العرب هذا البحر بحر الخزر أو بحر قزوين) ومدينة دربند أقصى مدن الرّان الشمالية.

(106) عاصمة الكورة.

(107) اي الجانب الغربيّ.

موضعان يدخل فيهما السفن، وفيهم (أهل واسط) ظرف وسائر مدنها[108] مختلّة أعمرها الطيّب وقرقوب.

ج) جمل شؤون الاقليم. وهذا القسم يضمّ الأغراض التالية :

- الهواء (الطقس) - المياه - المنتجات والتجارات - المكاييل والموازين - العملة - الخراج والضرائب.

وهذه بعض الأمثلة :

اقليم العراق : «ومكاييلهم القفيز ثلاثون منّا والمكّوك خمسة أمنان والكيلجة منوان ورطلهم نصف المنّ»[109]. (ص 129).

اقليم المغرب : « والمكاييل قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمنا والثمن ستّة أمداد بمد النبي[110] صلّى الله عليه وسلم وقفيز الأندلس ستّون رطلا والرّبع ثمانية عشر رطلا وفتيقة نصف القفيز». (ص 204).

اقليم مصر : «والنقود القديمة المثقال[111] والدرهم ولهم المزيّفة[112] خمسون بدينار ويكثرون التعامل بالراضي[113] وقد غير الفاطمي (الخليفة الفاطمي) النقود الا هذين وأبطل القطع والمثاقيل» (ص 204).

اقليم مصر : «وسألت بعض المصريين عن الخراج فقال ليس على مصر خراج ولكن يعمد الفلاّح الى الأرض فيأخذها من السلطان ويزرعها

---

(108) الضمير يعود على واسط بوصفها عاصمة الكورة وبقية مدن الكورة تابعة لها.

(109) الرّطل : لم يحدّد المقدّسي الرطل العراقي لمّا زار العراق ولذلك يصعب تحديد القفيز والمن - فهل بقى الرطل كما كان في عهد الخليفة العبّاسي المنصور ؟ أي الرطل 12، أوقية والأوقية - 31 غرام و48 فيكون الرطل يساوي، 380 غرام.

(110) المدّ النبوي يساوي ثلاثة أرباع اللتر - فالقفيز اذن - 144 لتر.

(111) المثقال يساوي 4 غ 72 من ذهب.

(112) المزيّفة : المخلوطة غير أن المقدّسي لم يذكر المعادن التي سكت منها هذه النقود.

(113) الخليفة العباسي الراضي.

فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام[114] ثم يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى (كراء) الأرض ويعطي ما بقي للفلاّح» (ص 212). وعن الضرائب بمصر يقول المقدّسي ويؤخذ بتنيس على الزيت زينار ومثل هذا وأشباهه ثم على شط النيل بالفسفاط ضرائب ثقال، رأيت بساحل تنّيس ضرائبيا قيل انه يجمع في كل يوم ألف دينار [. . .] وبالاسكندرية ضرائب على مراكب المغرب وبالمفرما على مراكب الشام ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم» (ص 213).

- اللغات واللهجات

يقول مثلا في هذا الباب :

«أهل هذا الاقليم (الجزيرة العربية) لغتهم العربية الآ بصحار[115] فان نداهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدّة فرس[116] الا أن اللغة عربية وبطرف الحميري[117] قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه وليديه يدينه[118] وقر عليه ويجعلون الجيم كافا فيقولون لرجب ركب ولرجل ركل [. . .] وجميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة الا أن أصحّ بها لغة هذيل ثم النجدين ثم بقية الحجاز الا الأحقاف فان لسانهم (سكان الأحقاف) وحش» (ص 96 - 97).

- الحياة الدينية : الفرق - المذاهب السنّية - القراءات.

---

(114) رشمت بالعرام : أي ختمت العرام (أي بيادر الحبوب) بالروشم وهو لوح منقوش فيبقى أثره فيها.

(115) قصبة كورة عمان.

(116) لا غرابة في هذا اذ أن عدن وجدّة ميناءان والفرس بحّارة وتجار.

(117) منطقة باليمامة.

(118) اي أنهم لا يسقطون النون في المثنى عند الاضافة.

يقول مثلا :

اقليم المغرب «وأمّآ المذاهب فعلى ثلاثة أقسام، أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف الا كتاب الله وموطّأ مالك فان ظهروا (عثروا) على حنفيّ أو شافعي نفوه وان عثروا على معتزلي أو شيعي أو نحوهما ربما قتلوه وبسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي انما هو أبو حنيفة ومالك . . . والقسم الثالث مذاهب الفاطمي[119] [. . .] ولهم تصانيف يدرسونها ونظرت في كتاب الدعائم[120] فاذا بهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول ويقولون بمذهب الاسماعيلية [. . .] وأهل المغرب والمشرق في مذاهب الفاطمي على ثلاثة أقسام منهم من أقرّ بها وأعتقدها ومنهم من كفر بها وأنكرها ومنهم من جعلها في اختلاف الأمة وأكثر أهل صقلّية حنفيون [. . .] وأمّا القراءات في جميع الاقليم فقراءة نافع فحسب» ص 236 ـ 238».

ـ الحياة اليومية : اللباس والمأكل والمسكن.

يقول : «في هذا الاقليم (الجزيرة العربية) لبس الوزر والأزر بلا قميص» ص 99 .

«من رسومهم (سكان اقليم العراق) التجمّل والتطيلس (لباس الطيلسان) يكثرون التنعّل (لباس النعال) وتسطيل العمائم» ص 129 .

«قلّما يلبون (أهل مصر) ثوبا غسيلا أو نعلا قد امتطعت ولا يكثرون أكل اللحم [. . .] ويخبزون في الرساتيق (أي الأرياف) وقت البيادر ما يكفيهم الى عام قابل ثم يبيّنوه ويخبئونه [. . .] يحبون رؤوس السّمك [. . .] يكثرون أكل الدلينس[121].

(119) يعني الفرقة الاسماعيلية التي ظهرت بين أصحابها بعض الفوارق وقد قسّم الاسماعيلية الى ثلاثة مذاهب انطلاقا من هذه الفوارق.

(120) دعائم الايمان للقاضي النعمان (ت 363 / 974).

(121) حيوان بن زلفتين (صدفتين) صغيرتين يفلقان ويحسي Un mollusque.

«أهل المغرب» قلّما يتطلسون وكثيرا ما يجعلون الرّداء بصاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباءة، أصحاب قلانس مصبّغة والبربر ببرانس سود» (ص 239).

- الأخلاق : من ذلك قوله في أهل الجزيرة العربية :

وفي أخلاق أهل مكّة جفاء ولا ظرف لأهل اليمن، أهل عمان يطفّفون ويخسرون ويفسقون، الزنا بعدن ظاهر» (ص 103).

- الولايات : يعني المقدّسي بهذه الكلمة سلطان أو سلاطين كل اقليم.

- المسافات : بهذا الباب ينهى المقدّسي قسم «جمل شؤون هذا الاقليم» والمقصود بالمسافات الفاصلة بين المدن والمحطات وتكون عادة بالمراحل فيقول مثلا :

«من الفرما الى البقّارة مرحلة ثم الى الورّادة مرحلة ثمّ الى العريش مرحلة».

ونضيف أن وجوه تفتّح كتاب المقدّسي على الأدب[122].

أ) الخصائص[123] (Les spécialités) وقد أدرج هذا الغرض في قسم «جمل شؤون الاقليم» فيقول مثلا : «وخصائص هذا الاقليم (اقليم أقور» الجزيرة) الخيل والصابون والسلاسل والسيور وقطن حرّان» (ص 145).

وعن مصر «لا نظير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وكتّانهم وجلودهم [. . .] ووزّهم وموزهم وشمعهم وقندهم (سكّرهم) وصيغهم [. . .] وحصرهم وحمرهم وبقرهم ونهرهم وتعبّدهم وحسن نغمتهم وعمارة جامعهم». (ص 203 - 204).

ب) العجائب : هاك مثالا

«وفيه (اقليم مصر) عجائب منها الهرمان اللذان هما أحدى عجائب الدنيا [. . .] وسمعت فيها أشياء مختلفة فمنهم من قال هما طلسمان ومنهم من قال

---

(122) نضيف هذه الملاحظة الى ما قلناه عن حرص المقدسي على أن يسمّ كتابه بسمة الأدب.

(123) الخصائص : طريقة من طرق العرض في كتب الأدب وهي تقوم على التعداد.

كانتا أهراء يوسف (النبي) وقيل بل كانت قبورهم [. . .] ولهما أشباههما عدّة صغار وهذا يدل على أنها مقابر [. . .] وثمّ صنم[124] يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كسر أنفه وشفتاه ويعين شمس شبه منارتين طويلتين قطعة واحدة على رأسهما شبه حرية [. . .] وقرأت في كتاب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح ويجوز هذا ألا ترى أن التماسيح في كورة الفسفاط لا تضرّ مع عظمتها وكثرتها[125] [. . .] منارة الاسكندرية قد أرسى أساسها في شبه جزيرة صغيرة يدخل اليها في طريق ضيقة، بالصخر محكمة، [. . .] وفيها ثلاثمائة بيت يصعد الى بعضها الفارس بفرسه والى كلّها بدليل وهي مشرفة على جميع مدن البحر ويقال انه كان فيها مرآة يرى فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر [. . .] وفي كتاب الطلسمات أنها بنيت طلسما لئلاّ يغلب ماء البحر على أرض مصر [. . .]».

ميزات «أحسن التقاسيم»

لا التجربة الشخصية ولا العيان ولا الاقتصار على وصف العالم الاسلامي[126] خاصّيات المقدّسي اذ أن طريقة البحث هذه وكذلك الموضوع قاسم مشترك بين ممثّلي المدرسة الكلاسيكية والأغراض المطروحة في الكتاب هي كذلك برنامج هذه المدرسة.

فأين تكمن ميزات الكتاب ؟

أ) في أحكام المنهج اذ توخّى المؤلّف نفس التخطيط في وصف كل الأقاليم : اللوحة العامّة، وصف المدن، مجمل شؤون الاقليم، المسافات وطرق المواصلات.

ب) الدقّة في استعمال المصطلحات

يقسّم المقدّسي الاقليم (La province) الى كور (ج كورة : Le district)

---

(124) أبو الهول.

(125) هذه خرافة قديمة تبنّاها كثير من الجغرافيين المسلمين ومنهم المقدسي.

(126) يقول المقدّسي : «ولم نذكر بل قد ذكرنا مواضع المسلمين منها، ص 9.

ويسمّى عاصمة الاقليم : مصر[127] وعاصمة الكورة : قصبة. يقول : «انّا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات كالحجّاب والمدن كالجند والقرى كالرجالة» (ص 47).

ويضيف قسمة أخرى : الناحية وهي أقل مساحة من الاقليم ولكنها تتمتّع بخصائص طبيعية وبشيء من الاستقلال السياسي فلا يمكن أن يطلق عليها كلمة كورة لذلك يقول : «وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لها مدن مثل ظخرستان لبلخ والبضائع لواسط والزّاب لافريقية». (ص 47).

ج) ثراء المعلومات المتعلقة بالحياة الدينية

ان كتاب أحسن التقاسيم مصدر هام جدا لمن أراد أن يدرس جغرافية العالم الاسلامي الدينية في القرن الرابع فالمقدسي يمدّنا بمعلومات وتفاصيل عن الفرق والمذاهب السنّية المتواجدة في كل اقليم بل في كل مدينة وسبق لنا أن سقنا فقرة تتعلّق بهذا الموضوع وهذا مثال آخر.

«وقد حصل به (اقليم العراق) عدّة من المذاهب، الغلبة بغداد للحنابلة والشّيعة وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة وبالكوفة الشّيعة الا الكناسة[128] فانها سنّة وبالبصرة مجالس وعوّام السّالمة[129] وهو قوم يدّعون الكلام (أي علم الكلام) والزهد وأكثر المذكرين بها منهم ولا يتعاطون الفقه فمن تفقّه منهم تفقّه لمالك [. . .] وأكثر أهل البصرة قدريّة[130] وشيعة وثمّ حنابلة وببغداد غالية

(127) في الأقاليم المركبة مثل المغرب يوجد في الاقليم الواحد عدّة أمصار : القيروان وتاهرت وفاس وبلرم (بصقلية) وقرطبة. على أن المقدّسي لا يستعمل كلمة مصر الا للقيروان وقرطبة.

(128) الحالة من النّاس.

(129) أسّس هذا المذهب سهل التستري (ت 283 / 896) المتصوف على أن الفرقة سميت باسم تلميذه محمد بن سالم (ت 297 / 909) وابنه أحمد بن سالم الذي توفّي في نفس السنة التي توفّي فيها والده.

(130) القدرية هم الذين يولون بالاختيار (Le libre choix) خلافا للجبرية الذين يقولون بالقضاء والقدر.

(أي غلاة) يفرطون في حب معاوية (بن أبي سفيان) ومشبّهة[131] .| والغالب على فقهاء هذا الاقليم وقضاته أصحاب أبي حنيفة |. . .| والقراءات السّبع مستعملة في هذا الاقليم وكانت في القديم ببغداد حروف (أي قراءة) حمزة وحروف يعقوب الحضرمي بالبصرة». (ص 126 ـ 128).

د) استعمال الالفاظ والأمثال المحلّية.

انّ المقدّسي فضلا عن الأحكام التي يطلقها على كل اقليم[132] يستعمل الألفاظ المحلّية من ذلك مثلا :

أسماء المراكب المستعملة خاصة بالعراق : الطيّار (لشدّة سرعته) ـ الجاسوس (مركب للمواقبة) ـ الخيطيّة : مركب تشدّ ألواحه بالخيوط لا بالمسامير.

الموازين والمكاييل والنقود :

المنّ يساوي رطلين وأهل مكّة يستعملون كلمة رطل ويقصدون بها المنّ.

بمكّة يستعملون كلمة بهار (يساوي 300 رطل) عوضا عن قتطار.

وبعمان يستعملون كلمة طسوه عوضا عن حبّة التي هي أقل النّقود قيمة والتي نعبر عنها اليوم بالفلس مثلا أو الملّيم.

الأشجار : بالأندلس شجرة العنب الكرمة وفي المشرق الدالية.

والمنية بالأندلس البستان.

المباني : تسعمل كلمة الفندق بالشام ومصر وافريقيا الشمالية وكلمة خان ببلاد الفرس وكلمة تيم ببلاد ما وراء النهر.

---

(131) المشبهة أو المجسّمة (Les anthropomorphistes) هم الذين ينسبون الى الله بعض صفات الانسان : العين واليد والجلوس على العرش.

(132) أنظر المثال المتعلق بالجزيرة العربية وهذا آخر .ولغاتهم (باقليم العراق) مختلفة أصحّها الكوفية لقربهم من البادية وبعدهم عن النبط ثم هي بعد ذلك حسنة فاسدة (فاسدة أي لا تحترم القواعد النحوية وحسنة أي يستسيغها السّامع لجمال جرسها) بخاصة بغداد (أي خاصة لغة بغداد.

تستعمل كلمة حصن بالجزيرة العربية والشام وكلمة قلعة بالعراق ومصر والمغرب وكلمة قهندز (كلمة فارسية) ببلاد ما وراء النهر.

ومثل هذه المعلومات مفيدة جدّا لدراسة الوضع اللغوي في العالم الاسلامي في القرن الرابع وقد استغلّ البعض منها المستشرق جهان فوك في مصنّفة الممتاز «عربية» الذي اهتمّ فيه بتاريخ اللغة العربية وأسلوبها[133] على أن الميدان لا يزال فسيحا يترقّب أعمالا أخرى.

(133) وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل. (ص 128) والحكم على لغة البطائح (بين البصرة وواسط يعلّل بالسكّان أنفسهم فهم خليط من العرب والنبط والزط (من الهند) والزنج.
Johann Fück - 'Arabiya - Recherches sur l'histoire de la langue et du style arabes. Traduction par Claude Denizeau: Paris, 1955.

المقدّسي : مجمل شؤون اقليم الشام

هو اقليم متوسّط الهواء[134] الآّ وسطه من الشراة الى الحولة[135] فانّه بلد الحر والنّيل[136] والموز والنخل . . . وأشد هذا الاقليم بردا بعلبك وما حولها ومن أمثالها : قيل للبرد : أين يطلب قال : بالبلقاء، فان لم نجدك قال : ببعلبك بيتي. وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصّالحين. وكلّ ما علا منه نحو بلد الروم كان أكثر أنهارا وثمارا وأبرد هواء وما سفل منه فانه أفضل وأطيب وألذ ثمارا وأكثر نخيلا وليس فيه نهر يسافر فيه انّما يعبر.

مذاهبهم مستقيمة، أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدَس وأكثر عمّان شيعة ولا ماء فيه (أي مجال فيه) لمعتزليّ انّما هم (المعتزلة) في خفية وببيت المقدس خلق من الكراميّة[137] لهم خوانق (زوايا) ومجالس لا ترى به (الاقليم) مالكيّا ولا داوديّا[138] وللأوزاعية[139] نجلس بجامع دمشق. والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث والفقهاء الشّافعية وقلّ قصبة أو بلد ليس فيه حنفي[140] وربّما كانت القضاة منهم (من الحنفية).

القراءات حروف أبي عمرو[141] الا بدمشق فانّه لا يؤّم في الجامع إلا من يقرأ لابن عامر[142] وهي (قراءة ابن عامر) شائعة فيهم مختارة عندهم

(134) طقسه معتدان.

(135) مجموعتان سكنيتان.

(136) نبات أزرق يصبغ به.

(137) مذهب أسّسه محمد بن كرّام (ت 257 / 869) ويقوم على مزيج من التصوف وعلم الكلام ومن أقواله أن لله جسما وقوله بالأحداث في الذّات وامكانية وجود أمامين وشرعية خلافة علي وخلافة معاوية.

(138) نسبة الى داود بن علي (ت 270 / 883) مؤسّس المذهب الظاهري بالعراق.

(139) أتباع عبد الرحمان الأوزاعي (ت 157 / 774) بيروت) ـ أسّس مدرسة سنّية. كان لها حظوة بالشام والأندلس.

(140) أي قلّما يوجد قصبة أو بلد ليس فيها حنفي.

(141) توفي سنة 154 / 770.

(142) توفّي سنة 118 / 736.

(أهل دمشق) وقد فشت قراءة الكسائي[143] في الاقليم، ويستعملون السّبع (القراءات السّبع) ويجتهدون في ضبطها التجارات به (الاقليم) مفيدة، يرتفع من فلسطين الزيت والقطّين (نوع من التين) والزّبيب والخرنوب (أو الخرّوب) والصابون والفوط (ج فوطة) ومن بيت المقدس الجبن والقطن والزّبيب والتفاح وقضم قريش[144] الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل ومن أريحاء نيل غاية[145] ومن عمّان الحبوب والخرفان والعسل ومن طبريّة شقاق المطارح[146] والكاغد والبزّ[147] ومن صور السكّر والخرز والزجاج المخروط ومن مآب قلوب اللوز ومن بيان الرز (أو الأرز) ومن دمشق المعصور[148] وديباج ودهن بنفسج . . . ومن حلب القطن والثياب والمغرة[149]....

ورسومهم (عاداتهم) أنّهم يقدون القناديل في مساجدهم على الدوام يعلّقونها بالسلاسل مثل مكّة وفي كل قصبة بيت مال بالجامع معلّق على أعمدة وبين النغطّى والصّحن أبواب الا أريحاء ولا ترى الحصى الا في صحن جامع طبريّة[150] والمنائر (أو المنارات) مربّعة وأوساط المغطّى مجمّلة وعلى أبواب الجوامع والأسواق مطاهر . . .

ومن أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدّرون بها الفصول الفصح وقت النيروز والعنصرة وقت الحرّ والميلاد وقت البرد وعيد بَرْبارة وقت الأمطار ومن أمثال الناس : اذا جاء عيد بربارة فليتّخذ البناء زمّارة يعني فليجلس في البيت والقلندس[151] ومن أمثالهم : اذا جاء القلندس فتدفّأ واحتبس

(143) توفّي سنة 189 / 805.

(144) ما نسميه باللغة العامية الزقوقو.

(145) غاية في الجودة.

(146) قطع من القماش، تفرش.

(147) الثياب من القطن.

(148) الزّيت وبالتحديد زيت الزّيتون.

(149) طين أحمر يصبغ به.

(150) أي انّ الصحون في بقية جوامع الشام مسلّطة.

(151) عيد في جانفي La fête des calendes.

وعيد الصليب وقت قطاف العنب وعيد لسدّ[152] وقت الزّرع . . .

وقلّما ترى به (الاقليم) فقيها له بدعة أو مسلما له كتابه الا بطريّة فانّها مازالت تخرج الكتّاب وانّما الكتبة به وبمصرنصارى لأنهم اتّكلوا على لسانهم فلم يتكلّفوا الأدب كالأعاجم وكنت اذا حضرت مجلس قاضي القضاة ببغداد أخجل من كثرة ما يلحن ولا يرون ذلك عيبا. وأكثر الجهابذة والصبّاغين والصّيارفة والدبّاغين بهذا الاقليم يهود وأكثر الأطبّاء والكتبة نصارى . . .

ولهم (أهل الشام) تجمّل يلبسون الأردية كل عالم وجهول ولا يتخفّفون في الصّيف انّما هي نعال الطاق[153]. وقبورهم مسنّمة[154] ويمشون خلف الجنائز ويسلّون الميّت ويخرجون الى المقابر لختم القرآن ثلاثة أيّام اذا مات ميّت. ولا يقوّرون الطيالسة. ولأجلّة البزّازين حمر مصريّة يسروح ولا يركب به (الاقليسم) الخيل الا أمير أو رئيس. ولا يتدرّع[155] الا أهل القرى والكتبة ولباس القرياتيين[156] برستاق أيليا ونابلس كساء واحد حسب بلا سراويل ...

ومن العجائب بأيليا مغارة بظاهر البلد عظيمة . . . وانها مقاطع للحجارة وفيها طرق يدخل اليها بمشاعل. وبين فلسطين والحجاز التي رمي بها قوم لوط على طريق الحجّاج مخطّطة صغار وكبار وبطبريّة عين تغلى تعم أكثر حمّامات البلد وقد شقّ الى كل حمّام منها نهر فبخاره بحمّى البيوت فلا يحتاج الى وقيد وفي هذه الكورة ماء مسخّن يسمّى الحمّة حارّ. من اغتسل فيه ثلاثة أيّام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب أو قروح أو ناسور[157] أو أي علّة تكون برأ باذن الله . . .».

(152) لدّ : مدينة قديمة قرب يافا (تل أبيب اليوم) والعيد هو عيد القدّيس جورج La fête de Saint Georges.

(153) نعال تشدّ الى الرجل بحزام واحد.

(154) على كل قبر سنام وسنم القبر : ضد سطّحه.

(155) تدرّع : ليس درّاعة : جبّة مشقوقة المقدّم.

(156) كلمة محلّية خاصة بالشام تعنى سكّان القرى.

(157) الناسور : كلمة سريانية معرّبة. علّة تكون في المآقى وحوالي المقعدة.



النظم والمؤسسات الإسلامية



مؤسسة الخلافة

تنبيه :

إنّ دراسة مؤسسة الخلافة دراسة شاملة لا يمكن ان تكون مفصولة عن نوعين من الدراسات .

- دراسات تاريخيّة تتجاوز الاخبار عن الخلفاء وسيرهم لتنفذ إلى الأسباب العميقة (السياسيّة والاقتصاديّة والإجتماعيّة) التي تفسر مختلف أطوار هذه المؤسّسة منذ نشأتها إلى زوالها .

- دراسات في الفكر السياسي تسعى إلى إجلاء فلسفة الفكر كما مورس في الواقع التاريخي ولا تكتفي بترديد مقالات القدامى لأنّ هذه المقالات ترتبط غالبا بالصراع على الحكم إثر " الفتنة الكبرى " وترمي عند السنيّين إلى إثبات شرعيّة النظام القائم وعند الشيعة إلى إثبات أوليّة عليّ وولده بالحكم وعند الخوارج إلى تبرير خروجهم على عليّ وثوراتهم على الأمويين والعباسيين .

وما أنجز من أعمال في هذين الميدانين وبالخصوص في الميدان الأوّل يمكّن في نظرنا إلى حد الآن من دراسة مؤسسة الخلافة دراسة شافية ولهذا ولضيق المقام أيضا سنعرض المسألة في خطوطها الكبرى. وحتّى يكون العرض واضحا

رأينا تقسيمها إلى قسمين كبيرين نهتم في الأول بتاريخ المؤسسة وفي الثاني ببعض النقاط المتصلة بمسألة الحكم والتي نعتبرها عين الاشكالية .

تاريخ المؤسسة :

نشأ بعد الهجرة إلى يثرب (المدينة) سنة 622 مجتمع إسلامي تحت قيادة الرسول الذي كان يحكم بين المتنازعين منهم ويقودهم في الحرب ويقسّم بينهم الغنائم والفيء [1] استنتج بعضهم أن هذا الجانب من سيرة الرسول عمل حكومي ومظهر للدولة [2] ورأى غيرهم أنّه " لم يكن سوى وسيلة تثبيتا للدين وتأييدا للدّعوة " [3] وأنّ ولاية الرسول على المسلمين " ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم " [4]. والرأي عندنا أنّ الرسول قام فعلا ببعض مهمّات الرئاسة ولكنّ سلطته كانت روحيّة دينيّة أكثر منها دنيويّة حكوميّة وأنّ الحديث عن دولة الرسول ينفيه الواقع التّاريخي إذ لو كان الأمر كذلك لتحَدّد في عهد الرسول نظام الحكم ولظهرت مؤسسات تثبت قيام دولته لأنّ الدولة لا يمكن أن تكون بدون مؤسسات والمؤسسة الأولى في تاريخ الإسلام هي مؤسسة الخلافة .

1ـ الخلافة من نشأتها إلى قيام الدولة الأمويّة

ظهرت مؤسسة الخلافة لمّا تولّى أبو بكر أمر المسلمين بعد وفاة الرسول فسمّي " خليفة رسول الله " [وهذ العبارة تعني الأمير القائم على المسلمين خلفا للرسول بحكم الواقع لا بمقتضى الشرع] وقد استعملت للخلفاء الراشدين

---

(1) الغنيمة : ما ظفر به المسلمون من الكفّار على وجه الغلبة والقهر وتشمل الاسرى والسباء (النساء والأطفال) والأراضي والأموال . والفيء ما أصابه المسلمون من مال عفوا دون قتال .

(2) صبحي الصالح . النظم الإسلامية من دار العلم للملايين بيروت 1989 (الطبعة السابعة) ص 338 .

(3) علي عبد الرازق ، الاسلام وأصول الحكم بيروت 1972 ص ص 166 ـ 167

(4) نفس المرجع .

(أبي بكر ، عمر ، عثمان وعلي) دون غيرهم لأسباب سنذكرها بعد حين .

كيف تمّ تعيين أبي بكر وبيعته :

في اليوم الذي توفي فيه النبيّ أي يوم الأثنين لاِثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة للهجرة / 632 م اجتمع نفر من الصحابة [5] بسقيفة بني ساعدة بالمدينة لتعيين من سيخلفه فاشتدّ النزاع بين المهاجرين والأنصار . لقد رشّح الأنصار سيّد الخزرج [6] سعد بن عبادة فاعترض على هذا الترشيح المهاجرون لأنهم كانوا يرون أنّهم أولى بالخلافة [7] فاقترح الأنصار أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ولكن المهاجرين رفضوا هذا الاقتراح وجاء في المصادر السنيّة أنّ الخلاف حسم لما روى أبو بكر الحديث التالي : « الأئمة من قريش » إذ أقلع الأنصار من التفرّد بالخلافة ورجعوا عن المشاركة فيها . وتضيف هذه المصادر أن الصحابيين أبا عبيدة بن الجرّاح وعمر بن الخطاب بادرا إلى مبايعة أبي بكر فاقتدى بهما الأنصار إلا بعض الخزرجيين وأنّ الهاشميين رغم أنّهم كانوا يعتبرون أنّ الخلافة ينبغي أن تكون فيهم [8] بايعوه أيضا إلاّ نفرا منهم .

إنّ المصادر لم تخف حدّة المنازعة حول خلافة الرسول ولكنّ التفسير الذي تقدّمه في حسم النزاع غير مقنع إذ هي تعتبر نهاية الخلافة باقتناع الأنصار بالحديث الذي رواه أبو بكر وأوّل ما يستوقفنا في هذا التفسير الحديث

---

(5) تقول الرواية إنّ العبّاس (عمّ الرسول) وعليّ بن أبي طالب ونفرا من المهاجرين لم يحضروا هذا الاجتماع لأنهم كانوا مشغولين بتجهيز الرسول ودفنه .

(6) الأوس والخزرج من أصل يمني انتقلوا إلى الحجاز بعد انهيار سدّ مأرب ونزل الأوس في جنوب المدينة ونزل الخزرج في قلب المدينة .

(7) المهاجرون هم أول من دخل الإسلام فلحقهم الضيّم حتّى اضطرّوا إلى ترك ديارهم وأموالهم بمكة والهجرة إلى المدينة .

(8) تقول المصادر السنيّة إنّ العبّاس بعد دفن الرسول أقبل على أخيه علي بن ابي طالب وقال له : " ابسط يدك لنبايعك " ولكنّ عليّا تباطأ في قبول المبايعة حتّى يزيل من صدر المسلمين ما قد يداخلها من شبهة توارث النبوّة بين آل البيت .

نفسه إذ كيف يعقل أن يكون الرسول أوصى بالخلافة إلى قريش .

والحال أنّ الإسلام جاء ليحلّ رابطة الدّين محلّ العصبيّة القبليّة . لقائل أن يقول إنّ هذا الحديث مثبت في الصحيحين ولكنّ مسألة صحّة الأحاديث كما يراها بعض علماء الدّين أنفسهم [9] لا يفصل فيها بنقد السند (النقد الخارجي) لذلك نذهب إلى أنّ هذا الحديث وضع لتبرير انفراد قريش بالخلافة والرّد على الخوارج مثلا الذين كانوا يرون أنّ الخليفة يمكن أن يكون من غير قريش .

ومن جهة أخرى فإنّ هذا التفسير يسكت عن قصد أو غير قصد عن الأسباب الحقيقيّة التي مكنت قريش من فرض مرشحها لمنصب الخلافة والتي يمكن أن نحصرها في وزن قريش وسمعتها بين القبائل العربيّة آنذاك .

لقد كانت قريش أكثر القبائل تنظيما . فكان لها الملأ وهو مجلس القبيلة وكانت لها الندوة التي تفصل فيها شؤون الحرب وكذلك اللّواء الذي يعقد في الحرب دفاعا عن حوزتها . وكانت قريش أيضا أغنى القبائل العربيّة بفضل قوافلها التجاريّة [10] ولذلك كان الرسول يقود بنفسه الغزوات والسّرايا لشلّ هذه الحركة التجاريّة مصدر قوّتها ثم إن قريشا استنادا إلى قداسة الكعبة في الجاهلية كسبت سمعة بين القبائل الأخرى وزاد هذه السمعة دعما أنها كانت تقوم بالحجابة (حفظ مفاتيح الكعبة) والسدانة (خدمة الكعبة) والرفادة (إطعام الفقراء من الحجيج) والسقاية (تقديم الماء للحجيج) وقد استمرت هذه السّمعة بعد ظهور الاسلام إذ احتفظت الكعبة بقداستها بعد إخراج الأصنام منها كما احتفظت قريش بالحجابة والسدانة والسقاية [11] وأخيرا فإنّ الرسول من قريش فزاد قريشا كون الرسول منها وزنا والراجح أنها استغلت هذا

---

(9) خصّص عبد المجيد الشرفي في كتابه الاسلام والحداثة الدار التونسية للنشر 1990 فصلا (ص 93 ـ 111) لهذه المسألة استعرض فيه آراء عدد من العلماء والمفكرين ومنهم محمّد عبده ورشيد ورضا واحمد أمين .

(10) في القرآن (سورة قريش) إشارة إلى قوافل قريش التجاريّة نحو اليمن (رحلة الشتاء) والشام (رحلة الصيف) .

(11) انظر أخبار مكة للأزرقي، طبعة مكة 1965 ج ا ص 194 ـ 195 و ج 2 ص 58 ـ 59 .

المعطى أيضا في النزاع بينها وبين الأنصار وما يدّعم هذا القولة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب في أحد ردوده على الأنصار " لا ترضى العرب أن تؤمّركم والنبيّ من غيركم " [12] .

هذه هي في نظرنا العوامل التي ساعدت المهاجرين بوصفهم من قريش على الانفراد بالخلافة. أمّا اختيار أبي بكر بالذات فإنّ المصادر السنيّة تعلّله بكون الرجل أوّل السابقين إلى الاسلام من الرجال وصاحب النبيّ في الغار بشهادة القرآن [13] ووالد عائشة ورفيقه في الدعوة إلى الإسلام وهو تفسير مقصور على الجانب الذاتي لا يَسْمح بمعرفة الأسباب العميقة لهذا الاختيار على أنّ نفس هذه المصادر تشير إلى دور عمر بن الخطاب في التعيين فنتساءل : إلى أي مدى كان أبو بكر مدينا لعمر بمنصب الخليفة وهل من علاقة بين دوره في سقيفة بني ساعدة وتعيينِه من قبل أبي بكر خلفا له ؟

أخيرا وبقطع النظر عن الظروف التي وقع فيها اختيار أبي بكر فإنّ الخلافة لم تثبت له إلاّ بعد بيعة في شبه إجماع [14]. ومنذ ذلك الحين أصبحت البيعة شرطا من شروط انعقاد الخلافة والبيعة عقد بين الأمير الذي يتعهّد بالقيام بحقوق المسلمين والرعيّة التي تتعهّد بطاعته ومؤازرته. على أنّ طريقة انعقاد الخلافة تغيّرت مع الخليفتين الواليين عمر وعثمان فقد عيّن أبو بكر قبل وفاته سنة 13 هـ / 634 م عمر خليفة له ولم يبايع عمر من الصحابة إلاّ

---

(12) الرواية لابن الجوزي يوردها صبحي الصالح في كتابه النظم الاسلاميّة ص 258 (مع الاحالة) .

(13) سورة التوبة - الآية 40 - تفسير الطبري .

(14) يقول الماوردي في الأحكام السلطانيّة] ط القاهرة 1960 - ص 7] بيعة أبي بكر " انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثمّ تابعهم الناس فيها وهم : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجرّاح وأسيد بن خضير وبشير بن سعد وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم " . لكنّ مصادر أخرى تؤكد أنّ بعض الخزرجيين ونفرا من بني هاشم لم يكّن العبّاس ولا عليّ منهم قد امتنعوا عن المبايعة - انظر تاريخ الطبري - مصر 1928 - ج ا ص 215 .

الذين كانوا بالمدينة وحسب الرواية المتداولة [15] حصر عمر قبل وفاته سنة 23 هـ / 644 م الأمر في ستّة من كبار الصحابة ليختاروا واحدا من بينهم وهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوّام وسعد بن أبي وقّاص وعبد الرحمان بن عوف ووقع الاختيار على عثمان [16]. فتمّت له البيعة ومرّة أخرى ساء هذا الاختيار الهاشميين لكنّ عليّاً وجد نفسه مضطرّا لمبايعة عثمان كما بايع من قبل أبا بكر وعمر .

نلاحظ إذن أنّ الخلافة انعقدت بوجهين : أحدهما باختبار نفر من الصحابة لواحد من بينهم والثاني بتعيين من الخليفة قبل وفاته وقد أقرّ علماء الدين السنيون كلاّ من الوجهين [17] رغم اختلافهما لأنهم اعتبروا أنّ عهد الخلفاء الراشدين هو العهد الذهبي وأنّ ما حدث في هذا العهد مثال يحتذى .

بعد هذه الملاحظات في عقد الخلافة لأبي بكر وعمر وعثمان علينا أن نتساءل عن سلتطهم لم تكن هذه السلطة محددّة بصفة واضحة ودقيقة لكن يمكن أن نقول إنهّا مورست في عدة ميادين فقد واصلوا العمل الذي بدأه الرّسول في نشر الاسلام وكان النشاط العسكري وظيفة من وظائفهم فأبو بكر حارب أهل

---

(15) إنّ هذه الرواية تثير الشكّ إذ هي تقول إنّ عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤه بجامع المدينة عهد إلى الصحابة الستة المذكورين أمر تعيين من يخلفه والسؤال : هل كان له الوقت الكافي قبل وفاته حتّى يقوم بهذا ؟

(16) انسحب من مجلس االشّورَى طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ولم يشارك في تعيين عثمان إلاّ عثمان وعليّ وعبد الرحمان بن عوف ويقال إنّ هذا الأخير قام بدور كبير في هذا التعيين .

(17) الماوردي ، الأحكام السلطانيّة ، ص 6 و 7 .

الردّة [18] وفي أيامه فتحت أجزاء من الشام والعراق وفي عهد عمر فتح باقي الشام وسواد العراق وأكثر أقاليم الفرس كما فتحت مصر وتواصل الفتح في أيّام عثمان في اتّجاه المشرق والمغرب .

وفي تنظيم العلاقات الاجتماعيّة التزم الخلفاء الثلاثة بتعاليم القرآن وبسيرة الرسول لكن طرحت بعض المسائل التي لم يرد فيها نصّ صريح مثل مسألة ميراث الجدّ ومسألة الدّيات في الاسنان . فكان البتّ فيها عن طريق الاجتهاد الشخصي [19] .

وطرحت في أيّام عمر مسألة التنظيم المالي والإداري فأنشأ ديوان العطاء ومنه أصبحت الأعطيات تدفع إلى مستحقيها من القبائل العربيّة وقدّر العطاء حسب القرابة من النبي وشهود بدر والمعارك المشهورة كاليرموك والقادسيّة خلافا لأبي بكر الذي سوّى فيه بين كلّ المستحقين [20] كما أحدث ديوان الجند وجعل للمقاتلين المسجلّين في الزّمام [21] مرتّبات قارة عوضا عن الغنيمة وقد ارتبط تأسيس ديوان العطاء وديوان الجند بمسألة مداخيل الدّولة فكان لعمر الفضل في بعث خزينة الدولة (بيت المال) وفيها يجمع الأموال التي توفرّها الغنائم والخراج ومن سعة أفق عمر استفادته من النظم الرّوميّة (البيزنطيّة) والفارسيّة في البلاد المفتوحة فترك الدواوين تكتب بلغة أهلها وأبقى على العملة المتداولة ولو كانت عليها نقوش مسيحيّة أو كسرويّة .

---

(18) تجمع هذه العبارة القبائل التي خرجت فعلا عن الاسلام والتي ظهر فيه " متنبؤون " (مسيْلمة باليمامة وطليحة بقبائل بني أسد وبني غطفان بشمال المدينة والمتنبئة سجاح بقبيلة تميم قرب البحرين) وقبيلة بني حنيفة التي امتنعت فقط عن دفع الزكاة وقد أثارت محاربة بني حنيفة خلافا وتردّد الصحابة في قتالهم رغم امتناعهم عن دفع الزكاة لأنّ بني حنيفة لم يتنكروا للإسلام ولم يكفروا بعد إيمان [الماوردي ، الأحكام السلطانيّة الباب الخامس ص 57 - 58] ولكنّ أبا بكر أصرّ على قتالهم ولمّا ولي عمر أمر المسلمين أفرج عن المسجونين وعاملهم بلين .

(19) الشهرستاني - الملل والنحل - ط القاهرة ج 1 ص 18 .

(20) هذا المثال يدلّنا مرّة أخرى على أنّ إجماع الصحابة ليس حقيقة تاريخية .

(21) عمر أوّل من أحدث السجلاّت التي يرسم فيها أسماء المقاتلين .

نلاحظ ممّا تقدم أنّ سلطة الخليفة مورست في عدّة ميادين : العسكري والقضائي والمالي ونضيف أنها شملت الميدان الديني وبالتحديد الطقوس من ذلك مثلا أنّ عمر أحدث صلاة التراويح .

الفتنة الكبرى :

تفسّر المصادر اشتعال الفتنة بسلوك عثمان الذي " حمل بني أميّة على رقاب الناس " وتقدّم على ذلك أمثلة عديدة [22] منها تعيينه الكثير منهم مكان العمّال الذين ولاّهم عمر والذين كانوا من أوّل الناس إسلاما ومنها أيضا إغداقه الأموال الطائلة على ذوي قرباه من بيت المال على أنّ نفس هذه المصادر تقرّ بأنّه في عهد عثمان تواصلت الفتوحات وامتلأ بيت المال وقويت شوكة الاسلام لذلك نرى أنّ سبب اشتعال نار الفتنة لا يكمن في سلوك عثمان الذي أثار حفيظة العائلات الأرستقراطية العربية المنافسة بقدر ما يكمن في تصادم تصوّرين للحكم الأول يرى وجوب احترام المبادىء الأخلاقيّة وتقديم أوّل الناس إسلاما على غيرهم والثاني يعتبر أوّلا وبالذّات نجاعة الجهاز الحكومي .

وانتهت الفتنة [23] كما هو معروف بمقتل عثمان بالمدينة سنة 35 هـ / 656 م وبمبايعة علي بن أبي طالب فحرّضه أتباعه على عزل العمّال الذين عينّهم عثمان فأذعنوا جميعا إلا معاوية في الشام فقد طفق يحضّ الناس على الثأر للخليفة المقتول " ظلما " .

---

(22) أمر عثمان بجمع القرآن فكان المصحف المعروف بمصحف عثمان الذي لاقى معارضة وفي مقدّمتهم عبد الله بن مسعود وتقول الرواية إنّ عبد الله هذا قد احتفظ بمصحفه رغم الضايقة والتهديد .

لقد قام جدال حادّ حول شخصيّة عثمان وسلوكه بين أهل السنّة والشيعة وتقول الشيعة إنّ عثمان لم ينفّذ الحدّ في والى البصرة الوليد بن عقبة الذي خرج للناس في حالة سكر وأنّه أحدث بدعا في العبادات - انظر ابن تيميّة منهاج السنّة النبويّة القاهرة 1321 هـ ج 3 ص 173 - 186 و 190 - 195 و 198 - 207 و 204 - 206 .

(23) بدأت الفتنة بمصر ثمّ امتدّت إلى العراق ومن الذين الهبوا نارها الأشتر (بالعراق) ومحمدّ ابن أبي بكر (بمصر) - عن هذه الفتنة ومراحلها انظر طه حسين، الفتنة الكبرى .

ثم كانت معركة صفّين التي كادت تنتهي بهزيمة معاوية لولا دهاؤه فقد طلب التحكيم عملا بما جاء في القرآن [24] وإضطرّ علي إلى قبول هذا الطلب تحت ضغط جماعة من جيشه فاعترضت جماعة أخرى على التحكيم سمّيت فيما بعد بفرقة الخوارج، وهي أوّل فرقة في تاريخ الاسلام، وكانت ترى أنّ عليّا إذ " حكّم الرجال في دين الله وأوامره " كافر. وبقطع النظر عن التفكير الذي لا مبرّر له إطلاقا فإنّ موقفهم ينطوي على تصوّر للحكم مفاده أنّ الخليفة مسؤول عن أعماله يحاسب عليها وهو تصوّر من شأنه أن يحدّ من الحكم المطلق . وفي سنة 40 هـ / 661 م اغتال عبد الرحمان بن ملجم وهو من الخوارج عليّا بالكوفة فبويع الحسن بعد وفاة أبيه بيومين ولكنّه بعد ستة أشهر خلع نفسه وسلّم الأمر إلى معاوية الذي بويع في شهر ربيع الأوّل سنة 41 هـ بالكوفة ثمّ دخل الحجاز وبعدها بقليل حوّل عاصمة الخلافة إلى دمشق .

2 . الخلافة في أيّام الأمويين :

حوّل معاوية (ت سنة 60 هـ) الخلافة ملكا اذ أخذ بنفسه البيعة لابنه يزيد (ت 64 هـ) من وفود الأمصار وبنفس الطريقة كانت بيعة معاوية بن يزيد الذي دامت خلافته أربعين يوما فقط ولكن عند موت معاوية الثاني هذا طرحت مسألة الخلافة من جديد ومارس الأسياد من العرب المجتمعين بالجابية حقهم في اختيار الخليفة الجديد دون أن يحاولوا المسّ من الأمويين فعينوا مروان بن الحكم الذي بويع سنة 65 للهجرة بذلك تحوّلت الخلافة من فرع أمويّ (بني سفيان) إلى فرع أموي آخر (بني مروان) .

ومنذ أيام عبد الملك بن مروان (ت 86 هـ) جرت العادة أن يترك الخليفة وثيقة ينصّ فيها على اسم من يخلفه وتسمّى هذه الوثيقة العهد ويسمّى

(24) إنّ الله تعالى أوصى بالتحكيم في قوله " وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإنْ بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر االله فإنْ فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ االله يحبّ المقسطين " .

الشخص المعيّن وليّ العهد بصفته المستفيد من العهد بينه وبين الأمّة وأصبح العهد في انعقاد الخلافة يحتّل المرتبة الأولى قبل البيعة التي نزلت إلى المرتبة الثانية وكان الخليفة حرّا في تعيين أحد أبنائه أو أخيه أو ابن عمّه أو حتّى شخصين من عائلته ولكن حجّر عليه تعيين ابنه من أمّ ولد (المرأة غير العربيّة) ولذلك مثلا كان من المستحيل على مسلمة بن عبد الملك أن يرث الملك رغم ما قام به من عظيم الأعمال في أيّام والده .

وقد أدى هذان الاستحداثان (تحوّل الخلافة ملكا وولاية العهد) إلى قيام نزاعات وانتفاضات عديدة يطول شرحها منها ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز سنة 61 هـ (في عهد يزيد بن معاوية) التي انتهت بقتله واقتحام المدينة ونهبها ومنها أيضا ثورات الخوارج الذين استطاعوا أن يقيموا إمارة بسجستان (جنوب خراسان) على رأسها قطرى بن الفجاءة الذي تلقّب بأمير المؤمنين وصكّ النقود بإسمه مدّة عشرة أعوام (من 69 إلى 79 هـ / 688 - 699 م) على أنّ أهمّ الحركات الثوريّة هي الحركة الشيعيّة التي كانت ترى أنّ الخلافة يجب أن تكون في ولد علي بن أبي طالب [25] والحركة العبّاسيّة التي كانت ترى أنّ الخلافة يجب أن تكون في عائلة الرسول بصفة عامّة .

وأمام هذه المعارضة الشديدة التي اتّخذت أشكالا مختلفة مثل رمي الأمويين بالمجون والتخلّي عن المبادىء الاسلاميّة أو الطّعن في شرعيّة حكمهم والخروج عليهم سعى الأمويون إلى تبرير النظام الملكي الذي أقاموه وتكفّل شعراؤهم بهذه المهمّة فأرجعوا حقّ الأمويين في الحكم إلى عثمان المقتول " ظلما " وذهب بعض المدّاحين إلى أنّ أميّة تسلّموا " إرث الرّسول " وظهرت أحاديث موضوعة ينْبِئُ فيها الرسول بقيام دولتهم وانتشرت عبارة " خليفة

(25) من ثورات الشيعة العديدة نذكر خاصّة ثورة الحسين بن علي بالعراق سنة 61 هـ والتي انتهت بمصرعه بكربلاء ثمّ ثورة المختار لفائدة محمّد بن الحنفيّة (من ولد علي من غير فاطمة) بالكوفة في عهد عبد الملك مروان (ت 86 هـ) وثورة زيد بن علي بالكوفة أيضا سنة 122 هـ / 740 م .

الله " [26] التي تعني أنّ حكمهم بتفويض إلهي والتي ترمي إلى ترسيخ فكرة طاعة الخليفة طاعة غير مشروطة باسم الدّين . فالحجّاج بن يوسف في خطبة له ينعت عبد الملك بن مروان بخليفة الله في الأرض وتتكرّر عبارة " خليفة الله " في العهود (وثائق تعيين ولاة العهد) وفي الخطب التي تلقى قبل مبايعة الخليفة الجديد وقد جوّز بعض العلماء استعمال هذه العبارة بدعوى أنّ الخليفة يقوم بحقوق الله في خلقه ولكن جمهور العلماء امتنعوا من جواز ذلك لأنّهم تفطّنوا إلى ما تنطوي عليه العبارة من تحويل الخلافة إلى حكم تيوقراطي يخوّل للخليفة حقّ التشريع ويوجب الطاعة باسم الايمان فقالوا : " يستخلف من يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت " [27] ولأنّهم تفطّنوا كذلك إلى أنّ الحكم التيوقراطي من شأنه أن يحرمهم من سلطتهم المعنويّة بوصفهم المشرّعين وحفظة الدّين وممثّليه الرّسميّين .

3 ـ الخلافة العبّاسيّة إلى أواخر القرن الثالث :

نشطت الدّعوة العبّاسيّة (نسبة إلى العبّاس عمّ الرّسول) في أيّام عمر بن عبد العزيز لّما أرسل محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس المجموعة الأولى من الدّعاة إلى خراسان حوالي سنة 102 هـ / 718 م، وازدادت نشاطا في أيّام الخليفة مروان بن محمّد (ت 132 هـ) مع أبي سلامة وأبي مسلم الخرساني. فكانت الدّعوة باسم الهاشميين أيْ كلّ عائلة الرّسول : ولد أبي طالب والعبّاس وانطلقت الثورة من هراة (بايران) وانتهت بالقضاء على الدّولة

---

(26) وردت كلمة خليفة في القرآن مرّتين الأولى في شأن آدم " وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الارض خليفة ، (السورة 2 ـ الآية 28) والثانية في حقّ داود " يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فيُظلّك عن سبيل اللّه " (السورة 38 ـ الآية 25) فاستغلت الآيتان لتبرير الحكم التيوقراطي (أي المستمدّ من آله) والمعبّر عنه بخليفة الله والحال أنّ المقصود من ذكر آدم الجنس البشري كلّه (انظر تفسير الزمخشري وكذلك تفسير الرّازي) وأنّ داود لم يكن ملكا فقط بل كان كذلك نبيّا .

(27) الماوردي ، الأحكام السلطانيّة الطبعة المذكورة ص 15 .

الأمويّة سنة 132 هـ / 750 م وبويع أوّل خليفة عبّاسي (أبو العبّاس السّفّاح) في شهر ربيع الثاني 132 هـ بالكوفة .

لكن لئن تمكّن العبّاسيون من الاستيلاء على الحكم فإنّ دعوتهم باسم الهاشميين جميعا كانت تحمل في حدّ ذاتها بذور الشقاق بينهم وبين الشيعة الذين كانوا يرون أنّ الخلافة يجب أن تكون في ولد عليّ. ولذلك سعى الخلفاء العبّاسيون إلى إثبات شرعيّة حكمهم ففي أوّل الأمر كانت حجّتهم أنّهم من عائلة الرّسول. ولكن هذه الحجّة غير كافية لأنّ ولد عليّ أيضا من عائلة الرسول فأتى الخليفة الثاني المنصور (ت 158 هـ) بحجّة أخرى مستمدّة من أحكام الإرث وهي أن الذكور من سلالة العبّاس أولى من " أبناء البنت " فاطمة أي الذكور من ولد الحسن والحسين وفي أيّام المهدي (ت 169 هـ) الخليفة الثالث ظهرت أحاديث موضوعة تزعم أنّ الرّسول أوصى بالخلافة إلى عمّه العبّاس فأطنب شعراء البلاط في إبراز مناقبه ولما يئس الشيعة من بلوغ هدفهم بالطرق السلميّة قاموا بثورات عديدة منها ثورةقادها اخوان من ولد الحسن بن أبي طالب بالمدينة وبالبصرة سنة 145 هـ وقتلا فيها .

وكاد المأمون (ت 218 هـ) أن يحوّل الخلافة من بني العبّاس إلي ولد علي بن أبي طالب لما عزم على تعيين على الرضا (الإمام التاس ت 202 هـ) خلفا له سنة 201 / 817 وكان يقصد من وراء هذا تطبيق ما جاء في الدّعوة العباسيّة عند انطلاقها والتّمكين من اختيار الخليفة من ولد علي بن أبي طالب أو من ولد العبّاس حتّى يضع حدّا للخلاف بين الفرعين فعظم هذا الموقف على أهل العراق عامّة وعلى العبّاسيين خاصّة لزوال الملك عنهم فاضطر المأمون إلي التخلّي عن رأيه ممّا أدّي إلى القطيعة نهائيّا بين العباسيين والشيعة وإلى قيام ثورات عديدة كالتي وقعت باليمن سنة 207 هـ / 882 أو التي اندلعت بخراسان سنة 209 هـ / 834 م .

ونبقى في المسألة الشرعيّة لنضيف أنّ العبّاسيين أوهموا الناس أنّ سلطتهم مستمدة من الدّين شأنهم في هذا شأن الأمويين وتقول بعض الروايات إنّ المنصور نعت نفسه بسلطان الله في أرضه ثمّ إنّ الألقاب التي إتخذها الخلفاء

العبّاسيون تعبّر هي نفسها عن حرصهم على إبراز طابع حكمهم التيوقراطي فالمنصور منصور بالله والمهدي هداه الله . والألقاب الأخرى مثل الأمين والمأمون والواثق وإن هي تلحّ خاصّة على التقوى تبرز أيضا الصلة بين الخليفة وبين الله الذي منه يستمدّ سلطته ، وأخيرا لم ير الخلفاء العباسيون منذ أيّام المأمون حرجا في أن يدعى الواحد منهم بالإمام [28] وكانوا في ما قبل يحترزون من هذا اللقب لغلبة الطابع الشيعي عليه .

وأمّا طريقة انعقاد الخلافة فقد كانت بعهد الخليفة من قبل فكان يختار عادة واحدا من أبنائه سواء أكان هذا الابن من أمّ عربيّة أم من أمّ ولد [29] شريطة أن يكون المعيّن بلغ سنّ الرشد ولم تحدّد هذه السنّ بصفة نهائية إلاّ سنة 296 هـ / 908 م لمّا عيّن المقتدر وعمره ثلاث عشرة سنة . وكان بإمكان الخليفة أيضا مثلما هو الشأن عند الأمويين تعيين فرد من عائلته غير ابنه أو إسناد ولاية العهد إلى أكثر من واحد وهذا ما حصل فعلا مع هارون الرشيد الذي أمر بتعليق العهد بالكعبة سنة 186 هـ / 802 م وفيه ينصّ على تقسيم ملكه بين الأمين والمأمون وعلى حقوق كلّ منهما وواجباته نحو الأخر وكذلك مع المتوكل الذي أسند ولاية العهد إلى بنيه الثلاثة : المنتصر وأبي عبد الله المعتز وابراهيم المؤيد .

وقد أثار تعيين شخصين نزاعات تصل إلى حدّ القتال مثل ما حدث بين الأمين والمأمون أو على الأقل إلى فسخ العهد ذلك أنّ الخليفة الجديد ما إن يرتقي العرش حتى يسعى غالبا إلى فسخ العهد ليحلّ ابنه محلّ وليّ العهد

(28) يفضّل الفقهاء استعمال كلمة إمام وإمامة لما في الكلمتين من شحنة دينيّة واصطلحوا على تسمية إمامة الصّلاة بالإمامة الصغرى تمييزا لها عن الإمامة الكبرى التي لا تكون إلا لرئيس المسلمين الأعلى . أمّا الشيعة فهم يستعملون كلمة إمام لأنّ رئيس المسلمين عندهم هو أوّلا وبالذات رئيس دينّي (انظر الصفحات الموالية ، باب الخلافة الفاطميّة) .

(29) هذا خلافا لما قلناه عن ولاية العهد عند الأمويين .

الثاني الذي عيّنه الخليفة السابق. ولمّا كانت تنقصه الوسائل القانونيّة لبلوغ هدفه يعمد إلى أشكال مختلفة من الضّغط حتّى يجبر وليّ العهد الثاني على التخلّي عن حقّه .

ومن المشاكل المرتبطة بولاية العهد أيضا موت الخليفة دون أن يعيّن وليّ العهد. فعند موت الواثق اجتمع مجلس مضيّق ضمّ قاضي القضاة والوزير ونفرا من قوّاد الجيش وعيّنوا المتوكّل (ت 247 هـ / 861 م) ولمّا مرض المكتفي سنة 296 هـ / 908 م قام بتعيين الخليفة الجديد المقتدر (320 هـ / 932 م) والوزير ورؤساء الدواوين وهذان المثالان يدلّان على أنّ تركيبة المجلس المضيّق لم تكن تخضع لقاعدة مضبوطة ينصّ عليها القانون وأنّها تغيّرت حسب الظروف .

سلطة الخليفة العباسي من القرن الثاني إلى عهد الأمراء :

- الخليفة هو الإمام الأوّل يؤمّ الناس في صلاة الجمعة بجامع من جوامع العاصمة لكن في آخر القرن الثالث نوّب من يقوم عنه بهذه المهمّة في كلّ جوامع العاصمة فكان لا يؤمّ الناس إلاّ بجامع قصره .

- والخليفة هو حافظ الدّين " على أصوله المستقرّة وما أجمع عليه سلف الأمّة [30]. وبصفته هذه كان من واجبه مقاومة البدع وردع أصحابها . عبارة الحفاظ على الدّين تعني أنه لا يدخل في مسألة أصول الدّين والتأويل ولكن الواقع التاريخي يثبت أنّ بعض الخلفاء تدخّلوا في هذه المسألة ومنهم مثلا المأمون الذي جعل من الاعتزال المذهب الرسمي . وعبارة أصول الدّين تعني أساسا القرآن والسنّة وأمّا بقيّة الجملة " وما أجمع عليه سلف الأمّة " فالمراد بها إجماع الصحابة أوّلا وبالذات وليس في نيّتنا هنا عرض كلّ المشاكل التي تثيرها قولة الماوردي والتي تتعلّق بجمع القرآن وتأويله وبتدوين السنّة ونصيب الصحيح منها والموضوع وبالإجماع الذي هو أصل نظري أكثر ممّا كان حقيقة

(30) العبارة للماوردي ، الأحكام السلطانيّة ـ الطبعة المذكورة ص 15 .

تاريخيّة منذ عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم [31] وإنّما نريد فقط أن نقف عند عبارة البدعة فهذه الكلمة من معانيها المخالفة في فهم القرآن المألوف وإعادة النظر في السنّة. والسؤال الأوّل الذي يتبادر إلى الذهن هو : ما هي السلطة التي كانت تحدّد الإيمان القويم والفهم الصحيح " وتُشّهر بالمخالفين وترميهم بالزندقة ؟ إنّها سلطة علماء الدّين (الفقهاء والمتكلّمين والمفسّرين والمحدثين) الذي اعتبروا أنّ آراءهم ومقالاتهم هي السبيل الوحيد لمعرفة الحقيقة . والسؤال الثاني : لماذا كان الحكام يقفون إلى جانبهم في الحملات ضدّ المخالفين ؟ لقد كان بين نخبة النفوذ (الحكام) ونخبة المعرفة (علماء الدّين) تضامن عضويّ فالحكام كانوا في حاجة إلى علماء الدّين لصبغ سلطتهم بصبغة الشرعية الدينيّة [32] وعلماء الدّين كانوا في حاجة إلى الحكام لأنّ هؤلاء يضمنون لهم وضعهم الاجتماعي ومكاسبهم الماديّة والمعنويّة .

- الخليفة هو المشرف على الشؤون السياسيّة والماليّة يعيّن الوزير والولاة والعمّال المكلفين بجمع الجباية ويراقب مداخيل بيت المال والمصاريف المتكوّنة أساسا من أجور الموظفين والجند والنشات من أجل المصلحة العامة .

- الخليفة هو المسؤول عن سير القضاء وتنفيذ الأحكام ولكنّه لا يتدخّل في سنّها لأنّ سنّ الأحكام من مشمولات الفقهاء . فكان يُعيّن القضاة [33] ويفصل في حالات الطعن في حكمهم كما كان يترأس ديوان المظالم وهو ديوان ينظر في كل " حكم يَعجز عنه القاضي " كأن يكون النزاع بين ممثلي الادارة (الوالي أو العامل مثلا) والرّجل من العامّة على أنّ الخلفاء بصفة عامّة عينوا نوابا عنهم للإشراف على هذا الديوان .

---

(31) لقد أتينا بشواهد على هذا في الصفحات السابقة .

(32) اعتبر علماء الدين أنّ الخلافة واجبة شرعا . سنعود إلى هذه النقطة في القسم الكبير الثاني من هذا العرض .

(33) سنعود إلى مؤسسة القضاء في صفحات لاحقة .

ـ الخليفة هو حامي المملكة من هجومات الأعداء وعليه الخروج بنفسه للجهاد وهذا ما فعله مثلا الرشيد والمأمون ولكن بعد المأمون جرت العادة أن يعيّن الخليفة من ينوبه في هذه المهمّة .

ـ الخليفة هو حافظ الأمن داخل المملكة .

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ سلطة الخليفة كانت تشمل ميادين عديدة ولكن نظرا إلى تعدّد المسؤوليات تخلّى عن التسيير المباشر ويتّضح هذا خاصة عندما أصبحت خطة الوزير خطة قارّة (34) فكان الخليفة يوكل إليه تسيير شؤون الدّولة طبقا لسياسة وافق عليها .

ـ علامات السّلطة :

اتّخذ العباسيون اللّون الأسود لونا رسميّا (35). وبذلك خالفوا الأمويين الذي كان عندهم اللون الأبيض اللون الرسمي وظهرت علامات جديدة عند جلوس الخليفة للناس أو خروجه من القصر فكان إذا جلس للناس يلبس بردة يقال إنّها بردة الرّسول وبيده قضيب وعلى رأسه قلنسوة وكان استقبال الزائرين والوفود الرّسميّة يخضع لترتيب دقيق يفرض عليهم فيما يفرض من علامات الاحترام تقبيل الأرض أو تقبيل يده وإذا خرج من القصر سار أمامه صاحب الشرطة وبيده حربة هي في آن واحد رمز السّلطة وتذكير بسنة الرّسول وما يمكن ملاحظته في هذه العلامات هو الجمع بين الاقتداء بالسنّة وتبنّي عادات عجميّة (القلنسوة ـ تقبيل الأرض ـ تقبيل اليد) .

---

(34) نشأت هذه الخطة في أيّام العبّاسيين ولكنّها لم تكن قارّة في أوّل الأمر سنفصّل القول في هذه الخطّة في صفحات لاحقة .

(35) اختير هذا اللون لأنّ الرسول لّما فتح مكة كان يلبس ثوبا أسود .

4 ـ الخلافة من القرن الرابع إلى سقوطهـــا ببغـداد (656 هـ / 1258) :

بدأ عهد الأمـراء سنة 326 هـ لما فـوّض الخليفة مكرها سلطته إلى القـائد العسكرى [36] ابن رائق الذي سمّي " أمير الأمـراء " ومنذ هذا التـاريخ انقطع الخليـفـة عن الإشـــــراف على شـؤون الدولة وحتّى عن مـراقـبة من يتـولّون تسييرها. فبعد دخـول البويهيّين [37] بغـداد سنة 334 هـ تعاقب على الحكم الأمـراء منهم دون أن يكون للخليـفـة أيّ دخل في اختيـارهم. فكان يعـقـد لكلّ أمير جديد عن اضطرار [38] ويفـوّض له تدبير شـؤون الدّولة وقد احـتـفظ ـ نظريّا على الأقلّ ـ بحقّ تعـيين أعـوان الدّولة واسـتطاع أن يمارس هـذا الحقّ في حـالات قليلة جدّا منهـا أنّ الأمير البـويهي بهـاء الدّولة [39] (ت 403 هـ / 1012 م) اختار سنة 394 هـ أبا أحمـد الموسوي (من ولد الحسين) ليكون أمير الحجّ والمشرف على ديوان المظالم ونقيب (أي رئيس) العلويهين وقاضي القضاة ولكن الخليفـة المقتدر اعترض على تولية أحمـد هذا منصب قاضي القضاة رغم ضغط الأمير وعيّن شخصا آخر ومن هذا المثال يمكن أن نستنتج أمـرين : الأوّل هو أنّ سلطة الخليفة فـي ميدان القضـاء لم تزل قـائمة والثـاني أنّ الأمير البـويهي كان يتـدّخل في الشـؤون الدينيّة . ولعلّ أوضح مثـال للتـدليل على هذا

---

(36) بدا تدخّل القـوّاد العـسكريين وأغلبهم من العـجم في شـؤون الدّولة منذ النصف الثـاني من القرن الثـالث فكثر الشـغب وتعدّدت الدّســـائس وتكرّر خلع الخلفـــــــــاء أو قتلهم : خلع المستعين (252 هـ) والمعـتـز (255 هـ) وقل المهـتـدي (256 هـ) وخلع المقـتـدر (296 هـ) والقاهر (322 هـ 9 .

(37) البـويهيـون مـرتزقة من الدّيلم استـغلّوا ضعف الخلافة وانقسـام المملكة لبسط نفوذهم على جزء كبير من إيران ثمّ دخلوا بغـداد فـالت إليهم السّلطة الفعلّية ودام حكمهم بها من 334 هـ إلى سنة 447 هـ .

(38) يسمّى الماوردي هذا النوع من الإمارة إمارة استيلاء انظر الأحكام السلطانيّة البـاب الثـالث ص 30 وما بعدها .

(39) كلّ أمـراء بني بويه يحملون لقبا فيه كلمـة دولة : معـزّ الدولة ، ركن الدولـــــة ، عـضد الدولة ...

التدخّل أنّ الأمير معز الدولة (ت 356 هـ) أمر بأن يحتفل بصفة رسميّة بيوم غدير خم (18 ذو الحجّة) وبيوم عاشوراء (10 محرّم) وهما عيدان شيعيّان .

ـ علاقة الخلفاء بالأمراء البويهيّين :

تواصل الاستخفاف بالخليفة في أيّام بني بويه فأحمد بن بويه (معز الدّولة) بعد دخوله بغداد (334 هـ) والحصول من المستكفي على التفويض الذي به اكتسب الشرعيّة أمر بسمل عيْنَيْ الخليفة حتّى يصبح قاصرا عن أداء وظيفته لأنّ ذهاب البصر يمنع من الخلافة [40] وعوّضه بالمطيع الذي خلع فيما بعد وتكرّرت ظاهرة الخلع فكان الأمير البويهي إذا عزم على تعويض الخليفة بغيره من العبّاسيين يجمع لهذا الغرض مجلسا مضيّقا يضمّ كبار الدّولة وبعض الفقهاء وأفراد من العائلات العبّاسيّة والعلويّة فيتمّ له ما أراد لأنّ رأيه هو الرّأي الحاسم . والمقصود من عمليّة الخلع بث الرّعب في قلوب الخلفاء وحملهم على الطاعة في كلّ ما يريده الأمراء على أنّ هذه العمليّة لم تمكنهم دوما من تحقيق هذه الغاية بل ظهرت من بعض الخلفاء محاولة للوقوف في وجه البويهيين واسترجاع نفوذهم منهم ففي قصر الخليفة القادر تليت سنة 409 هـ / 1019 م وثيقة تعرف بالقادريّة تنصّ على أنّ مذهب الدّولة الرّسمي هو المذهب السنّي الحنبلي [41] وتشجب الاعتزال والتشيّع وقراءة هذه الوثيقة في حفل بهيج تعبير عن معارضة الخليفة لسياسة البويهيّين وعن نيّته في استرجاع سلطته . وقد شجّع القادر على اتّخاذ هذا الموقف رسائل

(40) يفصّل الماوردي الكلام [الأحكام السلطانيّة ص 17 وما بعد] في ما يخرج بالخليفة عن الإمامة ويقسّم الموانع إلى قسمين كبيرين : الجرح في عدالة الخليفة والنقص في بدنه ويدرج في النقص في البدن زوال العقل وذهاب البصر .

(41) يغلب على القادريّة الطابع الحنبلي لأنّ الحنابلة في القرن الرابع كانوا قوّة هامّة ببغداد .

أحمد بن سبكتكين [42] التي أكد فيها صاحبها تعلقّة بالمذهب السنّي وحرصه على الدّفاع عن الخلافة العباسيّة وتمت قراءة القادريّة مرّة أخرى سنة 433 / 1042 في أيّام القائم الذي استغلّ تناحر البُويهيين ليعلن بنفس الطريقة عن معارضته لسياستهم وكان يعاضده في موقفه هذا أهل السنة ببغداد ومنهم القاضي الشافعي الماوردي (ت 450 / 1058) صاحب الأحكام السلطانيّة .

- علاقة الخلفاء بالسلاطين السّلجوقيّين [43]

لم يتغيّر وضع الخليفة في أيّام السّلاجقة عمّا كان عليه في فترة البويهيّين. فكان السلطان [44] هو المسيّر لشؤون الدولة بتفويض من الخليفة المغلوب على أمره وبات تعيين الخلفاء من مشمولات السلاطين وحدهم . وهذا التفويض يشمل المشرق والمغرب ويظهر هذا في تسمية تغريل بك أوّل سلطان سلجوقي بملك المشرق والمغرب .

ولئن كان السلاجقة سنيّين فإن مذهبهم الذي هو مزيج من مقالات الشافعي مقالات الأشعري يختلف عن مذهب ابن حنبل الذي كان يتمسّك به الخلفاء. وهذا الاختلاف دينيّ سياسيّ [45] ويدلّ على ذلك أنّ وزير السّلاجقة

---

(42) هو مؤسس الدّولة الغزنويّة بأفغانستان والسند (باكستان اليوم) ودامت هذه الدّولة من 351 هـ / 902 م إلى 582 هـ / 1186 م) .

(43) دخل السّلجوفيون وهم من الاتراك ـ بغداد سنة 447 هـ وحلّوا محلّ البويهيين .

(44) لعلّ الغرض من اختيار هذا اللقب التأكيد على أنّ الأمراء السّلاجقة هم وحدهم الذين فوّض لهم الخلفاء سلطتهم كاملة .

(45) كان الصّراع حادّا بين الحنابلة والأشعريين ويمكن في شيء من التّبسيط أن نرجع سبب الصّراع العقائدي إلى أنّ ابن حنبل (ت 241 / 855) كان يدعو إلى التمسّك بحرفيّة النصّ القرآني ويرفض التأويل وإلى التقيّد بالسّنة كما أنّه كان ينقد نقدا شديدا علم الكلام أمّا الأشعري (ت حوالي 324 / 935) فكان يدافع عن شرعيّة علم الكلام والتأويل ولا يلجأ في مقالاته إلى السّنة إلاّ في حالات قليلة .

المشهور نظام الملك (485 / 1092) أسس ببغداد سنة 469 هـ 1067م المدرسة النظاميّة [46] لدعم الاتجاه الأشعري وتكوين الطلبة تكوينا يجعل منهم موظفين مخلصين للسلاجقة .

ورغم الظروف الصعبة فإنّ الخلفاء لم ينفكوا يسعون لاسترجاع سلطتهم يؤازرهم في سعيهم الحنابلة خاصّة . ففي سنة 460 / 1067 ـ 1068 عزل الخليفة القائم وزيرًا كان لعبة بيد السلطان ... ألب أرسلان وفي سنة 485 / 1092 تمكن الخليفة المسترشد من تكوين جيش ولكنّ هذا الجيش لم يكن من القوّة ليصمد أمام جيش السلطان مسعود فوقع المسترشد في الأسر وفي سنة 547 / 1152 وفّق المقتفي في بسط نفوذه على العراق بعد أن أطرد ممثل السلطان من بغداد وتخلّص من المرتزقة الأتراك والفرس وعوّضهم بمماليك يونانيين وأرمنّيين وقد أعانه على كلّ هذا وزيره ابن هبيرة . فهذا الفقيه الحنبلي كرّس كلّ جهوده لإعادة الاعتبار للخلافة وتخليصها من قبضة السلاجقة وكان في نشاطه السياسي ومؤلفاته يسعى إلى توحيد الملّة حول عقيدة السلف الصالح ولذلك عامل المذاهب السنيّة على قدم المساواة وحاول جلب العناصر غير المتطرّفة من الشيعة .

وواصل الخليفة الناصر (ت 622 / 1225) سياسة ابن هبيرة ولكن باستعمال وسائل أخرى . كان هدفه توحيد الأمّة حول شخصه بوصفه خليفة رسول الله وإمام المسلمين المتضلّع في علوم الدّين ولبلوغ هذا الهدف أعاد تنظيم الفتوّة لصالحه وجعل منها مجموعات منظمة تنظيما تراتبيّا بين كلّ المنخرطين فيها وبينه عقد البيعة ومثل أعلى مشترك في التعاون الأخوي والصفاء الأخلاقي وهذا التنظيم لا يقتصر على مذهب دون آخر ولا على فرقة دون أخرى أو تيّار دينّي على آخر بل هو جامع لها كلها يضّم أهل السنّة والشيعة والمتصوّفين .

---

(46) أسسّت مدارس أخرى تحمل نفس الاسم بالمشرق في عهد السلاجقة مثل المدرسة النظاميّة بشيراز .

وإستطاع الناصر إخضاع بعض طغرل الأمراء المحليّين بإيران وشمال العراق [47] ثم التخلص سنة 590 / 1194 من بك الثاني (آخر السلاطين السلجوقيين بالعراق) ولكن مؤسسة الخلافة بقيت هشّة لسببين اثنين الأوّل هو أنّ التصالح بين أهل السنّة والشيعة لم يحصل والثاني كثرة الأمراء المستبدين بإماراتهم .

وأخيرا فإنّ الناصر في صراعه ضدّ السلاجقة استعان بالماغول فأتاح لهم الفرصة للتدخل في شؤون المسلمين ولم يمّر زمن طويل حتى دخلوا بغداد وقتلوا آخر خليفة بها (المستعصم) في صفر 656 / فيفري 1258 وبذلك زالت الخلافة العباسيّة ببغداد وكان لزوالها أثر عميق في نفوس المسلمين رغم ما أصابها من وهن ذلك لأنّ الخليفة وإن فقد سلطته كان رمز الوحدة ومصدر الشرعيّة فالأمراء والسلاطين في العالم الاسلامي وفي مختلف العصور [48] كانوا حريصين على اكتساب الشرعيّة من الخليفة ولا يتّم لهم ذلك إلاّ بالحصول على تفويض منه [49]. وقبل أن نواصل الحديث عن آمال الخلافة العباسيّة بعد قتل الخليفة المستعصم لا بدّ لنا من أن نتعرّض إلى الخلافة الأمويّة بالأندلس والخلافة بافريقيّة والخلافة الموحّديّة بالمغرب .

ـ الخلافة الأمويّة بالأندلس :

عرفت الأندلس ثلاث مراحل في تاريخها السياسي : عهد الولاّة (94 ـ 138 هـ) وعهد الأمراء (138 ـ 300هـ) وعهد الخلفاء (300 ـ 422 هـ) .

---

(47) إمارات تركيّة صغيرة والخضوع يتمثّل في الحصول على البيعة .

(48) باستثناء الأمويين بالأندلس ابتداء من عهد عبد الرحمان الثالث والفاطميّن والموحّدين وبعض الأمراء بالمشرق .

(49) نسوق في هذا المجال مثالين : مثال صلاح الدّين الأيوبي الذي حصل على تفويض من الخليفة سنة 576 / 1181 ومثال يوسف بن تشفين مؤسس الدّولة المرابطيّة الذي اللّقب بأمير المسلمين ولكنّه حرص على أن يحصل على موافقة الخليفة العبّاسي في اتخاذ هذا اللهقب .

كان الأمراء الأمويّين لا يعترفون بسلطة الخليفة العبّاسي ولكنّهم لم يمنعوا ذكر اسمه في خطبة الجمعة وذلك إلى سنة 316 / 928 وهي السّنة التي اتّخذ فيها عبد الرّحمان الثالث لقب أمير المؤمنين وكان غرضه من إتخاذ هذا اللقب الإعلان عن أنّه هو الخليفة. وقد دعاه إلى اتّخاذ هذا الموقف ضعف الخلافة العباسيّة وظهور الخلافة الفاطميّة الشيعيّة بافريقيّة التي كانت تهدّد مملكته فعزم على أن يُقَاومها سياسيّا وعسكريّا فيكون حربة السنّة وزعيمها .

وقد أقام الأمويّون بالأندلس شرعيّة حكمهم على الوراثة بوصفهم من سلالة خلفاء بني أميّة بالمشرق ورثوا الشرعيّة عن عثمان بن عفّان ويذهب آبن بسّام في الذخيرة إلى أنّ الخلفاء الأمويّين من أهل الرّسول لكونهم من قريش ولتأكيد تواصل الخلافة الأمويّة اتّخذ الخلفاء الأندلسيون من اللّون الأبيض اللّون الرّسمّي .

والخلافة عندهم إرث يرثه الابن عن والده مهما كان سنّهُ وهي تنعقد بالبيعة والخليفة الذي عادة ما تطلق عليه عبارة خليفة اللّه يباشر بنفسه شؤون الدّولة ولكن في النصف الثاني من القرن الرابع تغيّر الوضع إذ فوّض هشام الثاني (ت 370 هـ) أمر التسيير إلى الحاجب (ومعنى الكلمة في الأندلس الوزير) محمّد بن أبي عامر الملقّب بالمنصور الذي حكم الأندلس من 370 إلى 392 هـ وعند موته خلفه ابنه الذي توفي سنة 399 هـ . وهذه الظاهرة تشبه إلى حدّ بعيد ما حدث في المشرق من استبداد الأمراء بالحكم مع الفرق أنّها تواصلت في المشرق إلى سنة 656 هـ في حين أنّها لم تدم طويلا في الأندلس لأنّ الخلافة الأمويّة زالت سنة 422 / 1031 في خضمّ الصّراعات بين الأمراء الأمويين أنفسهم من جهة وبين أبناء محمّد بن أبي عامر من جهة أخرى وبين هؤلاء وأولائك .

. الخلافة الموحّديّة (من 526 / 1132 إلـى 668 /1269 م) :

في المغرب اتّخذ عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس الدّولة الموحّديّة الفعلي لقب أمير المؤمنين حوالي سنة 526 / 1132. وكان قصده من اتخاذ هذا اللقب التعبير عن عزمه على إحياء مؤسسة الخلافة المنهارة وتوحيد الأمّة حول عقيدة المهدي ابن تومرت (ت 524 / 1130) وهذه العقيدة كما توضّحها مؤلفات ابن تومرت " العقيدة " و " المرشدة الأولى " و " المرشدة الثانية " خليط من مقالات مختلفة منها ما هي سنّيّة ومنها ما هي اعتزاليّة ومنها ما هي شيعيّة . ففي باب الإلهيات يرى ابن تومرت أن صفات اللّه لا يمكن أن توجد مفصولة عن الذّات وهو في هذا الرّأي يتبنّى رأي المعتزلة في التوحيد . ومن جهة أخرى يدعو ابن تومرت إلى الرّجوع إلى القرآن والسنّة والإجماع أي إجماع الصحابة ولكنّه يرفض التقليد أي التقيّد بأيّ مذهب سنّي (مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل وغيرها من المذاهب) وأخيرا يرى وجوب التأويل (تأويل القرآن) ولكنّه يقصر عمليّة التأويل على المهدي وقد اعتبر أنّه هو المهدي وأنّه معصوم من الخطأ وفي هذا الموقف يتّضح تأثره بأقوال الشيعة في الإمامة . ولئن كان ابن تومرت مؤسس الدّولة الموحّديّة الرّوحي فإنّ عبد المؤمن هو الذي قضى على الدّولة المرابطيّة والذي جمع تحت سلطته المغرب الأقصى والأوسط (الجزائر) وإفريقيّة فضلا عن الأندلس . ولكنّ هذا البناء الشامخ لم يدم طويلا لعدّة أسباب نذكر منها بالخصوص أنّ فكرة التوحيد التي دعا إليها ابن تومرت والتي تجسّمت سياسيّا في مؤسسة الخلافة الموحّديّة قد تلاشت إذ تحولت الخلافة ملكا فقد عيّن عبد المؤمن قبل وفاته (سنة 588 هـ) ابنه خلفا له ومن جهة أخرى سلك الموحّدون في المغرب الأوسط وفي إفريقية وفي الأندلس سلوك الفاتحين فاحتكروا المناصب السامية وحاولوا فرض عقيدتهم في مناطق كانت شديدة التعلّق بالمذهب المالكي (الأندلس وافريقيّة خاصّة) . أخيرا وبعد فترة استقرار امتّدت من 526 هـ إلى 610 عرفت الدّولة الموحّديّة الانخرام ثمّ

انقسمت إلى ثلاث دول : الدّولة الحفصيّة بافريقيّة والدّولة الزيـــانيّة (أو دولة بني عبد الواد) بالمغرب الأوسط والدّولة المـرينيّة بالمغرب الأقصى وبذلك زالت الخلافة الموحّديّة .

. الخلافة الفـــاطميّة (297 هـ / 909 م . 567 هـ 1171 / م) :

قـامت الخلافة الفـاطميّة سنة 297 هـ / 909 م بافـريقيّة على يد المهـدي عبيد الله وكـانت عاصـمتها القيروان ثم المهـديّة وفي سنة 361 هـ 972 غـادر المعـز لدين الله الفـاطمي افـرقيّـة إلى مـصر وأصبحت القـاهرة عـاصمة الخلافة والخلافة الفاطميّة وليدة الحركة الاسماعيليّة [50] وهي لذلك تختلف عن الخلافة العبـاسيّة من عـدّة وجـوه فـالإمام عنـدهم (الخليفة) مـعصـوم من الخطإ وهو مصدر العلم يأخذه عن سابقه وهو المرجع الأوّل في التأويل وهو أخيرا وليّ اللّه الذي يرجـو الجميع شـفاعتـه [51] ولذلك عـدّت الاسمـاعيليّة قضيّة الإمـامة دينيّة أصوليّة وعدّوا معـرفة الإمام واجبة حتّى يتمكن الناس من القيـام بالشـرائع وأداء الأمـانات الربّانيّة إلى أهلها وقالوا " من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهليّة " وذهب الغلاة منهم إلى القـول بأنّ اللّه حلّ في شخص الخليـفة الحـاكم (ت 411 / 1021) والخلافـة في نظرهم وفـي نظر الإمـامـيّة [52] أيضـا تعقـد بالنصّ [53] ولا يمكن أنّ تناط لاخـتيار الأمّـة ولا حتّى لأهل الحلّ والعـقد وما يمكن استنتاجه ممّا تقـدّم أنّ الحكم في الخلافة الفـاطميّة حكم تيـوقراطي بأتمّ معنى الكلمة .

وفي أيام الفاطـميين كان الإمام يعيّن من سيخلفـه في وثيقة لا يطلّع عليها إلاّ بعـد وفـاته وتـسـمّى الـوصيّـة والعـادة هـي أن يرث الإمـامـة الابن عن أبيـه

(50) نسبة إلى اسماعيل الإمام السابع ويطلق عليهم وعلى القرامطة اسم الباطنيّة .
(51) يعتبر الإسماعليون الولاية ركنا من أركان الايمان .
(52) فرقة شيعيّة تسمّى أيضا الإثنا عشريّة نسبة إلى الإمام الثاني عشر محمّد بن الحسن العسكرى الذي تعدّه هذه الفرقة المهدي المنتظر .
(53) المقصود هو النصّ القرآني والحديث مثل حديث غدير خمّ .

وحدث أن عيّن الخليفة الحاكم ابن عم له ولكنّ أخت الحاكم ستّ الملك اعتبرت هذا التعيين مخالفا للقاعدة وسعت كلّ جهدها حتّى يرتقي العرش ابن الحاكم فتمّ لها ما أرادت لكن ابتداء من القرن الخامس اختلّ نظام التوريث لأنّ الوزراء الذين قويت شكوتهم تدخلوا في تعيين من يخلف الإمام الراحل . ففي سنة 487 / 1094 مثلا أجلس الوزير الأفضل على العرش المستعلي أحد أبناء الخليفة السابق في حين أنّ الوصيّة حسب بعض الروايات تنصّ على أخيه نزار فكان هذا الحدث سبب انقسام الاسماعيليّة إلى فرقتين متعاديتين : المستعملة وعاصمتهم القاهرة والنزارية وعاصمتهم قلعة الموت بإيران [54] ولمّا قتل الخليفة الآمر سنة 525 هـ / 1130 م ولم يخلّف ابنا ولم يترك وصيّة انتقلت الخلافة إلى فرع آخر من العائلة أمّا الظروف التي أحاطت بممارسة الحكم فهي لا تكاد تختلف عمّا كانت عليه في الخلافة العبّاسيّة فقد تقلّص شيئا فشيئا نفوذ الخليفة وأصبح تسيير شؤون الدولة في القرنين الخامس والسادس بيَد الوزراء الذين صاروا يلقبون منذ سنة 530 هـ / 1135 بالوزير الملك وقد استطاع بعضهم أن يجعلوا من الوزارة إرثا لعقبهم وآخر وزير لآخر خليفة فاطمي هو صلاح الدين الأيوبي [55] الذي استند بالحكم في أيّام العاضد دون أن يعزله في أوّل الامر ثم عزله سنة 567 / 1171 وأعاد الخطبة بإسم الخليفة العباسي وبذلك وضع حدّا للخلافة الفاطميّة .

- **الخلافة العبّاسيّة بمصر :**

بعد دخول الماغول بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم انتقلت الخلافة من العراق إلى مصر فالمماليك [56] الذين شملت دولتهم مصر والشام استقبلوا بالقاهرة فردا من العائلة العبّاسيّة (عمّ المستعصم) ثمّ نصّبه الظاهر بيبرس

(54) ينسب المؤرخون الحشاشين إلى الفرقة النزاريّة .

(55) غزا جيش نور الدين زنكي بقيادة الأمير الكردي شركوه وابن أخيه صلاح الدّين مصر ثلاث مرات وكانت الغزوة الأخيرة (سنة 564 / 1169) هي الغزوة الحاسمة فقلّد الخليفة الفاطمي الأمير شركوه الوزارة وبعد شهرين سلّم شركوه الوزارة إلى صلاح الدّين ورجع إلى حلب فكان صلاح الدّين آخر وزير لآخر خليفة فاطمي .

(56) المماليك من الأتراك .

خليفة سنة 659 / 1261 ولمّا توفي هذا الخليفة الملّقب بالمستعصم خلفه الحاكم سنة 661 / 1262 الذي منع من الإشتغال بالسياسة وعاش في عزلة بالقلعة فلم يكن من مبرّر لإحياء مؤسسة الخلافة سوى إضفاء الشرعيّة على حكم المماليك وجعل القاهرة بوصفها مقرّ الخليفة عاصمة العالم الاسلامي .

وتواصلت الخلافة في عقب الحاكم ولكن الخليفة كان يفوّض كلّ صلاحياته إلى السلطان الذي يختاره أمراء المماليك ومنذ انتصاب الخليفة الثالث سقط حقّ الخليفة في ضرب السكة ولم يعد اسمه يذكر في خطبة الجمعة ولا في الخطبة بمكة ولبس السلاطين البردة والقلنسوّة وهما من ميزات الخليفة ولم يبق له إلاّ لقب " نائب الله في أرضه " .

ورغم هذا كان بعض الأمراء حريصين على أن يقلّدهم الخليفة إماراتهم حتّى يكتسبوا الشرعيّة ومنهم بنو مظفّر بإيران وسلاطين دلهي بالهند والأمراء العثمانيون بالأناضول (بتركيا) لكنّ أمراء آخرين رفضوا الاعتراف بالخلافة العباسيّة بالقاهرة ومنهم خاصة الإلخان [57] غزال خان الذي استولى على دمشق سنة 698 / 1299 والذي اتّخذ لقب " سلطان الاسلام والمسلمين " .

وبصفة عامّة نلاحظ أنّه ابتداء من القرن السابع وبالتحديد منذ هجمة الماغول تلّقب عدد من الأمراء والملوك بلقب خليفة فلم يعد هذا اللّقب خاصّا بأمير المؤمنين العبّاسي بل أصبح لقبا عاديا لكل من استبدّ بالحكم ببلد ما من ذلك مثلا أنّ سلطان بلاد ما وراء النّهر [58] محمّد الشيباني أمر أن يرسم على سكته لقب " خليفة الرحمان " وذلك في أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

- الخلافة في عهد السلاطين العثمانيين [59]

لئن نعت بعض السلاطين العثمانيين بالخليفة المختار وبظلّ اللّه في أرضه فإنّ مثل هذه الألقاب لم تكن ألقابا رسميّة بل كان يطلقها عليهم المدّاحون في

(57) الخان لقب للسلاطين الماغول بالعراقين : العراق العربي والعراق الفارسي .

(58) النهر هو نهر جيحون .

(59) من 1300 م إلى 1923 م .

المناسبات ولكن من جهة أخرى فإنّ العثمانيين لم يعترفوا قط بالخلافة العبّاسيّة بالقاهرة . ولما استولى السلطان سليم على الشام ثمّ على مصر [60] أسر الخليفة العبّاسي المتوكل ونفاه إلى اصطمبول ثمّ أطلق سراحه السلطان سليمان فرجع إلى القاهرة وبها توفي سنة 950 هـ / 1543 م فكان آخر الخلفاء العبّاسيين بالقاهرة وما يجب أن نلاحظه هو أنّ السلطان سليم لم يحوّل بصفة رسميّة الخلافة من القاهرة إلى اصطمبول وأنّ الوثائق الرسميّة والسكة في أيّامه وأيّام السلاطين الذين أتوا بعده لا ذكر فيها للقب " خليفة " أو " أمير المؤمنين " أو " إمام " وأنّ اللقب الوحيد الذي أضيف إلى سلطان (أو خاقان) بعد الاستيلاء على الشام ومصر هو " خادم الحرمين " [61] وهو لقب اختص به السلاطين المماليك دون الخلفاء العباسيين على أنّه ابتداء من القرن الثامن عشر اعتاد سفراء الباب العالي في الدّول الغربيّة أن ينعتوا مخدوميهم (السلاطين العثمانيين) بالخلفاء وأن يعرفوا بهم على أنّهم رؤساء العالم الاسلامي كلّه وفي المعاهدة المبرمة سنة 1774 م بين عبد الحميد الأوّل وامبراطورة روسيا كاترين وردت عبارة " إمام المؤمنين وخليفة الموحّدين " [62] وفي القرن التاسع عشر ، قرن الصراع بين الباب العالي والدّول الغربيّة ، تأكد حرص السلاطين العثمانيين على أن يعتبروا المدافعين عن الإسلام فأضحى لقب الخليفة لقبا رسميّا ويظهر ذلك مثلا في الدّستور الذي صدر في أيّام عبد الحميد الثاني (ت 1909 م) وبالضبط في ديسمبر 1876 والذي جاء فيه أنّ السلطان بصفته خليفة هو حامي الدّين الاسلامي ولئن بقي هذا الدستور حبرا على ورق مدّة طويلة فلم يعمل به إلا سنة 1908 فإنّ عبد الحميد الثاني بقي متعلّقا بلقب خليفة يداعبه الأمل في توحيد العالم الاسلامي وقد أذكَى فيه هذا الأمل جمال الدّين الأفغاني الذي زار اصطمبول مرّتين سنة 1869 وسنة 1892 ومات بها

---

(60) احتلّ العثمانيون الشام ومصر سنة 1517 وبذلك زالت دولة المماليك .

(61) حمل هذا اللّقب السلطان سليم (ت 1520 م) .

(62) في هذه المعاهدة تمسّك السلطان بسلطته الدّينيّة على المجموعات الإسلاميّة في المناطق التي خرجت عن الحكم العثماني وأصبحت جزءا من الامبراطورية الرّوسيّة .

سنة 1897 وكان كما نعلم يرى أنّ وحدة العالم الاسلامي هي القادرة وحدها على الصمود أمام الدّول الغربيّة .

| لم يتحقّق التوحيد بل بالعكس أخذت الامبراطوريّة العثمانيّة تنهار ولكنّ الدّول الغربيّة التي استغلّت ضعف الباب العالي لتمزّق الامبراطورية وتستعمر بعض أجزائها اعترفت للسلطان العثماني بإمامة المسلمين فلمّا احتلّ الايطاليون ليبيا كان شيخ الإسلام باصطمبول هو الذي يعيّن قاضي القضاة بهذا البلد . |

| أمّا فيما يخصّ ممارسة الحكم فقد كان حكم العثمانيين حكما مطلقا على أنّهم سعوا إلى مزيد من تنظيم لشؤون الدولة فوضع السلطان سليمان (ت 1566 م) مجموعة من التراتيب تسمى " القانون " وتتعلق بالشؤون المالية وبعدّة مسائل أخرى منها تعيين السلطان وفي القرن التاسع عشر بدأ تعصير أجهزة الدّولة ووضعت مجموعة من القوانين والتراتيب تسمّى : تنظيمات " [63] وأدّت حركة التعصير إلى سنّ دستور 1876 الذي ينصّ على بعث نظام برلماني لكن هذا الدّستور كما قلنا سابقا لم يُطَبَّق إلا سنة 1908 | وبعد قيام النظام البرلماني وتكوين حزب الوحدة والتقدّم كانت مسألة الخلافة محلّ أخذ وردّ فمن جهة عمل هذا الحزب على الحدّ من سلطة الخليفة ولكنّه من جهة أخرى رأى في الخلافة وسيلة للابقاء على النفوذ التركي في البلدان العربيّة وبعد الحرب العالميّة الأولى تغيّرت المعطيات ففي نوفمبر 1922 قرّر المجلس الوطني بأنقرة عزل السلطان محمّد السادس عملا بدستور جانفي 1921 الذي ينصّ على أنّ السيادة للشعب وعوّضه بالأمير عبد المجيد الذي فقد كلّ صلاحياته بما في ذلك تعيين القضاة وأئمّة الجوامع ولم يعد سوى " رمز للتضامن الاسلامي " وفي جانفي 1924 صرّح مصطفى كمال بأنّ فكرة خليفة واحد يمارس سلطة دينيّة على كلّ الشعوب الاسلاميّة فكرة أو جدتها الكتب لا الواقع وفي 3 مارس 1924 قرّر المجلس الوطني وضع حدّ لمؤسسة الخلافة وأصبحت خطبة الجمعة بإسم ،الحكومة الجمهوريّة والملّة الاسلاميّة "

---

(63) صدر قانون " تنظيمات " سنة 1839 . لمزيد التفاصيل انظر دائرة المعارف الاسلاميّة . الطبعة القديمة . فصل تنظيمات . ج 4 ص 689 . 693 .

وحـرّر جمع من العلماء وثيقة نشرت في تـركيا وفي البلدان العربيّة تفيد أنّ مسألة الخلافة ليست مسـألة دينيّة كلاميّـة وأنه لا دخل للرّسول في إقامة هذه المؤسسـة وأنّ الخـلافة لا تكون ركنا من أركـان الاسـلام وقـد أثار زوال الخلافة ضجّة في المشرق العربي حيث ظهرت عدّة مشاريع لأحيانها [64] نظرا إلى أنّ هذه المؤسسـة ـ حسب هذه المشـاريع ـ أمر أساسي لحياة الأمّـة ومصيرها وفي سنة 1926 التأم مؤتمران للنظـر في مسـألة الخلافة الأوّل بالقـاهرة في شهر مـارس والثاني بمكة في شهر جويلية ولكن بدون جدوى وقد شجعّت الدّول العـربيّة على إحيـاء الخلافة لكن شـريطة أن يكون الخليـفة من أتبـاعـها فالانقليـز كانوا يسـاندون حسين (شيخ الحـجاز) [65] والفرنسـيون باي تونس . وفي سنة 1931 التـأم بالقـدس مـؤتمر ضمّ العلمـاء ورجـال السـياسـة لنفس الغـرض. وكانت النتيجـة بروز فكرة الوحـدة العربيّة وبذلك تحـولت الحركة من حـركة اسلاميّة إلى حـركة قومـية. انعقـد سنة 1937 مـؤتمر الوحدة العربيّة الذي مهّد لبعث الدّول العربيّة فتـأسست سنة 1944 ومنذ ذلك التـاريخ لم يعد موضوع الخلافة يشغل بال المسلمين باستثناء بعض السلفيين مثل حسن البنّا (ت 1949) وعبد القـادر عودة (ت 1954) المُنظّر السـياسي لجماعة الاخوان المسلمين وتقيّ الدين النبهـاني مـؤسّس حـزب التـحـرير الإسلامي " وذلك في كتاباتهم المتـعلقة بالحكم والدولة [66] والتي ينطلقون فيها من التصورات القديمة ولكنهم يصوغونها في ثوب حديث " [67] .

---

(64) من هذه المشـاريع القديمة كتـاب محـمّد رشـيد رضا (ت 1935) : الخلافة أو الإمـامة العظمى .

(65) الشـيخ حـسين المقـصـود هو والد فـيـصل ملك العـراق السـابق ووالد الملك عـبـد الله ملك الأردن المقتول وجدّ حسين ملك الأردن الآن .

(66) عن آراء كل هؤلاء انظر عبد المجيد الشرفي ، الاسلام والحداثة (الطبعة المذكورة) من ص 199 إلى ص 210 .

(67) عبد المجيد الشرفي ، نفس المرجع ص 209 .

تعقيب :

أثيرت أثناء العرض التاريخي نقاط تخص صلة الخلافة بالدين والفرق بين الخلافة والملك وعلاقة الحاكم بالمحكومين وطبيعة الحكم ولكنها لم تأخذ حظها من التحليل لذلك يحسن العودة إليها لتوضيحها .

1 - الخلافة والدين :

الخلافة (أو الإمامة الكبرى) كما رأينا قامت بحكم الواقع لا بمقتضى الشرع إذ ليس في النصّ القرآني ولا في الحديث ما يدلّ على أنّها جزء من الدّين والمتكلّمون والفقهاء السنيون الذين يعتبرون أن الخلافة وجبت شرعا يستندون إلى مبدأ الاجماع (إجماع الصحابة) فيقولون أن أصحاب الرسول عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر وتسليم النظر إليه في أمور المسلمين وكذلك فعلوا مع عمر وعثمان وعلي لكن الواقع التاريخي يبيّن أنّ الإجماع لم يحصل في تعيينهم ولا في متابعتهم ، أما القول بأنّ الخليفة هو خليفة الله في أرضه يحكم بتفويض منه [68] فهو من الترهات التي كان القصد من اختلاقها توطيد نفوذ هذه الدولة أو تلك بحمل الرعيّة على الطاعة غير المشروطة باسم الدّين فكانت النتيجة فتح الباب على مصراعيه للحكم المطلق والاعتباطي وإثارة الفتن والحروب .

وأخيرا فإن إقحام الدين في متاهات السياسة من شأنه أن ينزل به إلى مستوى الإيديولوجيا والشعارات فيستغل في الصراعات من أجل الفوز بالحكم .

2 - الخلافة والملك :

ميزّ القدامى الخلافة التي حصروها في أيّام أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ عن الملك الذي بدأ مع معاوية بن أبي سفيان فما هي مقاييسهم في هذا التمييز ؟

---

(68) يقول الماوردي إنّ اللّه جلّت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملّة وفوّض إليه السياسة الأحكام السلطانية - المصدر المذكور ص 3 .

قد يتبادر إلى الذهن أن الفرق يكمن في أنّ الخليفة يتمّ تعيينه عن طريق الشورى في حين أنّ الملك يرث الحكم عن أبيه أو أحد أفراد عائلته . لكن يجب أنّ تنسى أن تعيين الخلفاء الراشدين لم يخضع دوما لمبدأ الشورى وأن عمر عينّه أبو بكر قبل وفاته واتخذ الفقهاء هذه السابقة حجة لتبرير شرعية تعيين ولاّة العهد. وقد يتبادر للذهن أيضا أنّ ما يميز الخلافة عن الملك التزام الخلفاء الراشدين بأحكام الشريعة في ممارسة السلطة في حين أن من أتوا بعدهم حادوا عنها وهذا الرآي لا يخلو من تعسف بدليل أنّ المؤرّخين والفقهاء السنيين يشهدون أنّ معاوية مثلا [69] قد إلتزم هو كذلك بأحكام الشريعة فلم إذن لم يلحقوه بالخلفاء الراشدين ؟ إن الفرق في نظرنا يكمن في تصوّر القدامى للخلافة الراشدة [70]. فهذه كما يتمثلونها تمتاز بسمات لم تتوفر في أيّة دولة جاءت بعدها فهي عندهم ليست مجرّد مؤسّسة سياسية قامت بحقوق المسلمين حسب أحكام الشريعة بل هي ظاهرة فريدة من نوعها تجسمت فيها قيم الإسلام ومثله الاخلاقي الأعلى وكانت غايتها ضمان سعادة الانسان في الدّنيا والآخرة وعبارة خليفة الرسول لا تعني خلافته في الحكم بقدر ما تعني خلافته في نشر قيم الاسلام وترسيخها في النفوس أما الملك [71] فلا يمكن أن يضاهي الخلافة حتى وإن التزم الحاكم بأحكام الشريعة لأنّ الملك غايته غاية دنيويّة هي الحفاظ على السلطة ولأن الالتزام بأحكام الشريعة في الملك ليس إلا وسيلة لبلوغ هذه الغاية وبعبارة وجيزة فإن الفرق الاساسي بين الخلافة والملك يمكن حسب هذه الرؤية في البعد الاخلاقي الذي تتحلّى به الخلافة دون الملك .

---

(69) يمكن أن نضيف خلفاء آخرين مثل الرشيد أو المتوكل .

(70) لا يزال هذا التصور قائما في الأذهان إلى اليوم .

(71) يقسم ابن خلدون المُلك إلى ملك طبيعي، وهو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة أي مصلحة الحاكم وشهواته ، والملك السياسي، وهو " حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيويّة ودفع المضار أي جلب المصالح للرعيّة ودفع المضارّ عنها، المقدّمة ـ بيروت 1967 ـ الطبعة الثالثة ، ص 358 .

وهذا التصور الذي يجعل من الخلافة الانموذج الامثل بعيد عن الواقع التاريخي فالخلافة ظاهرة بشرية لها ككل ظاهرة بشرية وجوه إيجابية وأخرى سلبية وفترة الخلافة كما رأينا لم تخل من النزاعات والتقاتل وما الحنين إلى الخلافة إلا تعبير عن تعلق بمثل أعلى لا يمكن أن يتجسم في الواقع وهو من هذه الناحية نفي للدّولة ذاتها .

3 ـ علاقة الحاكم بالمحكومين :

الشورى : ينص القرآن في مسألة الحكم وتسيير شؤون الأمة على مبادئ عامة منها مبدأ الشورى لكن ما نلاحظ هو أن هذا المبدأ ضيق إجراؤه ثم عدل عنه تماما . لقد حصرت الخلافة في قريش بدعوى أنّ الرسول أوصى بأن تكون الرئاسة فيها فنتجت عن هذا الحصر ثورات الخوارج الذين كانوا يرون أن تكون الخلافة في كل البيوت لا في قريش وحدها كما نتجت عنه ثورات الأعاجم من المسلمين الذين شعروا بالحيف المتولد عن إقصائهم من الخلافة لا لشيء إلا لأنهم من غير العرب ومن جهة أخرى حصرت في مرحلة أولى عمليّة اختيار الخليفة في فئة قليلة[72] فاقصيت العامة ثمّ أصبحت الخلافة وراثية وبذلك أقصيت الخاصّة بدورها من عمليّة اختيار الخليفة وأصبحت البيعة أمرا شكليّا .

(72) قام بتعيين الخلفاء الراشدين (باستثناء عمر الذي عينّه أبو بكر قبل وفاته) عدد من الصحابة وقد رأى المشرّعون فيما بعد أنّه في حالة شغور منصب الخلافة يتعين على أهل الحلّ والعقد ـ دون عامّة الرعيّة ـ التشاور فيما بينهم لاختيار خليفة .

وفي تسيير شؤون الدّولة لم يفكر المشرّعون في كيفيّة إجراء مبدأ الشورى : واكتفوا بدعوة الخليفة إلى استشارة علماء الدين وأهل الخبرة [73] فكان مبدأ الشورى أمرا نظريا أكثر منه حقيقة تاريخيّة .

ـ البيعة : البيعة كما قلنا عهد بين الخليفة والأمة يلتزم بمقتضاه الخليفة بالقيام بحقوق المسلمين وتلتزم الرعيّة بطاعته ومؤازرته ما لم يتغير حالة " أي ما بقي وفيّا للعهد ولكنّ المشرّعين لم يفكروا في كيفيّة إجراء هذا المبدأ كان يكون لمحكمة خاصة حقّ تنحيته عند تغير حالة ولذلك كان كلامهم عن عمل الخليفة الفاسق كلاما نظريّا ولم تكن للأمة طريقة لممارسة حقّها في محاسبة الخليفة على أعماله وعزله إن اقتضى الأمر. فلم يبق لها للتعبير عن سخطها إلاّ الانتفاضات والخروج على الحاكم. والغريب أن علماء الدّين السنيّين يرون في الخروج على الحاكم ولو جارَ فعلا غير شرعي لأنّ الفتنة في نظرهم أشد ضررا من جور الجائر رغم مخالفة هذا الحكم للشرع ويعتبرون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصح العلماء كفيل بتغيير سلوك الحاكم ولو كان النصح فعالا كما يزعمون لما عرفت البلاد الاسلامية الظلم وفساد العمران .

4 ـ طبيعة الحكم :

إن كتب التاريخ وعلم الكلام والفقه السياسي [74] تذكر بكثير من التفاصيل واجبات الخليفة ولكنّها قلّما تتحدث عن طبيعة الحكم لأن المقياس في تقويم سياسة الحاكم هو التزامه بأحكام الشريعة أو عدم التزامه بها . صحيح أن الشريعة التي وجب عليه احترامها تحدّ مبدئيا من الحكم المطلق والاعتباطى فليس للخليفة مثلا أن يأمر بقتل المسلم إلا في الحالات التي ينص عليها الشرع لكن لما كان حفظ الامن مما يلزمه من الأمور العامة فإنّ هذا الواجب فتح

(73) انظر مثلا الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد طبعة القاهرة د ت ص 18 .
(74) انظر الأحكام السلطانية ـ الطبعة المذكورة ـ ص 15 و 16 .

الباب للاعتباطيّة فعدّت كلّ ثورة على الفساد والظلم فتنة وعدّ كلّ معارض لسياسة الخليفة خارجا عن الإسلام وكان مصيره غالبا القتل وبصفة عامّة فإنّ الواقع التاريخي يبيّن أنّ الحكم كان حكما مطلقا وأن حقوق الأمّة كانت بيد شخص قد يعدل وقد يجور فلا شيء يجبره على استشارة أي كان في القيام بمهامه ولا وجود لسلطة تشريعية أو قضائية تراقبه وتحاسبه على أعماله .

- بقيت نقطة أخيرة تتعلق بالفكر السياسي . إن المؤلفات القديمة التي تعالج مسألة الحكم كثيرة لا يسمح المجال باستعراضها ومن باب أولى وأحرى بتحليلها . لكن يمكن أن نُبديَ في شأنها بعض الملاحظات فنقول إنّ أهمها وضعت في فترات متأزمة من التاريخ الإسلامي [75] وأنّها مختلفة الاتجاهات حسب آفاق أصحابها الفكريّة .

لقد عالج المتكلمون والفقهاء مسألة الخلافة في مبحث الإمامة وكان همّ السنييّن إثبات شرعيّة الأمويّين ثمّ العباسيين والدفاع عن مؤسسة الخلافة التي كانت تهدّدها وهذا ما فعله مثلا الباقلاني (ت 403 / 1013) في كتاب التمهيد وقد أحس بما تمثله حركات الشيعة من خطر عليها وهذا ما فعله كذلك الماوردي الذي كان يرمي من تأليف كتابه إلى مؤزارة مؤسسة الخلافة فأكدّ أن الخليفة مصدر الشرعيّة رغم ضعف مركزه .

---

(75) نذكر على سبيل المثال فترة انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين (رسالة الصّحّابة لابن المقفع) فترة المعتزلة (رسالة الإمامة للجاحظ) . الصراع ضد البوهيين (كتاب التمهيد للباقلاني والأحكام السّلطانية للماوردي) وضدّ الباطنيّة (كتاب الارشاد لأبي المعالي الجويني الذي توفي سنة 499 / 1105 وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد والمستظهري للغزالي المتوفي سنة 505 / 1111) وبعد سقوط الخلافة العباسية : السياسة الشرعية لابن تيميّة (ت 728 / 1328) وفي هذا الكتاب يمر سريعا على مؤسسة الخلافة التي لا يرى أنها واجبة شرعا .

لكن هذه الكتب لا تبحث في فلسفة الحكم وماهيته والقوى الفاعلة فيه وآلياته وكيفية تطويره حسب مقتضيات البيئة والعصر فتخرج به من دائرة التغلب والتمرّد المتعاقبينّ بل بقي أصحابها متشبثين بمثل أعلى تجسمه في نظرهم خلافة الراشدين وهذا الموقف يفسّره اعتقاد بأن الزمان عامل انحلال لا عامل تطوّر ونضج وأنّ العصر الذهبي ولّى وانقضى وأن العالم في تدهور مستمرّ الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن القدامى الذين ألفّوا في السياسة الفلاسفة. وما قالوه في هذا الموضوع جزء من نظرياتهم التي تحاول تفسير خلق العالم ونظامه والتي تهتّم بوضع الإنسان في هذا العالم وبطبيعته ومصره وكلامهم في السياسة يندرج في القسم الخاصّ بالإنسان وطبيعته وسلوكه فالفارابي ابى مثلا ينطلق من نظرية الفيض الأفلوطينيّة ليثبت وجود اللّه (الكائن واجب الوجود) ووِحدانيته وليفسر كيفية خلق العالم ونظامه ويصل به البحث النظري الى القول بوجود حقائق أزلية تدرك إما عن طريق القوة المتخيّلة الكاملة التي يمتاز بها الأنبياء أو التأمل العقلي الذي يمتاز به الفلاسفة ويتخلص بعد ذلك الى تفسير نشوء المجتمعات البشرية [76] ثم يقسمها الى قسمين كبيرين : المجتمعات الفاضلة التي تعرف السعادة القصوى وهي أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود حيث لا تحتاج في قوامها إلّى مادّة [...] وأن تبقى على تلك الحال دائما أبدا [77] والمجتمعات الجاهلة التي لا تعرف السعادة والتي تعتقد أن غاية الحياة في سلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات والانقياد الى الشهوات والمدينة الفاضلة (المجتمع الفاضل) عندهم كالجسم لكل عضو وظيفته وفيها يكون الرئيس بمثابة القلب أي في أعلى مرتبة وهو نبئ وفيلسوف في آن

---

(76) يرى الفارابي أن تكون المجتمعات ظاهرة طبيعية أساسها حاجة الإنسان الى غيره وقد أخذ هذه الفكرة عن أفلاطون في الجمهورية .

(77) كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ـ مجموعة الروائع الإنسانية ـ اليونسكو ـ 1986 ـ ص 93 .

واحد يجمع بين كلّ الخصال وفيه يتجسّم الكمال ووظيفته دفع أهل المدينة الفاضلة الى نيل السّعادة القصوى .

وقد رأى بعضهم في المدينة الفاضلة مشروعا سياسيّا " يرمي الى إصلاح الموجود لكن ما نعرفه هو أن الرّجل لم يكن مهتمّا بالأمور العامّة وأنه شأنه شأن كثير من الفلاسفة المسلمين القدامي لم يبحث في الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تنجر مؤسسة الخلافة . فالمدينة الفاضلة لم يقصد بها مجتمعا معيّنا ولا دولة معيّنة والرئيس لا يراد به الخليفة وبعبارة أخرى فهو لم ينطلق من تحليل الواقع ليستنبط مشروعا سياسيّا إصلاحيّا وإنّما عرض نظرية شاملة تجمع بين نظرية الفيض لأفلوطين وآراء أفلاطون الذي نادى في كتابه " الجمهورية " بقيام حكومة الفلاسفة (78) وبين نظريّة الإمامة الشيعيّة (79). وهذه النظرية ترمى إلى حث الإنسان على التجرّد من المادّة لنيل السّعادة القصوى الذي لا يتم في نظره إلاّ بدفع من رئيس أدرك الحقائق الأزليّة بعد اتحاده بالعقل الفعّال (80) الذي هو مصدر هذه الحقائق .

وأخيرا لا يمكن أن نغفل عن ذكر ابن خلدون وهو الذي خطا فعلا بالفكر السياسي الإسلامي خطوات حاسمة فقد اهتّم في مقدمته بنشأة الدّولة وتصوّرها وانقراضها ولكن المجال لا يسمح بعرض نظريته التي انكبّ على تحليلها كثير من الدارسين لذلك سنقتصر على بعض الملاحظات . لقد نزل ابن خلدون

---

(78) لقد نادى أفلاطون بقيام حكومة الفلاسفة اعتقادا منه أن الفلاسفة قادرون دون غيرهم على إقامة سياسة العدل نظرا الى سعة معارفهم وتحليهم بالفضيلة ولكنه في كتابه " القوانين " تخلّى عن فكرة " المدينة الفاضلة وحكومة الفلاسفة فأعرض عن المثل الأعلى (L'Ideal).

(79) إن الرئيس في المدينة الفاضلة هو بمثابة الامام في الفكر الإسماعيلى فهو الهادي والعارف بالحقيقة فهو الكامل .

(80) العقل الفعال أو العقل العاشر هو الذي يدبّر عالم ما دون فلك القمر (أي الأرض) وهو واهب الصّور وبه توجد الحقائق الأزليّة .

مشكلة الدّولة في الواقع الإجتماعي فاعتبر الدولة ظاهرة طبيعيّة [81] يمكن تفسيرها عن طريق العقل وأخرجها من حيّز " المقدس " أو النظر التجريدي وربط مشكلة الحكم والدولة بعلم الإجتماع العامّ الذي هو رائد من روّاده فكان جوابه على السؤال المحوري " كيف تنشأ الدولة وكيف تتطوّر ثم كيف تنحلّ ؟ " مركزا على العوامل البشرية (التوق الى الانفراد بالمجد أي النّفوذ والثروة ثمّ الدّعة والسكون عند حصول المجد) والعوامل الاقتصاديّة (التحول من البداوة الى التحضر وما ينتج عنه من تغيير في العيش والكسب) والعوامل الاجتماعية (تعقد تركيبة المجتمع وتضارب المصالح) .

---

(81) يرى ابن خلدون ان الدعوة الدّينيّة غير كافية لقيام الدّولة لأن الدّولة تقوم في نظره على العصبيّة - المقدمة ، الطبعة المذكورة ص 279 وما بعدها .



أجهزة الحكم : الحجابة والوزارة والدّواوين

الحجابة

بعد ما قلناه عن مؤسسة الخلافة ننتقل الآن إلى أجهزة الدّولة ونبدأ بالحجابة وهي لقب مخصوص لمن يحجب الخليفة أو أمير أو السّلطان عن العامّة، على أنّ وظيفة الحاجب chambellan كما سنرى تغيّرت حسب الجهات والأزمنة فلم تكن دوما وظيفة بروتوكليّة مقصورة على الحجابة في معناها الأصلي .

ظهرت الحجابة في أيّام معاوية بن أبي سفيان وهذا دليل على أنّ الترتيب (ceremonial) أصبح جزءا من رسوم الخلافة والحياة بالبلاط وكان الحاجب في الدّولة الأمويّة فضلا عن مهمتّه الأولى يرتّب مجالس الخليفة ويقدّم له السفراء والزائرين وكان يحظى بمنزلة رفيعة نظرا إلى قربه من الخليفة إلاّ أنّها دون منزلة ممثلي الأرستقراطيّة العربيّة .

وفي العهد العباسي الأوّل بقيت الحجابة في مدلولها الأصلي وإن إشتدّ التنافس بين الحاجب والوزير الذي كان أرفع منزلة وانتهى التنافس أحيانا لفائدة

الحاجب ذلك أنّ الخليفة المنصور قلّد الحاجب الربيع بن يونس الوزارة بعد عزل صاحبها أبي أيوب .

وفي منتصف القرن الثالث عيّن الحجّاب غالبا من الغلمان (المماليك الأتراك) وفي هذا دليل على وزن العنصر التركي بل إنّ أحد هؤلاء الغلمان الذي اتخذه الخليفة المتوكل حاجبا احتلّ المرتبة الأولى في الحكومة لما قرّر هذا الخليفة الاستغناء عن الوزير .

وفي أواخر القرن الثالث تفرّد الوزير بتدبير شؤون الدّولة [82] . إلاّ أن دور الحاجب بوصفه قائد المصافيّة (اسم يطلق على بعض وحدات حامية القصر) بقي هامّا خاصّة أنّ الفترة كانت فترة اضطرابات ودسائس تكرّرت محاولة تنحية الخليفة عن العرش فكان الحاجب مشير الخليفة الأول ودرعه وهذا ما يفسّر مثلا بقاء الحاجب نصر القشوري بخطته في أيّام المقتدر من سنة 296 / 908 إلى سنة 317 / 929 في حين تعاقب على الوزارة في نفس المدّة عدّة وزراء كلّف هذا الحاجب برلقاء القبض عليهم عند عزلهم .

ومنذ سنة 317 / 929 عهدت الحجابة إلى الأمراء (قوّاد الجيش) فآستغلوا هذه الخطّة للاستبداد بالسلطة وكادوا يستبدّوا بها فعلا لو لا معارضة الأمراء الولاّة الذين كانت بأيديهم محاصيل جباية الأقاليم والذين كان بإمكانهم قطع المدد المالي عن السلّطة المركزيّة وانتهى الصراع بين الأمراء الحجاب والأمراء الولاّة بأن عيّن الخليفة الرّاضي (ت 329) الأمير الوالي ابن رائق على رأس الحكومة سنة 324 / 936 ولقّبه بأمير الأمراء [83] وبذلك ضعف مركز الأمير الحاجب الذي أصبح منذ سنة 329 هـ يلقّب بحاجب الحجّاب وهو لقب شرفي قصد به التعويض عن النفوذ المفقود إذ اقتصرت مهمّة حاجب الحجاب على مراقبة الخدم وتنظيم مجالس الخليفة وترتيب الحواشي ، أي تحديد مكان كل واحد من الأعيان والزائرين عند استقبالهم .

---

(82) سنعود إلى هذه النقطة في الصفحات الموالية في الفقرات الخاصّة بالوزارة .

(83) هذه أول مرة يستعمل فيها هذا اللّقب في التاريخ الإسلامي .

وفي الدّولة البويهيّة لم تمكن للحاجب منزلة تذكر . ومن جهة أخرى فإن لفظة « الحاجب » استعملت في معنى القائد الأعلى ويدّل على هذا الأستعمال ما أورده مسكويه في كتابه « تجارب الأمم » من أن الجيش طلب من السّلطان البويهي بختيار الذي حكم من سنة 356 / 967 إلى سنة 378 / 987 أن يعامل قواده كما كان يعاملهم والده معزّ الدّولة وأن يحترم السنّة في ترقيتهم من نقيب إلى قائد إلى حاجب (قائد أعلى) .

وفي دَولة المماليك بمصر والشام كان حاجب الحجّاب من أرباب السّيف. وكانت وظيفته حجابة السّلطان عن العامّة والخاصّة وترتيب استقبال السفراء والزوّار القادمين عليه والسّهر على تنظيم الاستعراضات العسكرية. ولكن الجديد في الأمر هو أنّ الحجاب الذين تحته كانوا يترأسون محاكم عسكريّة تقضي بين المماليك حسب العرف الماكولي (اليساق) [84] لا حسب الشريعة وابتداء من القرن التاسع / الخامس عشر عهدت الحسبة [85] إلى الأمير الحاجب (حاجب الحجّاب) ثمّ تولى الحجاب القضاء بين أهل مصر والحال أنهم يكونوا من الفقهاء ويذكر المقريزي في الخطط [86] أنّ الحجّاب كانوا يرتزقون من المتقاضين .

أمّا في الأندلس فقد كانت الحجابة خطّة رفيعة جدّا إذ كان الحاجب يحتلّ المرتبة الأولى في الحكومة ويقوم بدور الوساطة بين الخليفة والوزراء [87] ولئن

---

(84) كان المماليك من العنصر التركي الماغولي وقد تمسّكوا باليساق حتى لا تطبّق عليهم الاحكام الشرعيّة التي كانت تطبق على المصريّين والشاميّين وقد لاحظ ابن بطوطة في رحلته (القرن الثامن) أن أغلب المناطق التي يحكمها السّلاطين من ولد جنكيس خان (بآسيا الوسطى وجنوب روسيا) كان يعمل فيها باليساق .

(85) سنعود إلى هذا المصطلح في الحديث عن النظام القضائي .

(86) العنوان الكامل : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط في الآثار - دار الكتاب اللبناني بدون تاريخ ج 2 ص 340 .

(87) في الدّولة الأمويّة بالأندلس كان الوزير بمناسبة الكاتب المشرف على ديوان ولذلك كثر عدد الوزراء .

انقطعت الحجابة في أيام عبد الرحمان الثالث الذي حكم من سنة 300 هـ إلى سنة 350 هـ فقد ظهرت من جديد سنة 351 في خلافة الحكم الثاني واستغلّها الحاجب محمّد بن أبي عامر ليستبدّ بالسّلطة في أيّام هشام الثاني (403) وليقيم الدّولة العامريّة ويتخذ من الألقاب فضلا عن الحاجب لقب المنصور بالله ولقب الملك. وبعد انقراض الخلافة الأمويّة بالأندلس سنة 422 هـ أبقى ملوك الطوائف على خطّة الحجابة ولكنّ الوظيفة عادت إلى أصلها .

وفي المغرب (شمال إفريقيا) اختلف وضع الحاجب ووظيفته حسب الدّول ففي إفريقيّة كان للحاجب أيّام الفاطميّين شأن عظيم ولكن الحجابة لم تخرج عن مدلولها الأصلي إلاّ في حالات قليلة منها أن الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور (ت 341 هـ) عهد لأحد حجّابه قيادة الجيش لمحاربة أبي يزيد الخارجي المعروف بصاحب الحمار كما كلّفه بإمامة المصلّين بالقيروان [88] ولكن هذا التكليف كان لمدّة محدودة .

وفي دولة بني زِيرِي [89] ودلوة الموّحدين زالت خطّة الحجابة ثم ظهرت من جديد في أيّام الحفصيّين. وأنحصرت الوظيفة في حجابة السّلطان عن العامّة لكن في عهد السّلطان أبي بكر الثاني (ت 747 / 1346) قام الحاجب مقام الوزير وقد أستغل الحاجب ابن تقراجين خطتّه بعد أواخر أيّام أبي بكر الثاني وفي أيّام ابنه أبي حفص الثاني ليستبدّ بالحكم مدّة تزيد على عشرين عاما. ثم لمّا استرجع الحفصيّون نفوذهم في أيّام السّلطان أبي العبّاس (ت 794 / 1394) أبقوا على الخطة ولكنها حصرت من جديد في الحجابة بمعناها الأصلي .

---

(88) لمزيد من التفاصيل انظر فرحات الدشراوي في اطروحته بالفرنسية وعنوانها Le Califat Fatimide Au Maghreb . تونس 1980 ـ ص 301 ـ 303 .

(89) يُقال دولة بني زيري أو الدولة الصنهاجية وهي الدولة التي حكمت إفريقيّة بعد انتقال الفاطميّين إلى المشرق والتي دامت من 362 هـ إلى 543 هـ .

نلاحظ ممّا تقدّم أنّ خطة الحجابة التي أحدثت في خلافة معاوية بن أبي سفيان لم تكن خطة قارّة وإنّ منزلة الحاجب ووظيفته رهينة الظروف فأحيَاناكانت الحجابة مقصورة على سدّ باب الحاكم دون الجمهور وترتيب مجالس السّلطان وأحيانا تعدّت هذه الوظيفة إلى الإشراف على الحامية وأحيانا أخرى كان الحاجب بمثابة الوزير الأول إمّا لمدّة معيّنة أو بصفة مستمرة كما هو الشأن في الدّولة الأمويّة بالأندلس ومن جهة أخرى خرج معنى كلمة الحاجب عن المعهود فصار يقصد بها في الدّولة البويهيّة القائد الأعلى أو القاضي في دولة المماليك . كلّ هذا يدعونا إلى اليقظة عند قراءة المصادر حتى لا نقع في سوء الفهم .

الوزارة

من النظم المستحدثة في الإسلام أيضا الوزارة [90] التي ظهرت بعد قيام الدّولة العبّاسية وبالضبط في أيّام أبي العبّاس السفاح (ت 136 هـ) والرّاجع أنّ الاستحداث كان بتأثير من الفرس لكن كلمة وزير خلافا لما ذهب اليه بعض المستشرقين الذي يعيدون اللّفظة إلى الفـــارسيّة القديمة (البهلويّة) « فشير » (الحاكم أو القاضي) كلمة عربيّة مشتقة من الوزر أي الثقل والعبء ويقصد بها المعين على تحمّل أثقال الحكم أي بعبارة حديثة رئيس الحكومة أو الوزير الأول وفي البداية لم تكن الوزارة مقنّنة القواعد ففي أيّام أبي العبّاس كانت سلطة الوزير لا تشمل جميع الدّواوين [91] إذ خرج عن رئاسته ديوان الخراج وأبو جعفر المنصور الخليفة الثاني (ت 158 هـ) كان تارة يعيّن وزيرا وطورا يستغنى عن الوزير ويسمّى كاتبا وفي أيّامه أيضا كانت سلطة الوزير محدودة لا تشمل كلّ الدواوين الإدارية والمالية ولم ترسخ الوزارة إلاّ منذ أيّام المهدي (ت 169 هـ) إذ أصبح منصب الوزارة منصبا قارا وفي عهد الرّشيد

---

(90) في عهد بني أميّة كان الخليفة يستعين في تسيير شؤون الدّولة بذوي الراي وأهل الاختصاص ويسمى الواحد منهم مشيرا أو كاتبًا ولم تكن لفظة وزير مستعملة .

(91) سنعود إلى مسألة الدواوين في الصفحات الموالية ولكن يمكن من الآن أن نُقسّمها إلى ثلاثة أقسام كبرى : الدواوين الإدارية ـ المالية ـ العسكرية .

(ت 193 هـ) كان الوزير يحي بن برمك يشرف على كل الدّواوين بما فيها ديوان المظالم وفي عصر المأمون سمّي الوزير الفضل بن سهل « ذا الرياستين » رئاسة السيف ورئاسة القلم فكان إذن يشرف على الدّواوين الإدارية والعسكريّة .

لكن يجب أن نضيف أنّ الوزارة في كلّ هذه الفترة كانت وزارة تنفذ أي أنّ الوزير كان يطبّق السياسة التي يرسمها الخليفة وأنّه متى لم يرض عنه الخليفة عزله وأنّه كان كذلك عرضة للقتل إن رأى الخليفة أنّه أصبح خطرا عليه وهذا ما حدث في أيّام الرشيد (نكبة البرامكة) وفي أيّام المأمون (نكبة الفضل بن سهل) وفي منتصف القرن الثالث لما تسلّط الغلمان (أي المماليك الأتراك) على الخلافة أفل نجم الوزراء ثمّ طلع من جديد في أواخر القرن الثالث ففي أيّام المقتدر الذي اعتلى العرش سنة 295 هـ « تفرّد [الوزير] بتدبير شؤون الدّولة » [92] فكان يباشر كلّ المهام حتى تلك التي هي من مشمولات الخليفة كتوقيع الرسائل [93] وتسمية أعوان الدّولة (الولآة والكتّاب) وتعيين القضاة واستقبال السّفراء ورئاسة الشؤون العسكريّة [94] وقيادة العمليّات الحربيّة [95] والإشراف على ديوان المظالم [96]

---

(92) العبارة لهلال الصابي في كتاب الوزراء.

(93) التوقيع بمعنى التعليق في الحاشية على الرّسائل الواردة من الولآة وكبار أعوان الدّولة بملاحظات على ضونها يكون الردّ على الرسائل .

(94) كلّف المأمون وزيره الفصل بن سهل برئاسة الشؤون العسكرية فكان يحمل لقب أمير فضلا عن لقب وزير للتمييز بن الخطتين وكلّف نفس الخليفة الوزير أحمد بن خالد بهذه المهمّة ذاتها ولكن هذا التكليف كان بصفة وقتيّة في حين أن إشراف الوزير على الجند أصبح أمرا قارّا منذ أيّام المقتدر إلى دخول البويهيّين بغداد .

(95) قام الوزير المقتدر أحمد بن عبد الله الخصيبي بتحصين بغداد وتنظيم الدّفاع منها لمّا هدّدها قرامطة قراسة البحرين سنة 315 / 927 .

(96) قبل المقتدر فوّض الرّشيد ليحي بن برمك والمامون للفصل بن سهل الإشراف على ديوان المظالم ولكن بصفة مؤقتة .

والإقطاع من الأراضي الدوليّة . وهذا النوع من الوزارة المسمّى بوزارة التفويض لا يعني أن الوزير كان متغلّبا على الخليفة وأنّه كان مطلق الحريّة في التصرّف بل يعني أن الخليفة فوّض للوزير أمر تدبير كلّ شؤون الدّولة فكان الوزير هو الذي يرسم سياسة البلاد ويشرف على تنفيذها ويكتفي الخليفة بمراقبته عن بعد ولئن كانت الوزارة في هذه الفترة محاطة بكثير من مظاهر الإجلال [97] نظرا إلى سلطة الوزير الواسعة فإن متقلّدها كان عرضة للعزل ومصادرة أمواله وحتى للقتل فالمقتدر عيّن إثنى عشر وزيرا قتل بعضهم وصودرت أموال أغلبهم وكانت أكبر عقبة تعترض الوزير إدارة الشؤون المالية نظرا إلى كثرة المصاريف المتأتية أساسا من نفقات دار الخلافة [98] المتزايدة ومرتبات الجند [99] من جهة وإلى قلة المداخيل من جهة أخرى إذ تقلصت رقعة الأقاليم الخاضعة لسلطة الخليفة فكان الوزير يعمد إلى الاقتراض من الجهابذة اليهود أو من خزينة الخليفة الشخصيّة أو من كبار التجّار بفائض مشط وحتى يسدّد الديوان كان يرفع معلوم الضرائب فأدّت هذه السياسة المالية إلى فساد العمران [100] .

الوزارة في عهد البويهيّين :

لما دخل البويهيّون بغداد سنة 334 هـ / 945 ـ 946 م أصبح كاتب الأمير البويهي يقوم مقام الوزير فكان لأمير العراق معزّ الدّولة (356 هـ) ولأخيه ركن الدّولة (366 هـ) أمير الريّ والجبل وزير ولأخيه الثاني عماد

(97) من مظاهر الإجلال بناء دار خاصة للوزارة على دجلة .
(98) كان الخليفة يشترط على الشخص قبل تعيينه وزيرا أن يدفع له كل سنّة من خزينة الدّولة مقدارا من المال فإن لم يفعل عزله وأمر بمصادرة أمواله .
(99) كان الجند يثورون إذا لم تدفع جراياتهم وأحيانا يقتلون الوزير .
(100) انظر دراسة بالفرنسيّة " الوزارة العباسيّة Le Vizirat Abbasside دمشق ، 1961 ص 150 ـ 152 .

الدّولة (ت 338 هـ) أمير منطقة فارس وزير . ومهام الوزير البويهي محصورة في الإشراف على ديوان الرسائل [101] والدواوين المالية .

يُفيد مسكويه أنّ وزير ركن الدولة أبا الفضل بن العميد كان يقود الجيش ويضع خطط الحرب [102] وفي أيّام عضد الدّولة (ت 372) الذي شملت إمٰارته كلّ ممالك البويهيّين أسندت الوزارة إلى غير المسلمين ويرى الماوردى في الأحكام السلطانيّة أنّ « الإسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ » [103] أي أنّ تعييّن وزراء غير مسلمين جائز إذا كانت الوزارة وزارة تنفيذ وغير جائز إذا كانت الوزارة وزارة تفويض لأنّ الوزير في وزارة التفويض يتفرّد بوضع سياسة الدّولة وبتدبير شؤونها .

ملاحظة :

في القرن الرّابع كادت الوزارة تكون وراثيّة فابن مقلّة أحد وزراء المقتدر خلفه ابنه وهو في الثامنة عشرة وكذلك تولى أبو الفضل بن العميد الوزارة بعد أبيه في أيّام ركن الدّولة وله من السنّ إحدى وعشرون سنة وتقلّد من آل خاقان أربعة وزراء في سبعين سنة وتقلد الوزارة أربعة من بني وهب في خمسين سنة وهذه الأمثلة تدلّ على نشوء عائلات أرستقراطيّة ارتبطت مصالحها الماديّة والمعنويّة بمصالح الخلفاء والأمراء وفيها تكوّنت أجيال من الوزراء والكتّاب تلقّوا تكوينا يجمع بين العلوم الدينيّة والأدبيّة وربّوا على خدمة الدّولة .

---

(101) اشتهر في فنّ الترسّل أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة .
(102) مسكويه في تجارب الأمم ـ طبعة أميدروز (Amedroz) ص 184 .
(103) الأحكام السلطانيّة ـ الطبعة المذكورة ـ ص 27 .

الوزارة في عهد السّلاجقة :

في عهد السلاجقة الأوّل (447 / 1055 هـ - 485 / 1092 هـ) كانت الوزارة في أوّل الأمر حجر الزاوية في الإدارة المركزيّة فكان لوزير السّلطان السلجوقي النظر في أجهزة هذه الإدارة : ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) والدواوين المالية وأشهر وزراء هذه الفترة نظام الملك (ت 485 هـ) وزير ألب أرسلان ومؤسّس المدارس النظاميّة . لكن ابتداء من أيّام السّلطان بركياروق (ت 489 هـ) ضعف مركز الوزير. ففي حين كان الوزير في عهد السّلاجقة الأوّل يتّصل مباشرة بالسّلطان أصبح بينه وبين السّلطان حاجز يمثّله وكيل الدّار (دار السلطان) والأمير الحاجب ونتج عن هذا أن أصبح السّلطان يتعامل مباشرة مع رؤساء الدّواوين دون أن يستشير الوزير .

أخيرا نلاحظ أن الخليفة العبّاسي المقتفي عيّن ابن هبيرة وزيرا له سنة 544 / 1150 فاستبقاه الخليفة المستنجد باللّه (ت 566 / 1170) ويدخل هذا التعيين وهذا الإثبات في سياسة الخليفة العبّاسي الرّامية إلى استرجاع سلطته ومشمولاته التي انتزعت منه منذ عهد الأمراء البويهيّين .

الوزارة في الدولة الفاطميّة :

لم تكن الوزارة بإفريقيّة مؤسسة قارّة في الدولة الأغلبيّة وفي أيّام الفاطميّين. زالت هذه المؤسسة فكان الخليفة يقوم بنفسه على شؤون الدّولة مستعينا في المسائل المالية بأهل الأختصاص وفي أيّام المعزّ امتدّ نفوذ الفاطميّين إلى المغرب الأقصى فآجتمعت كلّ الظروف لبعث مؤسسة الوزارة نظرا إلى تشعّب الجهاز الإداري ولكنّ هذا الخليفة اقتداء بوالده اسماعيل المنصور وجدّه القائم (ت 334 هـ) حرص على أن ينفرد بتسيير شؤون الدّولة وألاّ يعيّن

وزيرا وإن كان لخادمه جوذر أقرب المقرّبين إليه من المسؤوليات والصلاحيات ما يجعله في مقام وزير تنفيذ [104] .

ثم اتخذ الفاطميّون الوزراء بعد انتقالهم إلى مصر . وكان ابن كلّس أوّل وزير فاطمي وكانت الوزارة في أوّل الأمر وزارة تنفيذ ثمّ قويت سلطة الوزير في أيّام الخليفة المستنصر (ت 487 / 1094) حتى إنّه لقب بالملك [105] وبعد موت هذا الخليفة وانقسام الاسْمَاعلية إلى فرقتين النزارية والمستعلية ظهرت علامات الضعف على الخلافة وآشتدت الأزمة بعد قتل الخليفة الآمر باللّه سنة 524 / 1130 فتعدّدت الدسائس والاضطرابات واستطاع بعض الوزراء ومنهم وزير الخليفة الحافظ أن يستبدّوا بالحكم أو على الأقلّ أنّ يفرضوا أنفسهم إلى أن انقرضت الدّولة الفاطميّة .

الوزارة في الأندلس وفي المغرب :

في الدّولة الأمويّة بالأندلس كان الحاجب كما قلنا الشخصيّة الأولى في الحكومة في حين أنّ الوزير كان في مرتبة الكاتب وقد أفرد لكلّ ميدان وزير فجعل للشؤون المالية وزير والديوان الرّسائل وزير وللنظر في حوائج المتظلمين وزير ولأحوال أهل الثغور وزير [106] .

(104) لمزيد من التفاصيل انظر أطروحة فرحات الدّشراوي - المرجع المذكور ص 303 - 314 .

(105) من الوزراء الذين لقبوا بهذا اللّقب الأملك الأفضل وقد ولي الوزارة في خلافة المستنصر باللّه الذي قتل سنة 515 / 1121 بإيعاز من الخليفة الآمر الذي كان يُريد التخلّص من وزير قويت شوكته واصبح خطرا عليه .

(106) ابن خلدون - المقدّمة - الطبعة المذكورة ص 424 .

وفي الدّولة الموحّدية كانت الحكومة تتركب من الوزير ومن الكتّاب وأهمّهم صاحب الأشغال المكلّف بالشؤون المالية وكان الوزير يعيّن غالبا من بين الأشياخ الموحّدين [107] .

وفي الدّولة الحفصيّة كان لأبي زكرياء الأول (ت 647 هـ) ثلاثة وزراء [108] وزير الجند ووزير المال (صاحب الأشغال) ووزير الترسيل (أي المشرف على ديوان الرسائل) وكان وزير الجند الشخصيّة الأولى في الحكومة ويلّقب برئيس الدّولة أو كبير الدولة أو صاحب الدّولة [109] وإن كان من الأشياخ الموحّدين لقّب بشيخ الدولة ولكن ابتداء من أيّام السّلطان أبي بكر الثاني (ت 749) أصبح الحاجب كما قلنا الشخصيّة الأولى في الحكومة عوضا عن وزير الجند .

تعقيب :

إنّ الوزارة حجر الزاوية في الإدارة المركزّية أو هي كما يقول ابن خلدون في المقدّمة « أمّ الخطط السلطانيّة » إذ الوزير في مفهوم الكلمة الأوّل هو بمثابة رئيس الحكومة اليوم ولكنّ هذه الخطّة المستحدثة لم تكن دوما ثابتة القواعد والوظيفة كما رأينا شأنها شأن الحجابة ففي وزارة التنفيذ كانت مهمّة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وتنفيذ السياسة التي وضعها أو على الأقلّ التي رسم خطوطها الكبرى وقد وافقت فترة وزارة التنفيذ العهد العبّاسي الأوّل لما كانت مؤسسة الخلافة قويّة ثم جاءت فترة وزارة التفويض وفيها انفرد الوزير

---

(107) السيّد والشيخ مصطلحان في تاريخ الموحّدين فالسيّد هو من كان من سلالة عبد المؤمن الكومي المؤسس الفعلي للدّولة الموحدّيّة والشيخ هو من كان من العائلات الموحدّية الكبرى مثل عائلة الحفصيين نسبة إلى جدّهم عمر بن حفص .

(108) لمزيد التفاصيل انظر أطروحة برنشفيك . المرجع المذكور ص 52 وما بعدها .

(109) رئيس الدولة في المفهوم الصحيح هو السّلطان الحفصي ولكن لقّب الوزير بهذه الألقاب تعظيما له .

بتدبير شؤون الدّولة. وكان ظهور هذا النوع من الوزارة في فترة تأزّم سياسي ومالي. على أنّ هذا الظهور لا يعني تغلّب الوزير على الخليفة فقد عمد المقتدر إلى تفويض سلطته إلى الوزراء عن طواعيّة لكثرة المشاكل التي كانت تواجه الدّولة (استبداد الولاة بأقاليمهم وقلّة موارد الخزينة وشغب أمراء الجيش) وفضّل تقديمهم على الركح حتى يكونوا هدف الرّامين عوضا عنه وهذه الملاحظة لا تنفي حالات استبداد الوزير بالسّلطة مثلما فعله بعضهم في الدّولة الفاطميّة (الملك الأفضل) لكن حتى في هذه الحالة فإنّ السّلطة العليا بقيت بأيدي المدنيّين إذ الوزير عادة ما يكون من الكتّاب أمّا مع البويهيّين والسّلاجقة والإلخانات (بالعراق وغربيّ بلاد الفرس) والمماليك بمصر والشام فقد تحوّل النفوذ من المدنيّين إلى العسكريّين الذين جمعوا بين السّلطة السياسيّة وسلطة المال المتأتية من الإقطاع ولذلك مثلا كانت رتبة الوزير دون رتبة وكيل الدّار والحاجب وهما من الأمراء (فؤاد الجيش) وكانت مهمّة الوزير مقصورة على أخذ الجباية في دولة المماليك .[110]

(110) المقدّمة ـ الطبعة المذكورة ص 419 .

الدواوين

اختلفَ في أصل كلمة ديوان فقيل هي مأخوذة من الفارسية « ديف » (dev) أي شيطان وسمّى الكتّاب (كتّاب الدواوين) شياطين لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجليّ والخفيّ وجمعهم ماشدّ وتفرّق ثمّ أطلقت كلمة ديوان على مكان جلوسهم [111] ورأى البعض - وهذا الرأي هو الأرجح - أنّ لفظة ديوان مشتقّة من دوّن أي سجّل فيكون معنى ديوان السجلّ أو الدفتر أطلقت على المكان الذي يحفظ فيه السجّل .

لكن حتى وإنّ كانت اللّفظة عربيّة الأصل فإنّ التنظيم الإداري في الإسلام تأثر بالنظم البيزنطيّة والفارسيّة بالعراق وإيران والدواوين البيزنطيّة والفارسيّة التي أبقى عليها المسلمون بعد الفتوحات فأقرّوا الدّواوين الفارسيّة بالعراق وإيران والدواوين البيزنطينة في مصر والشام .

وكلمة ديوان في التاريخ الإسلامي تعني تارة ما اصطلح على تسميته

(111) أبو يعلى الفرّاء - الأحكام السلطانيّة - طبعة البابي الحلبي 1356 هـ / 1938 م ص 221 .

اليوم وزارة وطورا مصلحة (Service) متفرعة عن الوزارة لها وظيفة خاصّة وقد تعنى أيضا مصلحة جهويّة (Service régional) مختصّة إذ كانت للولايات دواوينها ويمكن أن تقسّم الدّواوين إلى أربعة أقسام كبرى :

- ديوان الرسائل والإنشاء
- ديوان البريد
- الدواوين المالية : بيت المال (Le Tresor) وديوان ضرب السكة (النقد) وديوان الجباية بأنواعها المختلفة [112] ديوان النفقات المدنيّة - ديوان الزّمام
- ديوان الجند أو الجيش

1) الدواوين في عهد الخلفاء الراشدين :

إن أوّل ديوان أحدث في الإسلام هو ديوان. الجند الذي أنشأه عمر بن الخطاب بالمدينة . وفي هذا الديوان (أو السجلّ) قيّدت أسماء أهل المدينة وأسماء المشاركين في الفتوحات وكذلك أسماء الذين التحفوا مع عائلاتهم بالوحدات العسكرية المكلّفة بحماية الأقاليم المفتوحة وتسمّى هذه الوحدات الأجناد [113]. وقد قام بعمليّة الإحصاء ثلاثة نسابين (العارفين بالأنساب) فكان التسجيل حسب القبائل . وبالإضافة إلى ديوان بالمدينة أنشئت دواوين جند بالبصرة والكوفة والفسطاط . وفيما يخص الشؤون الماليّة فقد دعمّ بيت المال وأقرت دواوين الخراج السّاسانيّة بالعراق وإيران والبيزنطيّة بمصر والشام .

---

(112) يضمّ هذا الديوان الكبير دواوين فرعيّة سنتعرّض إليها .

(113) مثل جند الفسطاط بمصر والكوفة بالعراق .

2) الدواوين في الدّولة الأمويّة :

احتاجت الدّولة في عهد الأمويّين إلى دواوين جديدة تساير تطوّرها وتنظيم إدارتها والدواوين المستحدثة هي :

- ديوان الرسائل وهو يعنى بمراسلات الخليفة مع الولايات وكذلك مع الدول الأجْنَبِيّة. والخليفة كان يقرأ الرّسالة ويوقّعها أي يحشّيها بأوامر وتوجيهات ويتولى الكاتب (Secrétaire) تحرير الردّ معتبرا الأوامر والتوجيهات الصّادرة عن الخليفة .

- ديوان البريد ويسمّى المشرف عليه صاحب البريد وهذا الديوان مؤروث عن السّاسانيّين ومهمّته تنظيم الاتصالات وضروب التنقل وآلاته بين العاصمة ومدن المملكة الأخرى وكذلك تلقّي الأخبار عن طريق أصحاب البريد في الولايات ونقلها إلى الخليفة. فالمهمّة إذن مزدوجة تجمع بين ما نسميه اليوم البريد (Poste) والإستعلامات أو المخابرات فعلى صاحب البريد أن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجرى في أمور الرعيّة وما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم كما عليه أن يعرف عدد المسالك (الطرق) وأميالها ومحطاتها حتى إذا ما احتاج الخليفة إلى معلومة ما قدّمها له فورا وبكلّ دقة .

وفيما يخص الشؤون المالية فقد تعدّدت الدواوين فبالإضافة إلى بيت المال وديوان الخراج (ومعنى الخراج الضريبة على الأرض) أحدث :

- ديوان الصدقة وفيه تجمع موارد الزكاة والعشر [114] لتوزّع على من يستحقّونها .

- ديوان النّفقات وفيه تضبط النفقات على الجيش (التسليح والكسوة والأعطيات) وجرايات أعوان الحكومة والمصاريف في المصلحة العامّة .

---

(114) العشر جزء من الزكاة يكون فقط على المحاصيل الزراعيّة في حين أن الزكاة تكون على الأموال بصفة عامّة .

- ديوان المستغلات الذي يعنى بأملاك الدّولة غير المنقولة (biens immobiliers) كالأبنية والأسواق وفي العهد الأموي بقي ديوان الجند على حاله وأعيد إحصاء العسكر حسب القبائل مرّات. وعلى سبيل المثال تمّ إحصاء الجند بمصر ثلاث مرّات آخرها سنة 95 / 714 في أيّام الخليفة الوليد بن عبد الملك (ت 96 هـ). أخيرا نُضيف ديوانا يخرج عن التقسيم الكبير المذكور (الكتابة - الأموال - الجند) وهو ديوان الطرّاز ومهمّته الإشراف على المصانع التي تعمل بها الأزياء الرّسمية والألوية .

تعريب الدواوين : بدأت سياسة التعريب في خلافة عبد الملك بن مروان (ت 86 / 705) فقد كانت من قبل اللغة المستعملة في دواوين - الخراج الفارسيّة بالعراق وإيران واليونانية بالشام واليونانية والقبطيّة بمصر كما أن التواريخ كانت محليّة وابتداء من خلافة عبد الملك بن مروان عوّضت التواريخ المحليّة بالتاريخ الإسلامي القمري وعرّبت الدواوين بصفة تدريجيّة . ففي أيّام هذا الخليفة عرّبت دواوين العراق (سنة 78 / 697) والشام (81 / 700) ثم تمّ تعريب دواوين مصر (87 / 706) في خلافة الوليد بن عبد الملك (ت 96 / 714) ودواوين خرسان (124 / 742) في خلافة هشام بن عبد الملك (ت 125 / 742) وأصبحت العربيّة اللغة الرسميّة .

3) الدواوين في الخلافة العبّاسيّة :

احتفظ العباسيّون بتنظيمات الدّولة الأمويّة وأحكموا سيرها وأضافوا دواوين جديدة على أنّ أهمّ تغيير تمثل في إنشاء الوزارة . ومن الدواوين التي أحدثوها :

- ديوان الضياع السّلطانيّة في أيّام أبي العبّاس السفاح .

- ديوان المصادرة في خلافة المنصور ومهمة هذا الديوان الإشراف على أموال الأعداء السياسيّين بعد أخذها .

ـ ديوان الأحشام (أو الحشم) في خلافة المنصور كذلك. وهذا الديوان كان يعتني بخدم القصر وحرّاسه. وظهورُه يشير إلى كثرة عددهم إذ لو لا ذلك لما وقع التفكير في إنشاء ديوان خاصّ بهم .

ـ ديوان الرقاع في نفس الخلافة وهو ديوان مكلّف بتسلّم شكاوى الرعيّة وتقديمها إلى الخليفة وموضوع الشكاوى، هذه هو مثلا غلاء الأسعار أو المصادرة أو السجن ظلما .

وفي خلافة المهدي أنشيء ديوان المظالم الذي يرأسه الخليفة والذي ينظر في شكاوى الرعيّة من ظلم الولاة وأعوان الدّولة بصفة عامّة .

كما أنشئت دواوين الزمام وهي مصالح مهمّتها مراقبة أعمال الدواوين وحساباتها فكان لِكلّ ديوان مصلحة تقوم بهذه المراقبة. وفي سنة 168 / 784 أحدث هذا الخليفة زمام الأزمّة الذي عهدت إليه مراقبة كلّ دواوين الزمام .

وفي خلافة المتوكل (ت 247 هـ) أحدث ديوان الموالي والغلمان (والغلمان المماليك الأتراك) وهذا الديوان يذكرنا بديوان الأحشام إلاّ أن التسمية الجديدة تشير إلى كثرة المماليك الأتراك في تلك الفترة .

ويحدّثنا الجهشياري في مؤلفة « الكتاب » عن ديوان الخاتم وعن ديوان السرّ والأوّل قديم أمّا الثاني فهو محدث وتكمن أهميّته في أن القائم عليه وثيق الصّلة بالخليفة .

وفي القرنيين الثالث والرّابع الهجريين / التاسع والعاشر م بلغت الدواوين أوجها في التنظيم والتنوّع . فقد أنشأ الخليفة الخليفة المعتضد (ت 289 هـ) ديوان الدّار (أي دار الوزير) ويسمّى أيضا ديوان الدّار الكبير الذي ضمّ كلّ دواوين الخراج الموزّعة على عواصم الولايات. فكان الاتجاه إذن نحو مزيد من المركزيّة (Centralisation). ثمّ قسّم الخليفة المستكفي (خلعه البويهيّون عند دخولهم بغداد سنة 334 هـ) الدّيوان الكبير إلى ديوان المشرق وديوان

المغرب وديوان السّواد (أي العراق). وبعد دخول البهويهيّين لم يبق إلاّ ديوان السّواد . وتفرّع بيت المال الذي كانت تضبط فيه الموارد نقدا وعينا وكذلك النفقات إلى فروع منها ديوان الكسوة (الأقمشة) وديوان الأهراء (مخازن الحبوب) وديوان خرائن السّلاح وديوان أراضي الدّولة .

وقسّم ديوان الجند إلى قسمين الأوّل يعتني بالرواتب وغيرها من نفقات الجيش والثاني بتصنيفهم وسمّي الأوّل بمجلس التقرير والثاني بديوان المقابلة وقسّم كذلك ديوان الرّسائل إلى دواوين صغيرة تابعة له : ديوان الفصّ (أيّ فضّ الرسائل وتلخيصها على الرّقعة نفسها قبل تقديمها إلى الوزير) وديوان التوقيع وديوان الخاتم .

4) الدواوين في أيّام البويهيّين (334 - 447 هـ)

بقي جهاز الإدارة المركزيّة في هيكله العام كما كان قبل دخول البويهيّين بغداد وإن زالت بعض الدواوين الفرعيّة وتغيّرت أسماء الدواوين الكبرى. فمنذ عهد البويهيّين أصبح ديوان الرسائل يسمّى ديوان الإنشاء وصاحبه بكاتب الإنشاء كما أصبح ديوان الجند يسمّى ديوان الجيشين الدّيْلَم (ومنهم البويهيّن) والترك وسمّي ديوان بيت المال بديوان الخزائن أو ديوان الخزن وسمّى المشرف عليه الخازن وكان الخازن أحيانا يشرف كذلك على ديوان النقد والعيار الذي كان يطلق عليه أيضا اسم ديوان الضرب (ضرب السكّة). وإلى جانب ديوان السّواد كان ديوان النفقات وديوان الأزمّة المشرف على دواوين الزمام المجعولة لمراقبة سير الدواوين وحساباتها .

5) الدّواوين في أيّام السلاجقة :

- ديوان الإنشاء : وكان يشرف عليه الوزير أو كاتب يسمّى صاحب الدّيوان ثم سمّي هذا الديوان الديوان العزيز .

- ديوان الجند :

- ديوان المخزن المعمور (أو الخزن) والمقصود بهذه التسمية بيت المال ويطلق على القائم عليه اسم صاحب المخزن أو الصدّر ويشمل هذا الديوان عددا من الدواوين الفرعيّة على رأس كلّ واحد منها ناظر ومن هذه الفروع ديوان الجوالي أي الضريبة على الرأس وعلى المواريث في أهل الذمّة وديوان التركات الحَشْريّة أي التي لا وارث لها والتي تأخذها الدولة وديوان العقار الذي يهتّم بأملاك الدّولة غير المنقولة (Immeubles) .

- ديوان الزمام والاستيفاء الذي يقوم مقام ديوان الخراج وعلى رأسه كاتب الزمام الملّقب بالصدر .

6) الدواوين بمصر

أ) في أيّام الفاطميّين :

- ديوان الإنشاء ورئيسه يسمّى صاحب الإنشاء أو كاتب الدّسْت الشريف ويشمل هذا الدّيوان ثلاثة أقسام كبرى: ديوان النظر (أي الإشراف أو المراقبة) وعلى رأسه المتولّي أو المشيدّ الملّقب بالشيخ الأجلّ لرفعة منزلته إذ هو الذي كان يتصل بالإمام (الخليفة) ويقدّم له الوثائق والرسائل ويقترح عليه الجواب .

- ديوان التوقيعات بالقلم الدّقيق الذي يهتّم بتسجيل أوامر الإمام في شأن الشكاوي المقدّمة إليه في المجالس العموميّة وأخيرا ديوان التوقيعات بالقلم الحليل الذي ينفّذ أوامر الخليفة بعد أن يدعّمها بمستندات قانونيّة .

وإلى جانب هذه الأقسام الكبرى كانت هناك مصالح صغرى : ديوان المكاتبة إلى الملوك وآخر إلى أمراء الدّولة وكبرائها، وآخر للمناشير وديوان الكتب اللطاف (القرارات السريّة) وديوان الإنشاءات والتقليد (أي التّسميات) .

- ديوان الجيش والرواتب ويتكوّن من قسمين ديوان الجيش وعلى رأسه المسْتَوْفِي الذي كان يهتّم بالتجنيد والتجهيز والمراقبة ، وديوان الرّواتب (الجرايات) ، ولما كان الفاطميّون يولون أهميّة إلى الأسطول البحري فقد أحدثوا ديوانا يعني ببناء السفن ويسمّى ديوان العمائر .

- ديوان الأموال وهو مقسّم إلى عدّة مصالح : ديوان النظر (المراقبة) .

- ديوان الرّواتب [115] :

- ديوان المجلس وكان يهتّم بالإقطاع (- أي منح الإقطاعات من أراضي الدّولة) [116] ديوان أسفل الأرض [117] (أي ديوان الخراج والضرائب الخاص بشمال واد النيل من أسيوط تقريبا) وديوان أعلى الأرض وديوان الثغور (الإسكندريّة ودمياط وتنّس وعيْذاب على البحر الأحمر) أي الموانئ التجاريّة التي كان يؤخذ فيها على البضاعة المتّوردة ضريبة تبلغ أحيانا الخمس وغيرها من الدّواوين مثل ديوان الجوالي (الجزية وضريبة الإرث على الذمّيين) وديوان الأملاك الحشريّة وديوان الأحباس الذي أسسّه الخليفة المعزّ لدين اللّه سنة 363 / 974 وكانت مهمّته إدارة الأملاك المحبّسة على المساجد وغيرها من مؤسسات الخير .

ب) وفي أيّام الأيوبيّين كان رئيس ديوان الإنشاء الوزير نفسه [118] ومعينه الأول يسمّى متولّي كتابة الإنشاء وبقي ديوان الجيش فيما يبدو على

---

(115) كانت رواتب الجيش تصرف من الديوان الخاصّ بهم (ديوان الجيش والرواتب) .

(116) عن الإقطاع آنظر مقال كامين (Claude Cahen) في دائرة المعارف الجديدة.

(117) تشير المصادر إلى أن هذا الديوان قديم سابق للدّولة الفاطميّة فقد ذكر في برديّ (papyrus) مؤرخ بسنة 143 هـ / 761 .

(118) أوّل وزير في الدّولة الأيوبيّة هو القاضي الفاضل محي الدّين (ت 596 / 1200) الذي سماه صلاح الدّين في الوزارة وقد اشتهر في ميدان الأدب برسائله السجعيّة والمتّسمة بالتصنّع .

حاله كما كان في أيّام الفاطميّين أمّا بيت المال فقد قسّم إلى قسمين كبيرين الأوّل ديوان الأعمال ويضمّ ديوان أسفل الأرض والثغور والثاني ديوان الباب الذي يضمّ ديوان الزكاة والجوالي وديوان النظر المراقب للدواوين المالية الأخرى ولديوان الإقطاع .

ج) وفي أيّام المماليك كانت المنزلة الأولى كما سبق أن ذكرنا لأصحاب أو أرباب السيوف وقد عرف التنظيم الإداري تغييرين هامّين الأوّل في أيّام السّلطان محمّد بن قلاوون (ت 741 / 1341) الذي أزال الوزارة سنة 710 / 1310 ووزّع الوظائف التابعة لها على أربعة موظفين : ناظر المال ومشدّ الدواوين [119] والناظر الخاص (مراقب أموال السّلطان) وكاتب السرّ المشرف على ديوان الإنشاء ثمّ جاء السّلطان الظاهر سيف الدّين برقوق (ت 801 / 1399) فأعاد الوزارة ولكنّ مهمّة الوزير اقتصرت على أخذ الجباية ومن جهة أخرى دعمّ هذا السّلطان الدّيوان الخاص فألحق به ديوان ثغر الإسكندريّة وأنشأ ديوان المفرد وهو ديوان مهمّته مراقبة رواتب مماليك السلطان ولباسهم .

- ديوان الإنشاء ويسمّى كذلك كتابة السرّ : إن القائم على رأس هذا الديوان ويسمّى كاتب السرّ هو الشخصية الأولى من بين الأعوان المدنّيين فهو الذي يتلقى الرسائل ويعرضها على السلطان ويقدّم له السّفراء ولكن منزلته دون منزلة الدّودار (وكيل دار السلطان) الذي هو من أصحاب السّيوف .

- ديوان البريد : عرف هذا الديوان تطوّرا هامّا في أيّام المماليك فكان نقل الأخبار عن طريق المشاة المشهورين بسرعتهم وبواسطة ركبة الخيل وكذلك الحمام . ولئن كان على رأس هذا الديوان في الأوّل رئيس خاصّ (صاحب البريد) فقد ضمّ فيما بعد إلى ديوان الإنشاء وأصبح كاتب السرّ رئيس ديوان الإنشاء والبريد معا .

---

(119) مشدّ الدواوين أي مراقبها (Surintendant) .

- ديوان الجيش ويسمّى كذلك ديوان الجيوش المنصورة . وكان مقسّما إلى ديوان الجيش المصري وديوان الجيش الشامي ولّما كان قوّاد الجيش يرتزقون من الإقطاعات سمّى هذا الدّيوان أيضا بديوان الإقطاع .

- ديوان الأموال : كان تحت سلطة رجل من أصحاب السيّف الأسْتادار الذي كان يشرف في الحين نفسه على ديوان المفرد، ومن الدواوين التابعة لهذا الديوان الكبير ديوان الموارث الحشريّة وديوان الزكاة وديوان الأحباش وديوان الوجه القبلي (أعلى الأرض) وديوان الوجه البحري (أسفل الأرض) وكان على رأس كل منها ناظر .

7) الأندلس والمغرب :

إن التنظيم الإداري في عهد الخلافة بالأندلس كان قائما على أربعة دواوين كبرى يشرف على كلّ واحد منها وزير :

- ديوان الرسائل (أو الترسيل) ومن خططه التوقيع والختم ويبدو أن ديوان البريد كان تابعا له .

- ديوان الخراج والجبايات ويسمّى كذلك ديوان الأشغال أو ديوان الأعمال [120] وفي صلب هذه الدائرة يقوم ديوان الزمام بمراقبة الحسابات .

- بيت المال وبه تجمع الأموال المأخوذة شرعا (الزكاة والعشر) وديوان الخزانة وبه الأموال المتأتية عن الضرائب غير الشرعيّة (المكوس) .

- ديوان الجيش (وسمّي كذلك ديوان الجند أو ديوان العساكر) وكانت وظيفته إحصاء أفراد الجيش بصفة مستمرّة وصرف أرزاقهم (رواتبهم) وكذلك الأعطيات (منح تعطى عند الدّخول في الحرب) وتوزيع الإقطاعات على القوّاد) .

---

(120) عبارة ديوان الأشغال أو الأعمال والمقصودة بها الشؤون المالية عبارة مستعملة في الأندلس والمغرب دون المشرق .

وقد تبنّى ملوك الطوائف هذا التنظيم الإداري فكان لكلّ مملكة أربعة دواوين كبرى .

أما في المغرب (شمال إفريقيا) فإنّ المعلومات التي جادت بها المصادر توحي بأن التنظيم في هذه النواحي لا يختلف في جوهره عن التنظيم بالأندلس فهو يقوم في الدّولة الأغلبيّة على دواوين الرسائل والبريد والخراج وبيت المال والسكة والجيش .

وقد ورث الفاطميّون هذا التنظيم [121] إلاّ أنّ ديوان الرسائل لم يبلغ الأهميّة التي كانت له في الأندلس ، ثمّ إنّ أشهر الكتّاب كانوا من المشرق ومنهم أبو جعفر محمّد بن أحمد الهارون البغدادي في خلافة المهدي . وفي أيام هذه الخليفة أحدث ديوان خاص « ديوان الكشف » (مصلحة المخابرات) مهمّته الإطلاع على أخبار الأعداء السياسيّين بإفريقيّة وعلى موقف الرعيّة التي كانت في مجملها سنيّة ثمّ ألحقت هذه المصلحة بديوان البريد سنة 300 / 913 .

وفي ما يخص الشؤون المالية أطلقت في عهد إسماعيل المنصور الخليفة الثالث (ت 314 هـ) عبارة الديوان أو ديوان المنصوريّة [122] على الإدارة المالية المركزية التي ضمّت بيت المال وديوان الخراج والجباية والدّيوان الخاص [123] (ديوان أموال الخليفة) وديوان العطاء والرزق (رواتب الجيش والأعطيات) .

(121) عن التنظيم الاداري آنظر أطروحة فرحات الدّشراوي - الطبعة المذكورة - ص 314 وما بعدها .

(122) المنصوريّة مدينة متّصلة بالقيروان (صبرة المنصوريّة) بناها اسماعيل المنصور سنة 337 هـ وجعل منها عاصمة الخلافة .

(123) مصدر هذه الأموال الضياع الأغلبيّة وبالخصوص ضريبة الخمسّ التي كان على الإسماعيليّين حيثما كانوا دفعها إلى الإمام وهذه الضريبة تشمل الأموال القارة (العقار) وغير القارة .

وما يلاحظ في شأن الدواوين المالية أنّ الموظفين بها كانوا في أغلبهم من العبيد أو من الموالي المسيحيّين الذين أسلموا [124] .

وأمّا ديوان الجيش فكانت مهمّته ضبط قائمة العساكر حسب النسب (الانتماء القبلي) وتحديد مبلغ العطاء والرزق وكان الجيش النظامي يتكوّن أساسا من قبيلة كتامة البربريّة وهي القبيلة التي بدأت بها الدّعوة الإسماعليّة بافريقيّة والتي مكنت الدّاعي أبا عبد الله الصنعاني من الزّحف على افريقيّة وفتح مدنها وإقامة الدّولة الفاطميّة سنة 296 / 909 .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميّين ورثوا عن الأغالبة قوّة بحريّة حرصوا على دعمها ولا أدلّ على ذلك من سيطرتهم على غربيّ البحر الأبيض المتوسّط في خلافة المعزّ من سنة 341 إلى سنة 362 هـ. لكنّ المصادر التي تذكر دور المهديّة في بناء السفن لا تمدّنا بمعلومات كافية عن الأسطول نفسه فلا نعرف هل أنّ الفاطميّين مثلا أحدثوا ديوانا خاصّا به كما فعلوا فيما بعد عند انتقالهم إلى مصر (ديوان العمائر) أم لا .

أمّا الدّولة الموحديّة فقد تبنّت التنظيم الإداري الأندلسي وكان أغلب الموظفّين في الدواوين وبالخصوص في ديوان الإنشاء من الأندلس وكذلك الأمر في الدّولة الحفصيّة [125] فأهمّ المصالح العموميّة فيها .

- ديوان الرسائل وعلى رأسه صاحب العلامة [126] والإنشاء .
- ديوان البريد بيت المال .

---

(124) كذلك كان الأمر في الأندلس .

(125) لمزيد من التفاصيل عن التنظيم الإداري في الدّولة الحفصيّة التي دامت من 626 إلى 981 هـ آنظر روبير برنشيفك . المرجع المذكور ج 11 ص 61 94 .

(126) العلامة (paraphe) تنقسم إلى العلامة الكبرى التي يرسمها صاحب ديوان الإنشاء وهي المقصودة هنا والعلامة الصغرى وهي التي يرسمها كاتب من كتّاب الديوان .

- ديوان الأشغال (أي المالية) الذي يتفرغ إلى عدّة مصالح منها ما تعنى بأخذ الخراج والأعشار والمكوس ومن المكوس ضريبة تؤخذ على البضائع عند باب مدينة القيروان ولذلك سميّ الديوان الخاصّ بها ديوان الباب والضريبة على البضائع المستوردة بحرا والتي أحدث لها ديوان في كلّ ميناء يسمّى رئيسه المشرف (chef de douane) وكلّ هذه الدواوين الجهويّة تحت مراقبة ديوان مركزي سمّي ديوان البحر أو الدّيوان .

- ديوان الجيش الذي يعنى فقط بالجيش النظامي ودفع رواتبهم .

تعقيب :

لا شكّ أنّكم لاحظتم أننا لم نتعرّض في هذه المسألة إلى الدّواوين في كلّ البلاد الإسلاميّة لأن الغاية المنشودة ليست عرضا مفصّلا لجهاز الحكومة في كلّ دولة وإنّما التركيز على نشأة الدواوين في الإسلام وتطوّرها من خلال بعض الأمثلة وبيان وظائفها - والتعريف بالمصطلحات المستعملة في تسميتها .

الإمـــارة

لمّا قوي ساعد الإسلام في الجزيرة العربيّة بعث الرّسول عددا من العمّـــال (ج . عـامل) ينوبونه في بعض المدن والقبـائل الكبـرى بالحـجـاز واليـمَن وتتلخّص أهمّ وظائفهم في إمامة المسلمين في الصلاة وفي جمع الزكاة وكان له أيضا عمال في المدن غير الإسلامية من الجزيرة العربيّة اقتصرت مهمتهم على أخذ الجباية ومنهم عامل بعث به إلى خيبر ليسلّم من سكانها اليهود حصّة من المحصول الزراعي .

وفي أيّام عمر اتسعت أراضي الدولة الإسلامية بعد الفتوح الكثيرة فكان لا بدّ من تقسيم إداري تنظيمي. لهذا جعل عمر بلاد فارس ثلاث ولايـــات (ولاية سجستان ومكران وكرمان - ولاية طبرستان - ولاية خراسان) وجعل العراق ولايتين ومصر ولاية واحدة وكذلك الشام وعين بكل ولاية أميرا (ويسمى كذلك عاملا) هو في أغلب الأحيان قائد من قواد الجيش الفاتح وكان الأمير (أو العامل) يجمع بين عدة وظائف : فهو يقيم الصلاة بالناس ويأخذ الزكاة من المسلمين ويقضي بينهم كما أنّه يأخذ الجباية من أهل الذمّة ويقسم الغنيمة بين العرب الذي خرجوا من الجزيرة للجهاد فنزلوا بالبلدان المفتوحة وبعبارة وجيزة فقد كان الأمير في الحين نفسه إماما وقاضيا ومسؤولا عن الشؤون المالية والعسكرية .

وفي دولة بني أمية اتسعت سلطة الأمير (الوالي) فكان يؤمّ الناس في الصلاة وينظم الجيش ويقوده في الحرب ويعقد المعاهدات . ومن مشمولاته أيضا تعيين القاضي وصاحب الشرطة [127] وصاحب البريد بولايته ونوّابه في المدن الكبرى وقد يستشير الخليفة في تعيين هؤلاء النواب وقد لا يستشيره وكذلك الإشراف على الشؤون المالية فكان يأمر متى وكيف تؤخذ الجباية وقديغير نظامها بإذنٍ منه كانت الرواتب تدفع للموظفين والجند وتعطى العطايا للعرب النازلين بولايته [128] وتبنى المساجد والمبانى العموميّة والطرقات والحصون وتتعهّد. وبعبارة وجيزة فقد كان الحاكم في ولايته له حاجب وتحت سلطته كلّ الدواوين المحليّة (ديوان الرسائل - ديوان البريد - ديوان الخراج - ديوان الجند) وكلّ ما كان يطلب منه هو تقديم قائمة بالمداخيل والمصاريف وإرسال قسط من الأموال إلى خزينة الدّولة .

على أن سلطته هذه حدّ منها لّما وقع في عهد هشام بن عبد الله الفصل بين الشؤون الإدارية والعسكرية من جهة والشؤون المالية من جهة أخرى فخصّ الأمير بالأولى وعيّن شخص أخر ليهتم بالثانية ويسمى عامل الخراج ومن ذلك الحين أصبحت كلمة عامل تعنى غالبا [129] المشرف على الشؤون المالية في الولاية وكان تحت العامل المستقر بعاصمة الولاية أعوان منتشرون في بقية الولاية لأخذ الخراج ويسمى الواحد منهم عامل كورة (مجموعة من القرى) .

وفي العهد العباسي الأول تواصل العمل بالتنظيم الإداري الأموى مع تغييرات ناجّة عن نزعة العباسيين إلى مزيد من المركزية (centralisation) التي تجسمت في إحداث خطة الوزير ومن هذه التغييرات أن صاحب البريد

---

(127) سنعود إلى هذه الخطة في الصفحات الموالية .

(128) أسسّ عمر بن الخطاب ديوان العطاء لفـــائدة العرب ودام هذا الديوان إلى أيّام المعتصم (ت 227 هـ) الخليفة العباسى الثامن الذي أمر بتعطيله .

(129) نقول غالبا لأنّ الكلمة بعد التاريخ استعملت احيانا في معنى الوالي .

بالولاية وقضاتها خرجوا عن سلطة الأمير إذ كان الخليفة هو الذي يعيّنهم وقد كلف صاحب البريد بتقديم تقارير دوريّة إلى السّلطة المركزية يخبرها فيها بأعمال الأمير واحوال الولاية ، ولمّا تأسس ديوان المظالم ببغداد عين الخليفة في كل ولاية شخصا ينظر في شكاوى الرعيّة من أعوان الدّولة ومنهم طبعا الأمير وسمّى القائم بهذه الوظيفة صاحب النظر في المظالم . على أن الحدث الهامّ هو ظهور نوع من الإمارة جديد فقد عيّن الخلفاء العباسيون أمراء (أي ولاة) ومنحهم الحرية المطلقة في التصرف في ولاياتهم مقابل قسط من المال يدفعونه كل سنة وهؤلاء الأمراء هم الذين أقاموا دولا (dynasties) مستقلة فكانت علاقتهم بالخليفة محصورة في الحصول على عهد الولاية (قرار التسمية) وفي ذكر اسم الخليفة في الخطبة (خطبة الجمعة) وضرب السكة باسمه وهذه الدّول هي الدولة الأغلبية بأفريقيّة [130] والدّولة الطولونيّة [131] ثمّ الإخشيديّة [132] بمصر والدّولة الطاهريّة [133] بخراسان ثمّ الدّولة السامانيّة [134] بخراسان وبلاد ما وراء النهر (نهر جيحون : Oxus) .

ولمّا أدرك الخلافة العباسيّة الوهن استغل قواد من الجيش (ويسمون كذلك أمراء) الفرصة ليستولوا على بعض المناطق بالقوة وطلبوا من الخليفة العهد

---

(130) كتب الخليفة الرشيد لابراهيم بن الأغلب العهد بالولاية سنة 184 هـ / 800 م وجعل الامارة بعقبة يتوارثونها من بعده.

(131) كتب الخليفة المعتز لمحمد بن طولون العهد بالولاية سنة 254 هـ / 868 م ودامت الدّولة الطولونية إلى سنة 293 هـ / 905 م .

(132) تمّ العهد بالولاية في خلافة الراضي سنة 324 هـ / 935 م ودامت الدّولة الاحشيدية إلى سنة 359 هـ / 969 م .

(133) تمّ العهد بالولاية في خلافة المأمون سنة 205 هـ / 820 م ودامت الدّولة الطاهريّة إلى سنة 260 هـ / 873 م .

(134) قامت الدولة السامانية سنة 261 هـ / 874 م في خلافة المعتمد ودامت إلى سنة 390 هـ / 999 م .

بالولاية حتى يكتسبوا الشرعيّة ومن هؤلاء الأمراء بنو الصفّار بسجستان [135] (منطقة ببلاد الفرس تقع جنوب خراسان) والغزنويون [136] بافغانستان وبلاد السّند (باكستان اليوم) أما البويهيّون فإنهمّ لما دخلوا بغداد سلبوا الخليفة مشمولاته وكذلك فعل السلاجقة ولكنهم جميعا كانوا يطلبون من الخلفاء عهد الولاية ليضفوا على حكمهم الشرعيّة .

وقد عالج الماوردي في الأحكام السلطانية [137] مسألة الإمارة فقسّمها إلى إمارة خاصة وإمارة عامّة فالإمارة الخاصّة مقصورة على تدبير الجيش وسياسة الرعيّة أو بعبارة أخرى تدبير الشؤون الإداريّة والعسكريّة فقط فليس لأمير أن يتدخل في القضاء أو جباية الخراج ومثل هذا الأمير هو الأمير الذي حددّت مشمولاته في العصر العباسي الأول أمّا الإمارة العامّة فقسّمها هى الأخرى إلى قسمين .

إمارة إستكفاء

وإمارة استيلاء

وإمارة الإستكفاء هي الإمارة التي تعقد على اختيار أي أنّ الأمير يتولاها برضى الخليفة واختياره والأمثلة على هذا النوع من الإمارة إمارة الأغالبة بافريقية والإمارتان الطولونية والأخشديّة بمصر والإمارة الطاهريّة ثم السامانيّة بخراسان وأما إمارة الاستيلاء فتكون بعقد عن اضطرار أي أن الأمير يأخذها كرها فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها وهذا النوع من الإمارة يمثّله إمارة بني الصفار وإمارة الغزنويين .

---

(135) قامت هذه الدولة سنة 256 هـ / 869 م في خلافة المعتمد ودامت إلى سنة 290 هـ / 902 م .

(136) قامت هذه الدولة سنة 351 هـ / 962 م ودامت إلى سنة 479 هـ / 1186 م .

(137) الطبعة المذكورة ، ص 30 ـ 34 .

وكلا النوعين يفضيان إلى دول مستقلة يكون الحكم فيها وراثيا يتوارثه عقب مؤسس الدولة ويستند فيها الامير بالسياسة والتدبير، وما يجب أن نلاحظه هو أن الماوردي خضوعا للأمر الواقع عَدَّ إمارة الاستيلاء شرعيّة واشترط في صحتها بالخصوص محافظة الأمير على الدين وحراسة القوانين الشرعية وتطبيقها .

أخيرا نشير إلى أن نظام الإمارة (الولاية) كان معمولا به في الدّول التي استقلت عن السّلطة المركزية ببغداد أو التي قامت لتنازعها الشرعيّة مثل الدّولة الفاطميّة والدّولة الأمويّة بالأندلس والدّولة الموحديّة وكذلك في الدّول التي نشأت بعد زوال الخلافة العباسيّة وكان ممثل السلطة المركزية في الجهات يلقب بالوالي أو العامل [138] أو الأمير [139] أو القائد [140] .

(138) هما اللقبان الغالبان في الأندلس والمغرب .

(139) استعمل هذا اللقب خاصة في الدّول ذات الطابع العسكري مثل الدّول البويهية والسلجوقية والعثمانيّة .

(140) استعمل لقب القائد في الدّولة الحفصيّة للتمييز بينه وبين الأمير فإذا كان الوالي من العائلة الحفصيّة سمّي أميرا وإذا كان من غير هذه العائلة سمى قائدا .

القضـــــاء

جاء في سورة النساء " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحِكّمُوكَ فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجـــا ممّـــا قضيت ويسلموا تسليمـــا »(الآية 65) . فهذه الآية تفيد أنّ للرّسول فضلا عن مهمّته الدينيّة والسياسيّة مهمّة القضاء بين المسلمين في المدينة وأنّ أحكامه كانت مقترنة بالتنفيذ الفوري عملا بالآية المذكورة .

وفي القرآن آيات ترمي إلى تفويض العادات الجاهلية وإرساء مجتمع جديد منظم تشد أفراده لحمة الدّين الإسلامي ومبادؤه الأخلاقية على أنّ الآيات التي تنصّ على أحكام وحدود لا تشمل كلّ الميادين فلم تذكر مثلا الحدود الواجب إقامتها على من يتعاطى الرّبا والميسر وعلى شارب الخمر وإنّما اكتفى بتحريم هذه الأعمال ذلك أن القرآن وإن اشتمل في بعض سوره على أحكام تتعلّق بالحرب والأسرة (الزواج - الطلاق - الإرث) وعلى حدود مثل حدّ قتل النفس والسرقة والزنا هو أولا وبالذات كتاب ديني لا مجلة قوانين هدفه غرس الإيمان وتهذيب النفس وبعث مجتمع فاضل .

الرسول كان يحكم بما جاء في القرآن من أحكام وحدود أو بما كان يراه وفيّا لمبدأ العدل . كان يحكم بالظاهر لأن الله وحده يتولى السرّائر وقد صرّح بأنه لم يؤت علم الغيب وفي عهده كانت مؤسسة القضاء بسيطة إذ إليه وحده

كان سكان المدينة يردّون كلّ نزاع [141] كما أن التشريع كان في خطواته الأولى لان المجتمع الإسلامي في المدينة لم يعرف التعقيد الذي عرفته الأمة بعد الفتوحات .

وبعد وفاة الرّسول تولّى الخلفاء الراشدون القضاء لأنّ الخليفة خليفة رسول الله والرّسول كان يحكم بين المتنازعين من المسلمين وانجر عن هذا أن بقي القضاء في الإسلام من مشمولات الخليفة يتولاه بنفسه أو يعيّن من ينوبه في هذه المهمّة فيقوم بها الوالي أو القاضي بتفويض منه ويبدو أنّ عمر آنس الحاجة إلى تعيين بعض القضاة في الولايات [142] والأمصار وإن صحت الروايات في هذا الشأن فإنها تفيد أنّ مؤسسة القضاء عرفت تطوّرا من حيث التسيير أمّا فيما يخصّ التشريع فإنّ المصادر لا تمدّنا بمعلومات واضحة تمكننا من معرفة الخطوات التي قد يكون خطاها لكن ما يلاحظ هو أنّه في فترة الخلافة الراشدة أصبح حدّ الزنا الرجم الذي لا ينصّ عليه القرآن [143] وإنه فيما يخص القانون المالي (الجباية) وقع الإبقاء على التراتيب التي كان يعمل بها في البلاد المفتوحة .

وفي أيّام بني أميّة كان الوالي يعين القضاة في ولايته ويعزلهم وكان أيضا ينظر في القضايا التي يريد البت فيها وقد اعتمد القضاة الذين لم يكونوا من

---

(141) تقول الروايات إنّ الرّسول قلّد عددا من الصحابة القضاء وتذهب بعض هذه الروايات إلى أنّ الذين اشتهروا بالقضاء والفتيا من الصحابة بلغوا على عهد الرّسول مائة وواحدا وثلاثين رجلا وإمرأة وهذه الروايات غير صحيحة .

(142) يقول إنّ عمر ولى شريحا الكندي قضاة الكوفة وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة وإنّه بعث إلى أبي موسى الأشعري رسالة في شروط القضاء لكن الاضطراب في أسماء القضاة ومحتوى الرسالة وأسلوبها عناصر تبعث كلها على الشك في هذه الروايات عن الرسالة انظر البيان والتبين ج 2 ص 23 .

(143) حدّ الزنا في القرآن الجلد لا الرجم سورة النساء الآية 25 .

أهل الاختصاص [144] في أحكامهم المقصورة على المسلمين [145] القرآن والسنة والرأي وكذلك العرف فكانوا ينظرون في العرف السائد في البلدان التي عينوا فيها فما كان منه منافيا للشريعة رفضوه وما كان منه ملائما قبلوه .

ومن جهة أخرى أحدثت في هذه الفترة خطة صاحب السوق أو عامل السوق التي ستستوعبها في العهد العباسي الأوّل خطة المحتسب [146] وفي أيام هشام بن عبد الملك (ت 125 هـ) فصلت الشرطة عن القضاء واستقلت بالنظر في الجرائم وبذلك ضيق من مشمولات القاضي وفي هذه الفترة ظهرت المدارس الفقهيّة (المذاهب) ومنها مذهب أبي حنفية (ت 150 هـ / 769 م) بالكوفة ومذهب الأوزاعي (ت 154 هـ / 774 م) ومذهب مالك بن أنس (ت 179 هـ / 795 م) والقصد من ذكر هذه المذاهب السنّيّة الاشارة إلى أنّ التشريع من خلالها عرف تطوّرا هامّا من حيث الأصول خاصّة فهؤلاء لم يكونوا قضاة ولكنّ مشاغلهم شملت كذلك الفقه أي واجبات الإنسان نحو خالقه (العبادات) وواجباته نحو غيره [147] (المعاملات) فكان لآرائهم أثره العميق في توجيه القضاء وعلى سبيل المثال نذكر أنّ أبا حنيفة جعل من الرأي والاستحسان ركيزة مذهبه في حين اتخذ مالك السنة والاجماع (إجماع العلماء) والمصلحة (المصلحة العامّة) عمدة مذهبه .

وفي أيام العباسيين خرج القاضي عن سلطة الوالي فكان يعينه الخليفة على أن هذا التغيير لم يضمن للقضاء استقلاله لأن السلطة المركزيّة كان بامكانها عزل

---

(144) أي أنهم لم يكوّنوا تكوينا خاصّا يؤهّلهم لمهمة القضاء .

(145) كما لغير المسلمين محاكمهم الخاصّة بهم : محكمة للمسيحيين ومحكمة لليهود ......

(146) سنتعرض إلى هذه الخطة في الصفحات الموالية .

(147) يشمل الفقه ميدانين مختلفين ميدان العبادات ويتعلق بأحكام الطّهارة والصلاة والزكاة والصوم والحجّ وميدان المعاملات ويشمل أحكام النكاح والإرث وأحكام الجرائم والجنايات وكذلك المعاملات الاقتصادية والتجاريّة والزراعيّة والسلوك الاجتماعي .

القاضي متى شاءت وفي خلافة الرّشيد أحدثت خطّة قاضي القضاة [148] وهي مظهر من مظاهر المركزيّة وأول من تولاها القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ومؤلف كتاب الخراج ومن مشمولات قاضي القضاة أنه كان يعين بالأقاليم قضاة ينوبونه ولكن استحداث هذه الخطة لا يعني استقلال القضاء لأنّ قاضى القضاة تعيّنه السلطة المركزيّة (الخليفة أو الوزير أو السلطان) .

وفي أيّام المهدي أحدث ديوان المظالم [149] وهو محكمة كان يشرف عليها الخليفة نفسه إلى عهد المهتدي باللّه (ت 256 هـ) الذي عيّن من ينوبه ويعرّف ابن خلدون ولاية المظالم بقوله ، وظيفة ممتزجة من سطوة السّلْطَنة ونَصَفَةِ القَضَاء وتحتاج إلى عُلوّ يَدٍ وعظيم رَهْبَةٍ تقمع الظالم من الخَصْمَيْنِ وتزجُر المعتدِيَ وكأنّه يُمضي ما عَجِز القضاةُ أو غيرهم عن إمضائه [150] ومعنى هذا أن الناظر في المظالم (الخليفة أو الوزير أو الأمير من قواد الجيش) له من الهيبة وقوة اليد ما ليس للقاضي ولذلك يمكنه ردع العتاة من رجال الدّولة وأعوانها .

من اختصاصات ديوان المظالم الذي أضحى جزءا من النظام القضائي في كلّ الدّول الإسلامية شرقا وغربا :

- النظر في الشكاوى التي يرفعها أفراد الرعيّة على الولاة إذا ظلموا وعلى العمّال إذا جاروا في جِبَايَة الأموال وإنزال العقوبة بهم .
- ردّ ما غصبته أيدي العتاة إلى أصحابه المستضعفين المظلومين
- نقض أحكام القضاة المطعون فيها

وإذا اعتبرنا المعطيات السابقة اتضح لنا

---

(148) يسمّى قاضي القضاة في الأندلس وفي المغرب قاضي الجماعة .

(149) قيل إنّ ولاية المظالم بدأت مع الأمويين فكان عمر بن عبد العزيز يجلس للنظر في شكاوى الرعيّة ضد الولاة والعمال على أن إحداث ديوان خاصّ بالمظالم تمّ في خلافة المهدي .

(150) المقدمة ، الطبعة المذكورة ، ص 392 .

- أنّ القضاء في الإسلام كان دوما خاضعا للسّلطة السياسيّة وهذا ما جعل عددا من العلماء (العلماء في الدّين) يتورّعون عن منصب القضاء لئلا يغضبوا الله برضى الخلفاء والسلاطين.

- أن القضاء في الإسلام قضاء مزدوج ، قضاء ديني يتولاه قضاة متضلعون في الفقه يحكمون حسب الشريعة وحسب المذاهب التي ينتمون إليها [151] .

- قضاء مدني يتولاه أفراد من رجال الدّولة (الوزير أو الوالي أو صاحب الشرطة .....) يحكمون " بموجب السياسة " [152] دون مراجعة الأحكام الشرعيّة والمقصود بالسياسة هنا السلطة التشريعية التي كانت للخليفة ولرجال الدّولة في عدّة ميادين (حفظ الأمن - الجباية - النظر في المظالم) منذ عهد الأمويّين [153] . وقد أثار هذا النوع من القضاء أحيانا سخط الفقهاء الذين يعتبرون أن لا مشرّع إلاّ الله وأنّ الأحكام الشرعيّة أحكام مقدسة لا قوانين بشرية وضعيّة لأنها مستنبطة من القرآن والسنة وهو رأي قابل للنقاش لأننا إذا استثنينا الأحكام والحدود التي نص عليها القرآن فإنّ بقية الأحكام هي من وضع الفقهاء أي من وضع بشر قد اختلفوا في كثير من المسائل بحكم الاجتهاد أو بحكم الانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك ومن جهة أخرى فإنّ هذه الأحكام سنّت في زمان غير زماننا ولهذا يرى عدد من المفكرين أن تشريعات

---

(151) في العهد العباسي الأول تأسست بقيّة المذاهب السنيّة : مذهب ابن حنبل (ت 241 هـ / 855 م) والمذهب الشافعي (ت 205 هـ / 820 هـ) وأصبح كل قاض يحكم حسب أحد المذاهب الأربعة الذي ينتمي إليه .

(152) العبارة لابن خلدون ، المقدمة ، الطبعة المذكورة 8 ، ص ، 393 .

(153) إن هذه السلطة هي في الأصل للخليفة وقد أقرها المشرعون واشترطوا الا تكون منافية للأحكام الشرعيّة (السياسية) ولكن في الحقيقة كان هذا تبريرا نظريا .

الفقهاء القدامى غير ملائمة لظروفنا اليوم ويدعون إلى سنّ قوانين تناسب الظروف الاجتماعيّة الجديدة [154] .

بقيت ملاحظة أخيرة تتعلق بوظيفة تابعة للقضاء : العدالة . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم في سجلات وبذلك تحفظ حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم ويشترط في العدل البراءة من الجرح والتضلع في فقه المعملات حتى يحكم كتابة العقود من جهة عبارتها وانتظام فصولها وعلى القاضي أن يتصفح أحوال العدول ويراقب سيرهم ويقول ابن خلدون مبينا فائدة هذه الوظيفة وإذا تعين هؤلاء [يعنى العدول) لهذه الوظيفة عمّت الفائدة [......] بسبب اتّساع الأمصار والأحوال واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولّون غالبا في الوثوق بها [البينات] على هذا الصنف .... [155] .

(154) لمزيد من التفاصيل انظر الإسلام والحداثة لعبد المجيد الشرفي - الفصل الخامس ص 148 - 181 .

(155) المقدمة - الطبعة المذكورة ، ص 397 - 398 .

الحسبة

الحسبة اصطلاحا [156] وظيفة دينيّة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [157] ووجه من وجوه القضاء ويسمّى القائم بها المحتسب وتتمثل وظيفته إجمالا في السّهر على الأخلاق ومراقبة السوق في المدن فقط .

وإذا رجعنا إلى المصادر [158] لاحظنا ان كلمة محتسب ظهرت في أواخر القرن الثاني الهجري وأنّ العبارة المستعملة قبل هذا التاريخ هي صاحب السّوق أو عامل السوق والراجح أنّ هذه الخطّة مورثة عن البيزنطيين. وفي أيّام المأمون عوضت كلمة محتسب عبارة صاحب (أو عامل) السوق ويندرج

---

(156) لا نعرف لحد الآن سبب اختيار هذه الكلمة التي تعنى في الأصل العدّ للوظيفة المذكورة .

(157) يعدّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من واجبات كلّ مسلم .

(158) عن هذه المصادر انظر دائرة المعارف الإسلاميّة . الطبعة الجديدة . مادة Hisba ص 503 . 504 .

هذا التعويض في سياسة العباسيين الرّامية الى أسلمة المؤسسات وذلك خاصّة في فترة المعتزلة فأصبحت الوظيفة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذي هو أصل من أصول الاعتزال الخمسة [159] .

ولما كان التغيير حدث في المشرق بعد انفصال المغرب عن المشرق سياسيا ظلت عبارة صاحب (أو عامل) السّوق العبارة المستعملة في شمال افريقيا والأندلس لكن إذا ما قارنا بين وظيفة صاحب السوق ووظيفة المحتسب لاحظنا انهما من حيث المحتوى لا يختلفان كبير الاختلاف .

فما هو هذا المحتوى ؟

لقد ادخلت مراقبة السّوق في إطار أوسع : السّهر على استقامة السّلوك وضمان المصلحة العامّة فبالإضافة إلى مراقبة السوق تضمّنت مشمولات المحتسب :

- حمل الناس على القيام بالواجبات الدينيّة (صلاة الجمعة) والاعتناء بالمساجد .
- المحافظة على الأخلاق في الطرقات والحمّامات .
- حمل الناس على المصالح العامّة . فالمحتسب يزيل المباني التي تعوق نظام المرور ويحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ويسهر على نظافة الشوارع وعلى تزويد السكان بالماء ونظام توزيعه كما أنّه يمنع الحمّالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل .

أمّا مراقبة السّوق فتتمثل في الحرص على سلامة المعاملات من الرّبا وفي النظر في الغش والتدليس وفي المكاييل والموازين وكذلك في الأسعار لكن يجب التنبيه إلى أنّ المحتسب لا يحددالأسعار وإنما يراقبها فإذا ما عمد تاجر إلى الرّفع

(159) هذه الأصول هي : التوحيد . العدل (عدل الله) . الوعد والوعيد . المنزلة بين المنزلتين . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

من ثمن بضاعته متجاوزا السّعر المعمول به نهره أو عاقبه وفي فترات القحط يقاوم المحتسب الاحتكار ومن مشمولاته أيضا النظر في النقود حتّى يحفظها من الغشّ أو النقص .

وقد تجاوزت صلاحياته الحرف التابعة في نظرنا اليوم للسّوق لتشمل حرفا أخرى فكان يراقب باعة العقاقير ويضرب على أيدي المعلمين في المكاتب إن هم بالغوا في ضربهم الصبيان المتعلمين .

والعقوبات التي يمكن للمحتسب أن يسلطها على مرتكب المنكرات التأديب والتعزير [160] والتشهير كأن يُطاف بالمذنب على حمار وفي الميدان الاقتصادي حجز البضاعة المغشوشة وفي حالات قليلة منع من ارتكب جريمة أكثر من مرّة من تعاطي المهنة أو نَفْيه .

والمحتسب تعينّه الدولة إمّا مباشرة وإمّا عن طريق الوالي أو القاضي بتفويض منها [161]. ويُشْتَرطُ في المحتسب العدالة (honorabilité) [162] أي الأخلاق البعيدة عن كلّ طعن وكذلك المعرفة بالشريعة ولذلك كان ينتدب غالبا [163] من بين الفقهاء إلاّ أنّه في دولة المماليك عهدت الوظيفة في كثير من الأحيان إلى أصحاب السيّف إمّا حرصا على النجاعة لما لهم من قوّة يد وإما لأنّ الحسبة مثل غيرها من الوظائف كانت تشترى ويسترجع متوليها ما دفع من المال يثرى عن طريق المكوس المسلطة على التجار .

---

(160) التعزيز تأديب على ذنوب لم تشرّع فيها الحدود وأنواع الزجر في هذه الحالة خاضعة لتقدير القاضي وغير مضبوطة في الشرع . أمّا الحدود فهى ما وجب في ترك مفروض (ترك الصلاة . منع الزكاة . ترك الصيام . عدم أداء الحجّ . الردّة) ومـــــا وجب بارتكاب المحظورات (حدود الخمر والسّرقة والزنا والقذف أي رمي المحصّنات بالزنا والمحاربة وأخيرا قود جنايات الأنفس) .

(161) تفوّض السّلطة المركزية للولاة وظيفة الحسبة لا ليقوموا بها بل ليختاروا من يرونه صالحا لها .

(162) يجب التفريق بين العدالة بمعنى وظيفة العدول التي سبق ذكرها والعدالة بمعنى البراءة من الجرح في السّلوك والأخلاق .

(163) انتدب أحيانا المحتسب من بين التجّار نظرا إلى معرفتهم بشؤون السوق .

ومن جهة أخرى كان المحتسب في القيام بمهامه يحتاج إلى معينين فكان يعيّن لكلّ حرفة أمينا أو عريفا كما كان تحت سلطته أعوان منتشرون في المدينة يطلعونه على ما يحدث من المنكرات .

تلك هي مؤسسة الحسبة وتلك هي مشمولات المحتسب التي كانت كما قلنا سالفا لا تمارس الا داخل المدينة وقد دامت هذه المؤسسة في أغلب أجراء العالم الإسلامي إلى عصرنا الحاضر فعلى سبيل المثال بقي نظام الحسبة بالمغرب الأقصى إلى أوائل القرن العشرين .

بقيت ملاحظة أخيرة تخصّ علاقة الحسبة بالقضاء .

كانت الحسبة في أوّل الأمر تابعة للقضاء ففي الدولة الفاطمية مثلا وكذلك في الدّولة الأمويّة بالأندلس كانت الحسبة داخلة في عموم ولاية القاضي يولّى فيها من يختاره ثمّ انفصلت عن ولاية القاضي وأصبحت مؤسسة قائمة بذاتها فالمحتسب تعينّه السّلطة السياسيّة مباشرة ومحتسب العاصمة يراقب المحتسبين في بقية مدن البلاد .

ومن جهة أخرى لئن كانت الحسبة توافق القضاء في السّهر على الحقوق فإنّ المحتسب لا ينظر إلاّ في الجرائم الثابتة وظواهر المنكرات فليس له أن يقوم بتحقيق ثمّ إنّه في ممارسة صلاحياته لا يترقب شكوى مشتك في حين أنّ القاضي لا ينظر في أمر إلاّ إذا كان موضوع شكوى ومن واجبه التحقيق كان يسمع بينّة على إثبات حق ويحلّف يمينا على نفي حق .

الشرطـــــــة

كانت الغاية من وضع مؤسسة الشرطة في البداية مساعدة القاضى في إثبات التّهم ومساعدة الحكومة على تنفيذ الأحكام ، وفي الدّولة العباسيّة عهد إلى صاحب الشرطة في نطاق رعاية المصالح العامّة وضمان الأمن النظر في الجرائم وإقـــامة الحدود الشرعيّة والسياسيّة [164] وبذلك أصبح بدوره " قاضيا ". وقد فصّل الماوردي القول [165] فيما يمكن أن يقوم ثبوت التّهمة ويجوز له ان يضرب المتهم ليحمله على الإقرار كما يجوز له فِيمَنْ تكرّرت منه الجرائم ولم ينْزَجِر عنها بالحدود أن يستديم حسبه حتى يموت وينهي الماوردي كلامَهُ في هذا المضمار بالملاحظة التالية ، فهذه أوجه يقع بها الفرق في الجرائم بين نظر الأمراء [166] والقضاء في حال الاستبراء وقبل ثبوت الحد لاختصاص

---

(164) العبارة لابن خلدون (المقدمة - الطبعة المذكورة ، ص 446) وهي هامّة لأنها تدل على أن الأحكام التي يصدرها صاحب الشرطة منها ما هي مستمدّة من الشريعة ومنها ما كانت بموجب السياسة في معنى الكلمة الذي شرحناه في باب القضاء .

(165) الأحكام السلطانيّة - الطبعة - الباب التاسع عشر ، ص 219 - 221 .

(166) تشمل كلمة أمراء أصحاب الشرطة .

الأمير بالسياسة واختصاص القضاة بالأحكام [167] أي الأحكام الشرعيّة . ويستنتج من كلامه عن الفرق بين نظر الأمراء والقضاة في الجرائم أن صاحب الشرطة له من النفوذ ما ليس للقاضي ، ودعما لهذه الملاحظة الأخيرة نُضيف أنّ وظيفة صاحب الشرطة [168] كانت تسند غالبا للأكابر من رجال الدولة .

وفي دولة الأمويين بالأندلس انقسمت الشرطة إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل صاحب الكبرى للحكم على أهل المراتب السلطانيّة والضرب على أيديهم إذا ما ظلموا وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم وجعل صاحب الصغرى للعامّة .

وفي موضوع الشرطة يجب ألاّ نغفل عن مؤسسة أخرى وهي مؤسسة الأحداث ، فمن معاني الكلمة الحوادث والشبّان ولكنّها تطلق أيضا على نوع من المليشيا كان لها دور خطير في تاريخ مدن الشام وشمال العراق (الجزيرة) من القرن الرابع إلى القرن السادس هجرى . وقد اشتهر أمرهم خاصة بدمشق وحلب ، وتتمثل مهمّتهم في الحفاظ على الأمن بالمدينة - وهم في هذا يقومون بدور الشرطة - وعند الحاجة في إعانة الجيش على الدفاع عنها ، وكان لهم مقابل هذه الخدمات رواتب تدفع لهم من محصول بعض الضرائب التي تفرضها المدينة على السكان أو على الأسواق والفرق بينهم وبين الشرطة كونهم جميعا من أهل المدينة وأنّهم ليسوا من محترفى الشرطة وهذا النوع من الانتداب جعل مهمتهم تفوق مهمة الشرطة وتتميز عنها فهم بصفتهم من أهل المدينة يكونون العنصر الدينميكي في معارضة الأمير المستبدّ بالسّلطة في مدينتهم والذي هو غريب عنها فكانوا يشاغبونه وأحيانا إذا ما وهن يرغمونه على اقتسام السلطة بينه وبينهم .

---

(167) الأحكام السلطانيّة - نفس الطبعة ، ص 221 .

(168) يلقب صاحب الشرطة بالأندلس بصاحب المدينة (le prefet) وبالحاكم بافريقية وبالوالى بمصر في عهد المماليك .

وهؤلاء الأحداث لا يمثلون دوما نفس الشرائح الاجتماعية فكانت تسيطر عليهم عناصر من العامة في الفترات المتأزمة (169) وفي غيرها كانوا يأتمرون بأوامر الخاصّة بل إنّهم أصبحوا أحيانا في خدمة بعض العائلات الكبرى (170) التي منها كان رئيسهم الملقب برئيس البلد وقد بدأ نجم الأحداث في الأُفولِ مع قيام دولة السّلاجقة الذين جعلوا لكلّ مدينة كتيبة من الجيش النظامي على رأسها قائد يلقب بالشِحْنَة .

---

(169) نذكر على سبيل المثال الأزمة التي حدثت بدمشق لمّا دخلها الفاطميون سنّة 363 هـ / 974 م .

(170) نذكر على سبيل المثال عائلة بني عمّار بطرابلس (لبنان) وعائلة بني نيسان بآمد (في العراق) في القرن السادس الهجرى .

النظـــــام المالي

ليس غرضنا أن نقدّم عرضا تاريخيا عن النظام المالي في الإسلام لأن مثل هذا العمل يتجاوز مجهود الفرد خاصة وأنّ العالم الإسلامي انقسم إلى عدّة دول لها خاصيّاتها في كل الميادين بما فيها الميدان المالي ولذلك سنقتصر على عرض المسألة في خطوطها الكبرى فتهتم بمؤسسة بيت المال أو ما نسميه اليوم خزينة الدّولة .

- مؤسسة بيت المال [171] :

ترجع ولادة هذه المؤسسة الى فترة الرّسول بالمدينة إذ فيها ظهرت فكرة خزينة يجمع فيها أموال الزكاة وقسط من الغنيمة لتنفق على مستحقّيها ومن أجل المصالح العامة .

وقد تبلور مفهوم الأموال العمومية وإنفاقها في المصلحة العامة أيام عمر ويتجلى ذلك في حدثين الأول هو أنه رفض أن توزع اراضى العراق والشام

(171) يجب تمييز بين بيت مال المسلمين أي خزينة الدولة وبيت المال الخاصة أي خزينة الخليفة .

على المقاتلين وفضّل أن يقفها على مصالح المسلمين فتركها لأصحابها العاملين بها مكتفيا بأخذ الضريبة على الأرض (الخراج) لفائدة بيت المال ، والثاني هو إنشاؤه ديوان العطاء الذي منه أصبحت تدفع أرزاق الجند ، وبتقدم الزمن أكتملت هذه المؤسسة وأصبح لها تنظيمها .

- تنظيم بيت المال :

إن العاملين ببيت المال يستمدّون جميعا نقودهم من الإمام (الخليفة) الذي هو رئيس المؤسسة فيفوّض لهم تدبير شؤونها وفي مقدّمة العاملين بها صاحب بيت المال المكلف بجبي أموال الدولة وصرفها وبمراقبة الموظفين ، ويشترط في صاحب بيت المال أن يكون مسلما حرّا (لا عبدا) موسوما بالعدالة (لا جرح في أخلاقه) خبيرا بالشؤون المالية وقادرا على الاجتهاد في تحديد مقدار الضريبة التي ليس فيها نصّ (القرآن - السنّة) ، وتحت صاحب بيت المال أعوان يمكن أن يكونوا من العبيد أو أهل الذّمة شريطة إلاّ يهتم الذميّون منهم إلاّ بالضرائب على أهل دياناتهم ، أمّا الوثائق والسجلاّت وحسابات الخزينة فلها مصلحة إدارية خاصّة بها على رأسها كاتب الدّيوان الذي تشترط فيه الحنكة والعدالة فقط .

هذا هو الإطار العام لكننا نعرف أنّه بتطوّر الدولة شملت هذه المؤسسة عدّة مصالح إدارية كان على رأس كل منها مشرف [172]

(172) انظر ما قلناه عن الدواوين المالية .

موارد بيت المال :

1 ـ الزكاة : وتسمّى أيضا الصدقة :

هي أوّل ضريبة إسلامية فرضت على أصحاب الأموال من المسلمين فقط . وقد ضبطت مصارفها في القرآن «إنما الصداقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل اللّه وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليهم حكيم» [173]. والمقصود بالعاملين عليها جباة الزكاة وبالمؤلفة قلوبهم أولائك الذين كانوا في صدر الإسلام يتظاهرون باعتناق الدين الإسلامي من الأقوياء فاقتضت الظروف استرضاءهم وتأليف قلوبهم النافرة برفع سهم من الصدقة إليهم ترغيبا لهم في اعتناق الدّعوة ، إلا أنّ هذا السهم قد ألغي بعز الإسلام ورأى عمر بن الخطاب حذف حصة المؤلفة قلوبهم اجتهادا شخصيا منه ، وبالرقاب العبيد الذين تعاقدوا مع ساداتهم على تحرير رقابهم مقابل مقدار من المال فتدفع الدولة هذا المقدار من موارد الزكاة لتحريهم وبالغارمين الذين ركبهم الدين فلم يستطيعوا الوفاء به فتعيّن لهم الدولة مقدارا من المال يساعدهم على الوفاء بديونهم .

والزكاة على أنواع : زكاة على أموال التجارة وزكاة على الذهب والفضة وزكاة على الزروع والثمار وزكاة على المواشي والأنعام .

ويشترط لإخراج الزكاة شرطان :

أ ـ ملك النصاب الذي يختلف باختلاف هذه الأنواع المذكورة

ب ـ مرور عام على الأقل على ملكية هذه الأموال

أما مقادير الزكاة فهي أيضا تختلف باختلاف الأموال [174] فزكاة أموال

---

(173) سورة التوبة 9 الاية 60 .

(174) قدّر الفقهاء الحدّ الأدنى بـ 200 درهم .

التجارة لا تزيد ضريبتها على ربع العشر وكذلك زكاة الذهب والفضّة وفي زكاة الزرع والثمار قصر بعض الفقهاء الضريبة على الحبوب وعمّمها آخرون على الخضر والبقول فضلا عن الحبوب ، وهي على قسمين :

ما سقي بالمطر أو من ماء الأنهار بصورة طبيعية وفيه العشر .
ما سقى بعمل الإنسان (الأبار) وفيه نصف العشر .

وفي زكاة المواشى (الإبل والغنم والبقر دون الخيل والبغال والحمير إلاّ إذا كانت هذه من أموال التجارة) تفصيل دقيق في كتب الفقه خلاصته أنّ النصاب في العدد خمس في الإبل وثلاثون في البقر وأربعون في الغنم وأنه كلما زاد عدد المواشي زاد مقدار الزكاة .

2 ـ الغنيمة :

الغنيمة مال من أموال سكان البلاد المفتوحة عنوة أي على وجه الغلبة وحين تجمع الغنائم [175] يقسمها الإمام خمسة أخماس يبدأ بإخراج خمس منها يقسمه هو الأخر خمسة أسهم بين مستحقيه المذكورين في القرآن واعلموا أنّ ما غنمتهم من شىء فإنّ للّه خمسهُ وللرسول ولذى القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل " [176] والمقصود بذى القربي حسب المفسرين ذوي قربى النبي ويرى بعضهم أنّها قريش كلها ويرى أخرون أنّهم بنو هاشم أو بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، أما الأخماس الأربعة الباقية فتكون ملكا للغانمين فيعطي للفارس سهمان أو ثلاثة وللرّجل سهم واحد . فنصيب بيت المال من الغنيمة إذن هو الخمس .

---

(175) الغنيمة تشتمل على : الأسرى والسباء (النساء والأطفال) والأراضي والأموال ولكن عمر كما قلنا أخرج الأراضي من الغنيمة وجعلها فينا على المسلمين .
(176) سورة الأنفال ـ الآية 41 .

3 ـ الخراج :

ضريبة فرضت على الأرض في البلاد المفتوحة وكانت مقدارًا من حاصلات زراعية أو أموال نقدية يدفعها أصحاب الأرض من أهل الذمة وليست هذه الضريبة من الأمور التي أحدثها المسلمون إذ كانت تدفعُوا إلى الدولة الساسانية أو البيزنطية قبل الفتوحات لكن الذي يلفت الانتباه هو أنّها لم تسقط لمّا أسلم أصحاب الأرض وإنما سقطت عنهم الجزية (177) فكان عليهم ان يدفعُوا الخراج فضلا عن الزكاة وقد علّل الإبقاء على الخراج بكونه نوعا من الفيء الدائم لفائدة الأمة لكن السبب الحقيقي هو أنّ إسقاط الخراج لو تمّ لحرمت خزينة الدولة من أكبر قسط من مداخيلها .

أ ـ تقدير الخراج :

عيّن مبلغ الخراج بطرق مختلفة :

الطريقة الأولى : المساحة : الجريب بإيران والعراق والفدّان بمصر (178) وفي أقاليم أخرى كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطيّة كانت وحدة التقدير المساحة التي يكفي لفلحها ثوران وهذا التقدير الأخير يثير مشكلة لأنّ المساحة تختلف بحكم الموقع ونوع التربة فكان لا بد من إعادة النظر فيها حتى تكون الضريبة على قدر عطاء الأرض .

وبالإضافة إلى المساحة اعتبرت طريقة الرّي (السقى بالمطر ـ السقى بالقنوات من الأنهار ـ السقى بالأبار) ودرجة الخصوبة المقدرة حسب معدل المحصول الزراعي مدّة ثلاث سنوات .

---

(177) الجزية ضريبة على الراس وسنعود إليها في الصفحات الموالية .

(178) الفدّان اقلّ من نصف هكتار بقليل والجريب يساوى تقريبا 1400 م 2 .

وهذه الطريقة كانت قاسية على الفلاحين ذلك أن معلوم الخراج لا يتغير سواء أغلت الأرض أم لا وسواء كان المحصول الزراعي وافرًا أو قليلا وفي عام القحط ترحىء الدولة الضريبة إلى العام الموالي فتثقل كاهلهم وإذا ما توالت السنون العجاف تركوا أرضهم ونزحُوا إلى المدن .

الطريقة الثانية هي المقاسمة وهى أن تأخذ الدولة قسطا من المحصول الزراعي أو ما يعادله نقدا والمقاسمة أهون على الفلاحين شريطة ألاّ يرتفع معلوم الخراج في سنوات الخصب .

الطريقة الثالثة من الايغار وفيها يكون مورد الخراج مقدار من المال عينا أو نقدا لا يتغير إذ لا يعتبر في وضعه لا المساحة ولا المحصول الزراعي ويدفع هذا المقدار إلى بيت المال مباشرة كلّ سنة دون تدخلّ العمّال وأعوانهم ، والمستفيدون من الايغار الأمراء بالأقاليم (districts) التي لا تسيطر عليها الدولة سيطرة كاملة . فهؤلاء يجبون خراج أقاليمهم دون مراقبة ولا يسلّمون إلى « الدّولة » إلا المقدار المتفق عليه . هذه الطريقة تمثل خطرا على " الدولة " لأنها تخلّت عن مراقبة الجباية وعن إحصاء موارد بعض الأقاليم .

أنواع الإقطاع :

على أنّ الخطر كان أعظم لمّا تخلّت " الدولة " عن حقوق بيت المال وذلك بالخصوص في قطاع الاستغلال ، ولنفهم ظهور هذا النوع من الإقطاع يحسن التذكير بأنواع الإقطاع في تاريخ الاقتصاد الإسلامي . ظهر الإقطاع منذ القرون الأولى فكان الخليفة يعطي الرجل من بني ذوية أو الأعيان أو المقرّبين إليه أرضا من أملاك الدولة على أن يؤدي المقطع العشر ، وتسمى هذه الأرض الممنوحة قطيعة (والجمع قطائع) ويعرف هذا النوع من الإقطاع بإقطاع التمليك إذ القطيعة تبقى لعقب المستفيد من بعده وكان ثمّ إلى جانب القطيعة ما يسمّى بالطعمة وهى الأرض التي تعطى إلى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها وتكون له مدّة حياته فإذا مات استرجعت من ورثته .

وبمرور الزمن استحال الاستمرار في توزيع القطائع نظرا إلى ازدياد عدد الأعيان وأمراء الجيش فعمدت الدّولة إلى إقطاع الاستغلال فكان المستفيد لا يعطى قطيعة وإنّما تسمح له الدّولة بأخذ خراج أرض تبقى قانونيّا بايدي أصحابها وذلك تعويضًا ، عمّا يؤديه من خدمات إلى الدّولة . ويطلب منه دفع العشر من مال الخراج هذا ولكن لمّا كان أغلب المستفيدين في الدّولة البويهيّة من أمراء الجيش بات من الصعب على الدّولة أخذ العشر منهم . وهكذا كان إقطاع مال الخراج المقدّر حسب مساحة الأرض ومردودها [179] بمثابة أجر معفى من الضرائب يأخذه الأمير من أمراء الجيش مباشرة من أصحاب الأرض .

وإقطاع مال الخراج غير قارّ إذ يسند خراج أرض ما إلى أمير لمدة سنة أو أكثر ثم يسند إلى غيره من الأمراء وكانوا جميعا يسكنون بالمدن لا يهمّهم من الأرض سوى خّراجها ولذلك كانوا يثقلون أصحابها العاملين بها بالضرائب الباهظة فينفرونهم من خدمتها .يتّضح إذن ممّا تقدّم أنّ الدّولة لم تتخلّ عن حقوق بيت المال فقط بل ساهمت في خراب الأرض وفساد العمران .

وقد تفشّى إقطاع الاستغلال [180] في أيام الدّولة البويهيّة وتبنّاه السلاجقة الذين أدخلوه حتّى في الأقاليم التي لم يمكن بها أيّام البويهيّين وأعنى خاصّة منطقة خراسان وبلاد ما وراء النهر وفي أيّام الدولة الزنكية (541 هـ ـ 661 هـ) بالشام أصبح إقطاع الاستغلال وراثيا وكان الغرض من هذا الإجراء توطيد علاقة أمراء الجيش بالدولة في صراعها ضدّ الصليبيين . وفي أيّام السلاطين الماغوليين المسلمين بإيران (يسمون الإلخانات ، جمع إلخان) اتخذ إقطاع الاستغلال اسمين : سَيُوْرغَال إذا كان الإقطاع وراثيا وتُيول إذا كان لمدّة معينة. وفي مصر ظهر إقطاع الاستغلال في أيام الأيوبيّين وتواصل العمل به في دولة المماليك وكان المقطعون من قوّاد الجيش مطالبين بتجهيز عدد من

---

(179) يسمى هذا التقدير العبرة .

(180) يطلق على إقطاع الإستغلال عبارة الإقطاع العسكرى لأن أغلب المستفيدين منه من قواد الجيش .

الجند ولذلك قيل إقطاع عشرين (أي إقطاع مال الخراج لقائد يجهزّ عشرين جنديّا) أو إقطاعُ مائة إلى غير ذلك . على أن هذا العدد كان أقلّ ممّا تحت قيادة كلّ منهم وفي المغرب الإسلامي لم تعرف الأندلس إلا إقطاع التمليك وكذلك الشأن في بقيّة المغرب الى أن جاء الموحّدون فأدخلوا إقطاع الاستغلال في مملكتهم وعنهم أخذه الحفصيون والمنتفعون به في أيامهم كبار الدولة وقواد الجيش ورؤساء القبائل التي كانت تسيطر على جزء هام من إفريقيّة [181] ورجال الدين وأحيانا الفقراء .

ب ـ مقدار الخراج :

اتفق جلّ الفقهاء على أن للخليفة أن يرفع معلوم الخراج أو ينقص منه حسب ما تتحمله الأرض وحسب قدرة الفلاحين على الدّفع فكان هذا المعلوم يختلف من فترة الى أخرى ومن بلد إلى أخر وممّا لا شكّ فيه أن ضريبة الخراج كانت ثقيلة [182] وزادها ثقلا جور العمّال وأعوانهم الذين كانوا يأخذون أموال الناس بالباطل وقد أدّى كلّ هذا الى فرار الفلاحين من أراضيهم أو إلى ما يسمّى بالإلجاء وهو أن يكتب الرّجل أرضه باسم أحد الكبراء ليحتمى به من ظلم العمّال فيقوم الملجىء بدفع الخراج وتبقى الأرض بأيدي أصحابها الفلاحين إلى أن تصير غالبا ملكا له وبذلك يضيف ضياعا جديدة إلى أراضيه .

طرق استيفاء الخراج :

كان استيفاء الخراج يتمّ بطرق متعدّدة : الأولى أن يتولّى العمّال أخذ الجباية من الفلاحين والثانية أن يدفع المستفيدون من الايغار المقدار المعيّن من

---

(181) كان رؤساء القبائل يقطعون مال الخراج على الأراضي وكذلك جباية المدن وهذا دليل على ضعف الدولة .

(182) يرى بعض الفقهاء أن القاعدة التي يجب الانطلاق منها لضبط مقدار الخراج العشر ولكن قلما عمل بهذه القاعدة فكانت الضريبة تفوق هذا المقدار بكثير .

المال مباشرة الى الخزينة والطريقة الثالثة هي تضمين الخراج فكان الخليفة (أو الوزير) يطلب من أحد الأغنياء أن يقرض الخزينة مالا مقابل خراج ناحية يأخذه لنفسه وهذا المقرض لا يكفي باسترجاع ماله بل يحرص على أن يفوق مقدار الخراج المال الذي قدّمه للخزينة ليحتفظ بالفاضل . وتضمين الخراج الذي بدأ العمل به في خلافة المعتصد (ولي الحكم من 279 الى 289 هـ) دليل على أن النفقات تجاوزت المداخيل أو بعبارة أخرى على انخرام في ميزانية الدّولة اضطرّها الى الاقتراض .

الطريقة الرّابعة : القَبَالة وهي أن يضمن الرّجل من ذوي الجاه والسّطان مسبقا للدّولة خراج إقليم مقابل قسط من هذا الخراج يأخذه لنفسه والفرق بين تضمين الخراج والقبالة هو أنّه في الحالة الأولى يقرض الغنيّ الدّولة مالا يسترجعه من الخراج وفي الحالة الثانية يتعهّد المتقبّل فقط استيفاء الخراج عوضا عن الدّولة ويبقى لنفسه منه قسطا .

وتضمين الخراج والقبالة سبب من أسباب فساد العمران . قال أبو يوسف صاحب كتاب الخراج في القبالة .... فإنّ المتقبّل إذا كان في قبالته فضلٌ عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم وظلمهم [....] وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعيّة والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصالح أمره في قبالته " [183] . وهذا القول ينطبق كذلك على تضمين الخراج لأنّ المستفيد منه لا يبالي بحال الفلاّحين وإنّما همّه الحصول على الرّبح الذي يوفره الفضْل عن الخراج .

4) الجزية :

والجزية هي مبلغ معيّن من المال يوضع على الرؤوس لاعلى الأرض وهذا أهمّ فرق بينها وبين الخراج ومن الفروق بينها وبينه أيضا أن الجزية تسقط بالإسلام في حين لا يسقط الخراج باعتناق الدين الاسلامي .

---

(183) كتاب الخراج ـ المكتبة السلفيّة ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة 1952 ص 105 .

وقد علّل القدامى فرض الجزية على أهل الذمة بمبدأ التكافؤ. وقال أبو يعلى نقلا عن القرطبي الجزية وزنها فعلة من جزى يجرى إذا كافأ عمّا أسدي إليه " [184] فالذميون ينتفعون بالمصالح العامّة وينعمون بالأمن كما أنّهم في حالة الحرب لا يشاركون فيها وفي المقابل يدفعون الجزية وفي الخلافة الرّاشدة كانت الجزية جزءا من الضريبة المفروضة على أهل البلاد المفتوحة والتي تضمّ الضريبة على الأرض والضريبة على الروؤس وذلك لأن الإسلام وَرث هذه الضَّرِيبة الجملية عن البيزنطيين والساسانيين ثم فُصلت الجزية عن الخراج على النحو التالي :

- الأغنياء وقيمة ما يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما .
- متوسطو الحال ويؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما .
- الفقراء ويؤخذ منهم إثنا عشر درهما ولا تؤخذ الجزية من كلّ أهل الذمّة إذ يشترط فيمن يدفعها أن يكون حرّا (لا عبدا) وعاقلا (لا مجنونا) وذكرا تجاوز سن الصّبا والا يكون مصابا بعاهة عن العمل أو راهبا من الرّهبان في الأدْيرة .

والمقدار المذكور هو ما رآه أبو حنيفة وقد منع اجتهاد الولاّة فيه أمّا الشافعي فيرى أنه لا يجوز الاقتصار على « أقل من دينار بالنسبة إلى الفقراء وترك تقدير الجزية بالنسبة الى الأوساط والأغنياء الى اجتهاد الوالي الذي يجتهد في التفضيل حسب أحوالهم [185] .

5) الخمس ممّا يسميه الفقهاء بالركاز وهما مال وجد تحت الأرض سواء أكان ممّا ركزه الله في الأرض (أي المعادن) أمْ أمّ كان كنزا تركه بعض الناس .

---

(184) أبو يعلى الفراء في كتابه الأحكام السّلطانية - تحقيق محمّد حامد الفقى طبعة البابي الحلبي 1356 هـ / 1938 م ص 137 .

(185) الأحكام السلطانية للماوردى - الطبعة المذكورة - ص 144 .

6) المواريث الحشريّة : أي الأموال التي لا وراث لها شرعا والتي تضمّ الى بيت المال .

7) الصوافي وهي الأراضي التي جلا عنها أهلوها عند الفتح وبقيت بدون مالك فأصبحت من أملاك الدّولة يرجع دخلها الى بيت مال المسلمين .

المكوس :

لكن هذه الموارد لم تكن هي كلّ موارد خزينة الدّولة فقد استحدثت ضرائب أخرى اعتبرها الفقهاء غير شرعيّة ولكنّها كانت أمرا واقعا وقد أطلقت عليها أسماء عديدة : رُسوم وظائف - قَبالة ومكوس . وفي الحقيقة فإن أغلب هذه الضرائب كانت موجودة في البلدان المفتوحة وفي أول الأمر اكتفت الدّولة الإسلاميّة بأخذ الخراج والجزية ثم أحييت المكوس القديمة وأضيفت إليها أخرى .

ويمكن أن تقسّم هذه المكوس الى ثلاثة أصناف :

- الصنف الأول : الرسوم التي كانت تؤخذ بالمراصد البحرية (الموانيء) والنهريّة والبريّة وبأبواب المدن وهي عبارة عن رسوم جمركيّة يدفعها التاجر المسلم اذا مَا نَزَلَ في طريقه إلى بلد مابموانى أو محطّات تابعة لدول إسلاميّة مختلفة .

الصنف الثاني : ضرائب وضعت على الأسواق .

وهو صنف من المكوس يتم بعنوان الإيجار فالدولة تعتبر أنّ أرض المدينة أو جزءًا منها ملك لها وأنّ على أصحاب العقارات المبنية في هذه الأرض دفع أجرة كراء الأرض وقد وضعت هذه الغريبة على المحلات التجارية وكذلك على المنازل .

الصنف الثالث : ضرائب على الصناعات وخاصّة منها ضاعة البضائع الكمالية كالنسيج الجيّد بمصر .

إنّ هذا التصنيف لا يعني أننا استقصينا كل أنواع الرّسوم [186] ومن جهة أخرى لا يجب أن نظنّ أنّ جميع أنواع المكوس المذكورة كانت تؤخذ في كل بلدان العالم الإسلامي وفي كل مراحل تاريخه ثم إنّ قدر الضريبة كان يختلف من جهة الى أخرى ومن زمن الى أخر ، فمصر عرفت بأنها أرض المكوس في تاريخها القديم ، وفي أيّام الإسلام الأولى اكتفت الدولة بأخذ الخراج والجزية ، وفي النصف الثاني من القرن الثالث أعيدت المكوس [187] ومع هرم الدولة الفاطمية لم يسلم بمصر من المكوس إلا الهواء [188] ثم جاءت الدولة الأيوبيّة فاسقط صلاح الدين جزءا منها (من المكوس التي أبقاها ضريبة الديوانة التي تحدّث عنها ابن جبير) ولكن أعيدت كلها في عهد خلفه .

وفي العراق كانت الرسوم أقل وطأة الى أيام البويهيين الذين أثقلوا كاهل الناس بالضرائب [189].

وبصفة عامة فإن الدّولة إذا ما كانت في ضيق مالي وضعت ضرائب جديدة أو رفعت معلوم القديم منها وإن كانت في سعة أسقطت بعض هذه الضرائب أو خففت من مقدارها ، ولنا في كتب التاريخ القديمة ملاحظات يُمَجّد فيها حاكم لانّه أسقط كلّ المكوس [190] تقيّدا بالشرع وسعيا لكسب السمعة الطيبّة ولكن بعد موته أو حتى قبلها تعود الحالة كما كانت عليه لأن

---

(186) من الرّسوم التي جرت بها العادة الرّسوم على الأرجاء والمعاصر .

(187) تقول الروايات ان المسؤول عن أخذ مال سوى مال الخراج بمصر هو ابن المدبّر الذي كان عاملا بها في النصف الثاني من القرن الثالث .

(188) المقريزي ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ القاهرة 1922 ـ ج ا ـ ص 103 .

(189) من الرسوم التي فرضها عضد الدولة (ت 372 هـ) ضريبة على بيع الدوابّ .

(190) من الأمثلة نذكر مثال الخليفة الفاطمي بمصر الحاكم بأمر الله (ت 411 هـ / 1021 م) .

الأمـر يتعلق في الواقع بحـال خـزينة الدّولة . بقي سـؤال في أمـرِ هذه المكوس هل كانت كلها راجعة الى بيت المال العامة .

يصعب الإجابة عن هذا السؤال لأن الوثائق التي وصلتنا عن مداخيل الدول الإسلامـيـة قـليلة (191) ولانهـا قلمّـا تتـضـمـن المكوس ، ولكن إذا تذكـرنّا أنّ من مـبـادىء الإدارة المالية الإسـلامـيـة أداء المصـاريف المحليّة (المـدينة ، الولاية) من المداخيل المحليّة اتضح أن قـسـطا فقط من المداخيل بما فيها المكوس كان يرجع الى بيت المال العامة سواء لما كانت مملكة الإسلام موحّـدة أو فيما بعد لما انقسمت الى عدّة دول لكل منها بيت مال .

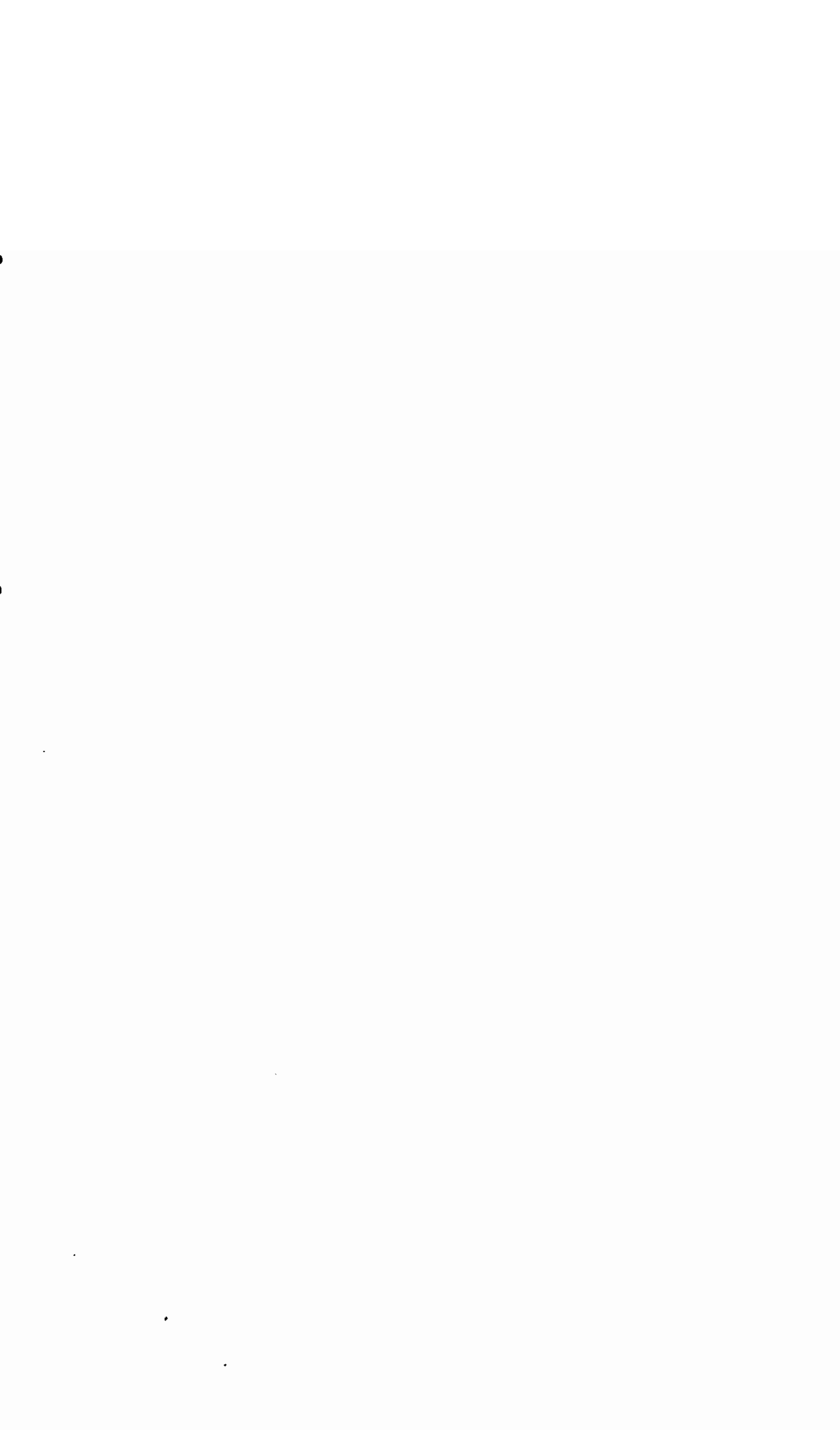
وأخـيـرا إلى جـانب المكوس كـانت المصـَادرات وسيلة من الوسـائل غيـر القـانونية لـتمويل خـزينة الدولة أو خزينة الخليـفة والسلطان ، وفي الأوّل كـانت المصـادرات مقـصـورة على العـمال ثم شملت كل الـذين لهم صلة بالسلطة وحـتى كبار التـجـار ، فكان حكام مصـر من الإخـشـيـديـيّن (دام حكمـهم من 324 إلى 359 هـ) يقـبض الواحد منهم على عمّـاله وخاصته وثقافته ويصـادرهم على المبـالغ الكثـيـرة هم وأهلهم ، وإذا توفي قـائد من قـواده أو كـانت تَعـرضَ لورثَتَه وأخذ منهم وصـادرهم وكذلك يفعل مع التـجـار المياسير وكذلك كـان الأمر في أيّام البويهـيّين إذ مثلا لمّا مات الـوزير أبو محمّد المهـبلي عام 352 هـ / 963 م بعـد أن لبث في الوزارة ثلاث عـشـرة سنة قـبض مـعز الدولـة تركتـه وصـادر عيـاله . وخوفـا من المصـادر كـان أهل المال يسـتـعـملون جـمـيع الوسـائـل لإفسـاد خطّة المصـادرين وخـداعـهم فـمن ذلك أنّهم كـانوا يتظاهـرون بالفـقـر ويودعـون أموالهم عند ناس كثيرين (192) .

---

(191) يورد أدم مـتـز (Adam Metz) في كـتـابه الحـضـارة الإسـلامـيـة في القـرن الرابع الهجرى (تعريب محمّد عبد الهادي أبو ريدة) ملاحظات حول ميزانية الدّولة العباسية .

(192) نفس المرجع ص 201 إلى 205 .

نظرة الرحالة المسلمين
إلى البلاد الأجنبية :
أخبار الصين والهند أنموذجا



نظرة الرحّالة المسلمين إلى البلاد الاجنبية : أخبار الصّين والهند أنموذجا (1)

أدب الرّحلات في القرون الوسطى مدوّنة ثريّة يمكن دراستها من زوايا مختلفة فالمهتمّ بالمُعْجَميّة يجد فيها مادّة غزير تتّصل بحقول دلالية متنوّعة منها الجغرافيا الطبيعيّة (التضاريس - التربة - المياه - المناخ ....) والفنّ المعماري (أشكال البناء وموادّه وآلاته) والحياة اليوميّة (الأطعمة واللباس) والحياة الاقتصادية من فلاحة (المواسم والآلات والنباتات) وصناعة (الحرف وآلاتها) وتجارة (الموازين والمكاييل والنقود) ويوجد فيها المهتمّ بالإنشائية مجالا لدراسة الأشكال الأدبيّة إذ اتخذ أدب الرّحلات أشكالا مختلفة لا تزال في حاجة إلى الضبط والتبويب حسب سماتها البنيويّة وإلى بيان علاقتها بالنظام الأدبي (مجموعة الأشكال الأدبيّة) السائد في الفترة التي كتب فيها هذا الأثر أو ذاك وللدّراس أيضا في هذه المدوّنة وبالخصوص في الآثار التي

(1) ألطبعة المعتمدة طبعة باريس 1948 : تحقيق جان سوفاجي Jean Sauvaget وستكون الإحالات على الفقرات دون الصفحات .

يطغى فيها عنصر العجيب مثل سلسلة التواريخ لأبي زيد السيرافي [2] وعجائب الهند المنسوب لِبزُرْك بن شهريار مادّة دسمة يمكن استغلالها في دراسة المخيال وبناه ووظائفه الأدبيّة والإجتماعيّة وللمؤرخ كذلك في أدب الرّحلات ما يُعينه على رسم ماضِي هذا البلد أو ذاك نظرا إلى ما يحتوى عليه من شهادات ومعلومات مستمدّة من التجربة الشخصيّة على أنه يجب الحذر لأنّ الرحّالة ينقل أحيانا من مؤلّفات سابقيه دون ذكر مصادره فيوهم القارىء أن المعلومة وليدة العيان في حين أنّها ترجع إلى فترة سابقة قد تتجاوز القرن فأكثر .

وتوجد مقاربة أخرى غايتها الكشف عن محدّدات النظرة إلى العالم وتجليّاتها وهي التي اخترناها موضوعا لهذا المقال وهذه المقاربة خلافا للمقاربة التاريخيّة لا تفصل الموضوع عن الذات فالدّراسة التاريخيّة لا تهتمّ بصاحب الأثر إلاّ لتتأكّد من تحرّيه ومصداقيته لأنّ غرضها استغلال النصّ لآستخراج معطيات موثوق بصحّتها تساعد على رسم واقع بلد في حقبة من الزمن مُعينة أمّا محاصرة النظرة فهي تنطلق من النص كما هو وتحاول أن تكشف عن العوامل التي توجدّ نظر المخبر وتفسّر مواقفه والذي دعانا إلى اختيار هذه المقاربة المدوّنة ذاتها فالرحّالة في النصوص التي تركوها لنا سجّلوا ملاحظاتهم وعبّروا عن مشاعرهم ومواقفهم فكانت نصوصهم رواية التفاعل بين الذات والمشاهَد .

هذا موضوع البحث وعلينا الآن أن نبيّن المنهج . إن الموضوع كما قلنا غايته ضبط محدّدات النظرة وتجلّياتها والتجلّيات يكشف عنها النص ذاته. فالرحّالة مهما كانت درجة فضوله لا ينقل كل ما رآه وسمعه وعاشه في البلاد التي زارها بل يسجّل ما يراه جديرا بالتسجيل وهو إلى جانب هذا يعبّر عن مشاعره ومواقفه بصفة صريحة أو ضمنيّة وهذا الانتقاء وهذه المواقف

---

(2) يوهم العنوان بأنّ الكتاب كتاب تاريخ وهو في الحقيقة مجموعة أخبار عن الشرق الأقصى وسواحل البحر الهندي الإفريقية دوّنها أبو زيد الحسن بن زيد السيرافي بمسقط رأسه أو بالبصرة في آوائل القرن الرّابع للهجرة ولم يكن الرّجل رحّالة بل أديبا مولعا بالقصص البحريّة.

تحدّدها انتماءاته الاجتماعية والثقافية والزمنية والمكانيّة وبعبارة أخرى يمكن أن نلخّص التمشي المنهجي في الأسئلة الآتية :

- من هو الرحّالة وما هي انتماءاته ؟
- ماذا سجّل وعلام يدلّ الانتقاء ؟

- ما هي العناصر من نظامه الثقافي (المعارف - الذوق - السلوك - العادات - المعتقد) التي ينطلق منها في تعاليقه وأحكامه المعياريّة ؟

لكن : لماذا وقع الاختيار على كتاب أخبار الصّين والهندِ المؤلف سنة 237 هـ / 851 م ؟

إن ما وصلنا من أدب الرّحلة إلى العالم غير الإسلامي قبل هذا التاريخ نتف لا تتجاوز أحيانا بعض الأسطر فصلا عن أنّ منها ما هي نسج الخيال ومنها ما هي غير موثوق بمُطابَقَتِها للنصّ الأصلي .

ومن الرّحلات الخياليّة رحلة الصحابي تميم الدّاري [3] (ت حوالي 40 / 661) في عهد الرّسول ورحلة الصحابي عبادة الصامت الأنصاري [4] في عهد أبي بكر وفي الأولى يقصّ تميم الدّاري مغامرة له ببحر الشام فقد قذفت به عاصفة هو وصحبه بجزيرة مهجورة فرأوا الدجّال مقيّدا وهذه القصّة التي نرجّح أنها وضعت في القرن الثالث تثبت انتشار الأساطير الخاصّة بنهاية العالم وبالعالم الآخر في المجتمع الإسلامي والمأخوذ أغلبها من بَني اسرائيل [5] أما الرحلة الثانية فمفادها أنّ أبا بكر أرسل عبادة بن الصّامت إلى ملك الرّوم يدعوه إلى اعتناق الإسلام وأنّ عبادة بن الصّامت لمادنا من القسطنطنيّة لاح له

---

(3) تاريخ الطبري، ط . ليدن لين 1892 ج 1 ص 178 .

(4) ياقوت الحموي - معجم البلدان - ط ليبزيق 1866 - مادّة الرّقيم "

(5) تسمّى هذه القصص الإسرائيليات وقد تسرّبت إلى الحديث وتفسير القرآن وكان كعب الأحبار ووهب بن مُنَبّه من المسؤولين عن هذا التسرّب .

جبل قيل إن فيه أصحاب الكهف فزار هذا الكهف ووصفه كما وصف أهله وهيأتهم ولباسهم إلى جانب هذا النوع من الرّحلات [6] تذكر المصادر عدد من الرّحلات ثبتت صحّتها منها ما كانت إلى آسيا الوسطى - رحلة تميم بن بحر المُطّوّعي إلى بلاد التغزغز [7] بين سنة 143 / 760 و 184 / 800 ورحلة سلاّم الترجمان إلى سدّ ياجوج وما جرج [8] في عهد الخليفة الواثق (ت 233 / 847) - ومنها ما كانت إلى بلاد الرّوم - رحلة عمادة ابن حمزة [9] (ت 199 / 884) ورحلة الأسير مسلم الجرمي [10] في عهد الواثق - ومنها ما كانت إلى أروبّا وهي الرحلة السفاريّة التي قام بها يحي بن الحكم البكري الملقب بالغزال إلى ملك جوتلند (Jutland) بالدنمارك [11] بعد هجوم النورمان على الأندلس ونهب إشبيليّة سنة 230 / 844 في أيّام عبد الرحمان الثاني . لكن لم تصلنا من هذه الرّحلات كما يتضح من الإحالات إلاّ شذرات حفظها لنا مؤلفون منهم من هم متأخرون ثمّ إنّ هذه الشذرات لا

(6) يورد المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ط ليدن ص 153 - 154) قصّة شبيهة بقصّة عبادة بن الصامت وقعت حوادثها حسب زعمه سنة 102 / 720 .

(7) التغزغز قبيلة تركيّة كانت نازلة بوادي الأورخون (Ochlon) جنوب بحيرة بيكال إلى سنة 246 / 840 أمّا الرحلة فلم تصلنا منها إلاّ قطعة قصيرة حفظها لنا ابن خرداذ به في مسالكه ط لين ص 31 .

(8) لم يبق من هذه الرحلة إلاّ قطعة حفظها ابن خرداذ به في مسالكه ط ليدن ص 162 - 170 لقد خرج سالم من بغداد يستخبر عن سدّ ياجوج وما جوج بأمر من الخليفة الواثق ووصل إلى حائط الصّين الكبير فوصف جزءا منه على أنّ سدّ ياجوج وماجوج .

(9) بقيت من هذه الرّحلة قطعة نجدها في كتاب مختصر البلدان لآبن الفقيه - ط ليدن ص 137 - 139 .

(10) أسره الرّوم وساقوه إلى بيزنطة وكان فداؤه سنة 231 / 845 ورحلته رحلة أسير وصَفَ فيها ما شاهده من بلاد الرّوم وذكر ما سمعه عنها - لم تصلنا من رحلته إلاّ قطعة موجودة في مسالك ابن خرداذ به ط ليدن ص 105 - 108 .

(11) لم يبق من هذه الرحلة إلاّ قطعة حفظها لنا ابن دحية في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب - تحقيق ابراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي - ط القاهرة 1954 - ص 138 - 146 .

يمكن دوما الاطمئنان إليها لسببين اثنين الأوّل طول المدّة الفاصلة بين النصّ الأصلي والمأخوذ منه والسبّب الثاني وهو الأهمّ كون الناقل بحكم مشاغله تصرّف في النص الأصلي أو هو لا يأخذ منه إلاّ ما يدخل في مصابّ اهتمامه فآبن الفقيه المعروف بميله إلى كلّ ما هو عجيب لم يورد في كتابه مختصر البلدان من رحلة عمارة بن حمزة إلاّ قطعة يطغى فيها عنصر العجيب وآبن دحية لايورد من رحلة الغزال إلى جوثلند إلاّ ما يلائم قصده من وضع كتابه فاهتم بالأبيات التي قالها السفير في وصف عاصفة بالبحر وفي زوجة الملك ، تغزّ لا وأهمل البقيّة باستثناء موكب الاستقبال وحيلة الغزال حتى لا يدخل على الملك الكافر راكعا .

لهذه الأسباب كلّها يمكن أن نَعدّ أخبار الصين والهند من حيث ثراء المادّة وصحّة نسبتها إلى أصحابها أهمّ مصدر في الميدان الذي يعنينا وأنسبه للمقاربة المختارة .

بعد هذا التوضيح نخلص إلى محاصرة نظرة الرحّالة في هذا الكتاب ونحاول أوّلا الإجابة عن السؤال الأوّل طبقا للتمشى المنهجي المحدّد سالفا : من هم الرحّالة ؟ هم تجار [12] والدليل على هذا كثرة الملاحظات الخاصّة بالمنتجات والأثمان والعملة وقوانين التجارة [13] وقد رَحَلُوا الى الشرق الأقصى في فترة كانت فيها حركة التبادل التجاري بين العالم الاسلامي وهذه

(12) ينسب الكتاب منذ أن نشر نصّه المستشرق رينو (Reinaud) سنة 1845 إلى التاجر سليمان الذي ورد اسمه في الفقرة الثانية عشرة والحقيقة كما بينها سوفاجي (Sauvaget) في مقدّمة تحقيقه هي أن التاجر سليمان أحد المصادر التي استقى منها مؤلف " الأخبار " وهو مؤلف لا يزال مجهولا .

(13) سنعود إلى هذه النقطة في صفحة موالية .

المنطقة نشيطة [14] وأقاموا بالبلدان التي حلّوا بها فاطلعوا على أوضاعها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وعلى عادات السكان الآصليين وهذا ما يَضمن لأخبارهم قيمتها الوثائقية وهم فضلا عن كونهم تجارا لهم مشاغلهم ينتمون إلى فترة تاريخيّة كان فيها الإسلام قويّا سياسيّا واقتصاديا وعسكريّا وحضارته مزدهرة وبالخصوص في بغداد التي يرجّح أن يكون أغلبهم منها وهم أخيرا من أمّة لها ثقافة (الدين والعادات والسلوك) تميّزها ولكنها مازالت متفتحة على الثقافات الأخرى [15] وإن لم تفهمها دوما الفهم الصحيح .

أمّا تكوين الرحّالين وآفاقهم الفكريّة فليس لنا عون على معرفتها سوى النصّ وَ ما يستنتج منه هو أنهم ليسوا من أهل الأدب ولا من أهل الاختصاص في علم من العلوم وأنّ الدّافع إلى معرفة العالم الأجنبي دافع نفعي لا علمي على أنّ هذا لا يقلل من قيمة المعلومات التي يقدّمونها وهي جميعا صادرة عن العيان والتجربة الشخصية .

هذا هو الإطار الذي تشكّلت فيه ذهنيّة الرحّالة في أخبار الصّين والهند في رأينا فما هو مدى تأثيره على نظرتهم إلى البلاد الأجنبيّة التي زاروها ؟ لقد رأينا من المفيد أن نقسّم مادّة الكتاب إلى قسمين كبيرين هما : المحيط الطبيعي والبشر ونعنى بهذه العبارة الأخيرة كلّ الظواهر البشرية ؛ التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحياة اليوميّة والعادات والمعتقدات .

---

(14) من أسباب هذا النشاط الإستقرار السياسي بالعالم الإسلامي رغم بعض القلاقل وتطاول الفتيان على الخلفاء وكذلك بالصّين التي كانت تحكمها دولة التانق (Les Tang) وذلك من 618 م إلى 907 م / 295 هـ . وفي النصّ وصف للطريق البحري من سيراف إلي مدينة خانفو بالجنوب الشرقي من الصيّن فمن سيراف إلى سواحل الهند الغربيّة مَلَيْبار ومنها إلى جزر لنحيالوس (نيكوبار) ثم إلى مملكة الزابِج (صومترا) ومنها بعد قطع مضيق ملقه Malacca الى مملكة صنْف (Tchampa) بسواحل فيتنام ثمّ خانفو (Cantou)

(15) بدأ الانطواء على الذات مع الحروب الصليبيّة في القرن الخامس للهجرة الحادي عشرم

ا النظرة إلى المحيط الطبيعي :

إنهم قلمّا يهتمون بالطبيعة ومناظرها والحال أنّ البلدان التي زاروها تختلف من هذه الناحية عن أوطانهم فجبال الثُّبَت لا تثير مشاعرهم ويكتفون في وصفها بملاحظة جافّة « وفي بلادهم جبال بيض ليس ، شيء أطول منها» (الفقرة 31) والجبال الأخرىَ المذكورة في النصّ لا تستوقف نظرهم إلاّ لآرتباطها بمعتقد ، - جبل الرّهون بسر نديب (سيريلنك اليوم) الذي يقال إن آدم نزل به [16] أو لأمر يبدو لهم عجيبا - جبل قرب صومترا يظهر منه لهب ويخرج منه عين باردة وعين حارّة[17]- أو لاحتوائها على معدن نفيس[18]. والغابات المشهورة مثل غابات مليبار والزّابج لا تستوقف هي كذلك نظرهم فلا يقولون عنها شيئا ولكنّهم يهتمّون بالمواد التجاريّة المستخرجة منها والمصّدرة الى العالم الاسلامي كالعود والكافور والبَقَّم وهم لا يولون أهميّة إلى النباتات والحيوانات رغم وجود أنواع تختلف عن التي يعرفونها فلم يصفِوا إلاّ السّاخ (الشاي) بالصّين والكركدن لأمر فيه عجيب إذ هو على زعمهم قطعة واحدة لا مفاصل له « وفي قرنه علامة صورة خلقة كصورة الانسان في حكايته كلّه أسود والصّورة بيضـــــاء ، في وسطه » (الفقرة 28) .وهذا القرن مصدر ربح وافر إذ تصنع منه مناطق « تبلغ المنطقة الواحدة ببلاد الصّين ألفي دينار وثلاثة آلاف وأكثـر على قَـدر حسن الصّـورَة » (ف 28) والمعلومات عن المياه قليلة نذكر منها على سبيل المثال تلك التي سيقت في المقارنة بين الهند والصّين « وأنهار البلدين جميعا عظام فيها ما هو أعظم من أنهارنا والأمطار بالبلدين كثيرة » (ف 72) إنّ هذه الملاحظة تُوحِي بالخصب وبدورِ الانهار في ميداني الفلاحة (الري) والتجارة (الملاحة النهرية) ولكنها تبقى جافّة فلا يعنى المخبرون بمعرفة أسماء هذه

(16) الفقرة 5 .

(17) الفقرة 20 .

(18) الفقرة 9 .

الأنهار ومصادرها ومصابّها والأراضي التي تشقّها لأنّ مشاغلهم غير مشاغل الجغرافيّين وما قالوه عن البحر وإن كان لا يخلو من عنصر العجيب يعبّر من مشاغل التاجُر فقد وصفوا بكثير من الدقّة الإعصار في المحيط الهندي (ف 20) والمدّ والجزر في الخليج العربي الفارسي وبحر الصّين (ف 17) واهتمامهم بمثل هذه الظواهر الطبيعيّة لم يكن فقط لغرابتها بل لأنّها تؤثر في حركة الملاحة فالإعصار عقبة كؤود والجَزر يحول دون إرساء السفن في الموانى غير العميقة أمّا عنصر العجيب فيمثله بعض الحيوانات كالوال وجرادة البحر واللشك وغيرها (ف 1 ـ 2 ـ 3 ـ 19) .

وخلاصة القول في هذا الغرض الكبير الأوّل هي أنّ نظرة المخبرين تحكمها المنفعيّة ولا غرابة في هذا وهم تجّار وبدرجة ثانية العجيب بأنواعه المختلفة : العجيب الدّيني (جبل الرّهون) والعجيب المتولد عن المبالغة (Hyperbolique) أو عن الجمع بين الأضداد (الحرارة والبرودة) وهم في هذا لا يختلفون عن أهل عصرهم .

II النظرة إلى البشر :

إنّ المادّة في هذا الغرض غزيرة ومتنوعة لكن لم تحظ كل البلدان المذكورة بنفس العناية فكان للهند وللصّين بالخصوص نصيب الأسد .

ففيما يخص التنظيم السياسي لا يهتمّ الرحالة غالبا إلاّ بالقمّة أي الملوك ومؤسسة الملك عندهم مؤشر من مؤشرات التحضّر ولذلك يحرصون على التمييز بين البلدان التي على رأسها ملك والبلدان (الجزر) التي ليس بها ملك . وملاحظاتهم في شأن الملوك تَسْتَقطِبُها ثلاثة محاور : درجة عظمتهم المُتَمَثلة في سعة المملكة والقوّة العسكريّة وعلاقتهم فيها بينهم وهي علاقات سلم إلاّ في الهند [19] وأخيرا موقفهم من المسلمين فيميّزون بين الملوك الذين

---

(19) ورد في النصّ « فبلّهروا حوله ملوك كثيرة يقاتلونه ولكنّه يظهر عليهم » (ف 25) وبلّهرا ملك سواحل الهند الغربيّة من بومباي إلى مدينة قُوَا (Goa) وكذلك منطقة دكّان (Dekkam) أمّا بقية الملوك المذكورين فهم ملك الجُزر بوادي السند وملك الطاقي (كشمير) وملك دَهَرْم بالبنغال .

" يحبّون المسلمين " ويحسنون معاملتهم مثل بَلْهَرا وملك الطاقي والملوك الذين يعادونهم مثل ملك الجُرْز على أن هذا الإهتمام بالقمّة لا يعني أنّهم يقفون دوما عند السّطح ففي حديثهم عن الصّين والهند مقابلة بين الوضع السياسي في كلّ من البلدين فالهند مقسّمة إلى ممالك متناحرة في حين أن الصّين التي يحكمها ملك واحد بلد مستقرّ آمن ومنظّم إداريّا تنظيما تراتبيّا محكما فعلى رأس كل مدينة كبيرة أمير وَالٍ يَهْتَمُّ بالشؤون الادارية وخصِيّ يُعنَى بالشؤون الماليّة وتحت كل مدينة كبيرة مدائن لكل منها وال وخصيّ واسم الأمراء الوُلاّة على قدر المدائن [20] هذا الإهتمام بالوضع السياسي والإداري يفسّره انتماء الرحّالين الإجتماعي إذ التجّار حريصون على معرفة أحوال البلد الذي يحلّون به حتى يطمئنوا على نفوسهم وأموالهم ولكن يمكن أن نردّه كذلك إلى انشغالهم بوضع الخلافة التي دخلها الوهن فكانوا يتوجسّون خيفة من انفصال بعض الأقاليم عن السّلطة المركزيّة ببغداد بعد إطلاعهم على ما يحدث في الهند .

وفي ميدان القضاء فإنّ المعلومات مقصودة على الصّين والهند فالإمبراطور بالصين هو مصدر السلطة القضائية يفوّضها إلى قاضي قضاة يعيّن لكلّ مدينة قاضيا على أن القاضي لا يتفرّد بالقضاء فالوالي أيضا يجلس للحكم بين الناس ولكنّ النصّ لا يوضح النوازل التي يرجع فيها النظر إلى القاضي وتلك التي هي من مشمولات الوالي ولا شكّ أن الرحّالين تفطنوا إلى وجوه الشبه بين هذا النظام والنظام القضائي في الإسلام على أنّ ما شدّ انتباههم هو المغاير كحدّ السرقة وقطع الطريق الذي هو القتل في الصين والهند والامتحان بالنار لإثبات البَيّنَة أو عدمها بالهند [21] والاعتماد على الوثيقة المكتوبة دون الشهادة الشفويّة بالصّين وأخيرا فإنّ انشغالهم بوضع المسلمين في البلاد التي

---

(20) يسمّى والي المدينة الكبيرة دَيْفُو وَ وَالي المدينة الصغيرة طوُشى (ف 23).

(21) الفقرة 50 - يطلب من المتّهم أن يغمس يده في زيت حارّ جدّا فإن لم يُصِبْه أذى عدّ بريئا وإذا تلفت يده ثبتت عليه الدّعوة .

زاروها يُفسّر حرصهم على معرفة هل أنّ القضاء بين المسلمين يقوم به رجل منهمّ طبق الشريعة كما هو الشأن في الصين (ف 12) أمّ لا .

وفي ميدان الإقتصاد تكثر الملاحظات حول الأثمان (ف 28 ـ 34) والعملة ـ الودع بجزر المهل ملديف اليوم ومملكة دهرم ، والدّراهم بمملكة بلّهرا والفضة التبر بمملكة الجرز والفلوس من نحاس بالصّين (ف 4 - 25 - 26 - 28 - 34) - ونوع المعاملات ـ البيع والشراء بالعملة في أغلب البلدان والمقايضة بجزر لنجبالوس نيكوبار اليوم ـ وأخيرا حول القانون التجاري بالصّين الذي أطالوا فيه الحديث ليبرزوا صرامته وعدله في آن واحد فالدّولة تأخذ من البضاعة المستوردة الثلث ولكنها مقابل هذه الضريبة الثّقيلة تضمن للتجار الأمن والمعاملة العادلة فإذا احتاجت إلى بضاعة أخذتها بأغلى الثمن و « عجّلت بدفعه » (ف 34) و « إذا دخل البحريّون قبض الصينيّون متاعهم وصيّروه في البيوت وضمنوا الدّرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريّين » (ف 34) حتى يكون سعر بضاعة عند البيع واحدا وجاحد الدين إذا أقيمت عليه الحجّة وضرب ضربا قد يودي بحياته ويلزم بدفع ما يقارب عشرين ألف دينار (ف 44) وإذا أفلس تاجر عوقب أشدّ عقاب وسدّدت الدّولة ديونه وحرّمت عليه تعاطي التجارة (ف 45) وإذا ضاع من مال المسافر شيء ردّ إليه ومتى مات ردّ ماله كلّه إلى ورثته من بعده (ف 43) .

ويقابل هذا الاهتمام بالميدان التجاري إهمال لميداني الفلاحة والصناعة فلا نجد في النص شيئا عن القانون العقاري والأداءات [22] ولا عن عمّال الأرض والأشغال الفلاحيّة وإن كانت الفلاحة عندهم مقياسا من المقاييس المعتمدة في تعيير البلدان [23] وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصناعة فلا حديث عن الحرفيين

(22) لفت انتباه الرحالة أن لا ضريبة على الأرض بالصّين (ف 49) وهذا مغاير لما هو محمول به في البلاد الإسلاميّة .

(23) يعتبر الرحّالون أنّ الصّين اجمل من الهند لكثرة الأراضي المخدومة (ف 72) .

وحياتهم وأشغالهم وتقنياتهم في تحويل المواد الأوّلية فالرحّالون بوصفهم تجارًا، لا يعنون إلاّ بالبضاعة الجاهزة وبالخصوص المنتجات الجيّدة مثل النسيج بجزر المهل ومملكة درهم والحرير والعقار بالصّين أو تلك التي تصدّر إلى العالم الإسلامي كالحرير والبقّم والعود والكافور والفلفل والمعادن النّفيسة .

والمعطيات الخاصّة بالتنظيم الاجتماعي مقصورة هي أيضا على الهند والصّين وقد لفتت انتباه الرحالة لأنها غريبة عنهم ففي الكتاب فقرة (53) موضوعها الطبقات المغلقة بالهند لكن لم تذكر منها إلاّ طبقتان : طبقة البراهمة وهم رجال الدّين والعلم وطبقة الكَتَشْرِيّة ومنها الملوك والممارسون للسّلطة السياسيّة وغابت طبقة الفَيْشِيّة ومنها الفلاّحون والتجار وطبقة الشُودْرا ومنها الحرفيّون ولعلّ هذا الغياب راجع إلى سهو ولكن نرجّح أن يكون مردّه الاهتمام بالقمّة مثلما هو الحال في حديثهم عن التنظيم السياسي أمّا عن الصّين فقدا سترعى انتباههم العدل الإجتماعي « فالفقيرو والغنيّ من أهل الصّين والصغير والكبير يتعلّم الخطّ والكتابة » (ف 36) والفقير يعطى ثمن الدّواء من بيت المال » (ف 46) «والرّجل إذا بلغ ثمانين سنة لا تؤخذ منه الضريبة على الرّأس ويجرى عليه من بيت المال ويقولون أخذنا منه شابّا ونجري عليه شيخا » (ف 47) .

ويجنى القارىء من الكتاب معطيات كثيرة عن الحياة اليوميّة والعادات على أنّ أغلب هذه المعطيات قد احتفظت بها ذاكرة الرّحالين لكونها تختلف عن مظاهر الحياة اليوميّة وعن العادات في بلاد الإسلام من ذلك مثلاً أن أهل جزيرة رامني طعامهم الأساسي النارجيل وبه يتأدّمون ويدهنون أجسامهم (ف 6) وأنّ الصينيّين يشربون الشاي (ف 41) والنبيذ المعمول من الأرزّ (ف 22) ويلبسون الحرير صيفا وشتاء (ف 21) ويسكن أغلبهم بيوتا من خشب (ف 60) وأنّ أهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون في المواكب بأسورة الذهب والجوهر رجالا ونساء (ف 72) ويظهر الاهتمام بالمغاير بصفة أوضح في الحديث عن العادات التي تدور الملاحظات في شأنها حول محورين الأوّل المرأة والزواج والثاني الرّسوم المتبعة عند موت ميّت .

ففي جزيرة نيان لا يتزوّج الواحد منهم إلاّ بقحف رأس رجل من أعدائهم وعلى عدد مقتوليه يكون عدد زوجاته (ف 6) والمرأة في الصّين تخرج حاسرة الرّأس وتجعل في شعرها الأمشاط من العاج (ف 23) والرّجل في هذا البلد يمكنه أن يتزوج ماشاء من النساء وكذلك في الهند (ف 57 ـ 61) وأهل الهند لا يأتون النساء في الحيض ولكنهم يخرجونهنّ عن منازلهم تقززا في حين أنّ أهل الصّين يأتونهنّ في الحيض ولا يخرجونهنّ (ف 71) وفي المحور الثاني سجّل الرحّالة أنّه بالهند يحلق الرجال رؤوسهم ولحيهم حزنا على الميّت (ف 65) وأنّ الميّت يحرق وإذا كان من الملوك ربّما تدخل نساؤه في النار فيحترقن معه (ف 51) .

أما في الصين فيُحنّط الميّت ويجعل في تابوت ويبقى في المنزل سنة كاملة وفي كلّ هذه المدّة لا يقطع أهله عنه الطعام ولا ينقطعون عن البكاء ومن لا يبكي من الرجال والنساء ضرب بالخشب حتى إذا ما انقضت سنة على موته دفن في ضريح كضريح العرب (ف 35) .

وبقي في غرض البشر عنصر أخير المعتقدات ففيه قلّت الملاحظات وكانت خاطئة [24] باستثناء واحدة نزاها جديرة بالوقوف عندها جاء في النصّ « وليس لأهل الصّين علم وإنّما أصل ديانتهم من الهند وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البّددة وأنّهم أهل الدّين وأهل كلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم » (ف 72) هذه المعلومة صحيحة فيما يخصّ الدّيانة البوذيّة [25] التي كانت ولا تزال إحدى الديانات بالصّين فالبوذيّة قد استعارت فعلا الكثير من الهِنْدُوكيّة من حيث الأصول فهي مثل سابقتها تقول بتداول العالم بين الاختفاء والظهور وتداول الروح بين السموّ والانحطاط

(24) في الفقرة 70 شبّه دين الصّين بالماجوسيّة .

(25) ظهرت هذه الديانة على يد بوذا في شمال الهند وبالضبط في إقليم النبال في القرن السادس قبل الميلاد ثم دخلت الصين في القرنّ الثاني بعد الميلاد وكتابها هو تريبتكا (Teiptaka) ومعنّى الكلمة السلاّت الثلاث .

وتنقلها من جسد إلى آخر وبتحرّرها من هذا الوضع بفضل النِيرْفَانــــــا (الطمأنية القصوى) ولكن كما قلنا لم تكن البوذيّة الدّيانة الوحيدة بالصّين بل كانت هناك ديانة كنفوسيوس [26] ودين آخر هو التــــاوويّة (Taoisme) [27] وهما معا يكوّنان ركيزة الفكر الصيني آنذاك . فكيف يمكن تفسير غياب هذين الدّينين في النصّ وقلة عناية أصحابه بمعتقدات الغير بصفة عامّة ؟ الرّأي عندنا أن مستواهم الثقافي وإيمانهم بأنّ دينهم هو الدّين الحقّ حالا دون التعرّف على معتقدات الآخر بصفة جديّة وعميقة .

إنّ المعلومات في غرض البشر كثيرة ومتنوّعة ولكن الرحّالة لم يُقيّدوا إلاّ ما رأوه جديرا بالتقييد ويرجع هذا الانتقاء إلى عاملين اثنين :

- مشاغلهم بوصفهم تجارا ولذلك عنوا بما يقصل بميدانهم وأهملوا عالم الفلاحين والحرفيّين .

- نظرة يجلبها بالخصوص المغاير المكوّن لخصوصيات الآخر وقد أوردنا أمثلة كثيرة .

وما يلاحظ في هذه النقطة الأخيرة غياب الأحكام المعياريّة إلاّ في موضعين ففي الحديث عن سكّان جزيرة نيان استعملت كلمة توحّش لأن هؤلاء يأكلون لحم الإنسان نيّاءا ويعيشون في الآجام والمهر عندهم قحوف رؤوس أعدائهم وفي الحديث عن ديانة الصّين قالوا : « إنّ أهل الصّين يعبدون الأصنام ويزعمون أنّ البددة تكلّمهم وما يكلّمهم إلا خدّامها " (ف 70) وفي هذا القول حكم معياري تهجيني » يفهم منه أن الدّين هنا دين فاسد لأنّه دين شرك وبآستثناء هذين الحكمين فإنّ موقف الرحّالين يتسم بالموضوعيّة والتسامح ففي

---

(26) ظهر هذا الدّين بالصّين في القرن السّادس أو الى الخامس قبل الميلاد وكتابه عنوانه " أحاديث " وهو مجموعة أقوال كنفوسيوس فيما يبدو جمعها تلامذته .

(27) نسبة إلى الكتاب الأمّ لهذا الدّين Tao to king وهو مجموعة من القواعد الممهّدة لبلوغ المثل الأعلى في الحكمة وقد ظهر هذا الدّين هو أيضا في القرن السّادس أو الخامس قبل الميلاد والهندوكية والبوذية والكندوسيانيّة والتاوويّة أديان غير سماويّة .

أخبارهم تبرز حضارة الآخر المادّية وغير المادّية فللهند الفلسفة والطبّ وعلم النجوم وللصيّن علم النجوم والطب (ف 72) والعمارة بالصين والهند ثابتة الأركان فالمدن كثيرة والفلاحة مزدهرة والصناعة تدلّ على تقدّم تقنى هام ومهارة فائقة وبالصّين نظام سياسي وإداري محكم يضمن الاستقرار والأمن وبها أيضا تمارس سياسة اجتماعية عادلة ويتجلّى التّسامح في وصف العادات فحتى تلك التي من شأنها أن تثير فيهم الاستغراب والتشنيع مثل حرق الميّت وتحنيطه ثمّ دفنهُ بعد سنة بالصّين فهي تذكر في لهجة هادئة ودون أيّ تعقيب أو تهجين .

على أن هذا لا يعني أنّ نظرة الرحالة تحرّرت من قيود الذات وأنّ الانفتاح على الآخر كان محليّا فبالإضافة إلى قيد الدّين الذي حال دون فهم معتقداته وثقافته في معنى الكلمة الشّامل يتجلّى انشدادهم إلى الإسلام أمّة وثقافة في عدّة مواطن من ذلك اهتمامهم كما رأينا بعلاقة البلدان الأجنبيّة بالعالم الإسلامي وبوضع المسلمين بها وعنايتهم في مجال التجارة بما يمكن أن يجْنيه عالمهم من الشرق الأقصى [28] ويظهر التمركز على الذات كذلك في عملية تسجيل المعطى التي تمرّ عن وعي أولا وعي عبر مرجعيّة نظامهم الثقافي إذ تكثر المقارنات الصريحة والضمنيّة فمن المقارنات الصريحة قولهم « فأمّا الصين فعطأوهم [للجند] كعطاء العرب » ف (72) وقولهم « وهم [الهنود] يستعملون المسواك كالعرب » ف (72) والمقصود بالعرب المسلمون . ومن المقارنات الضمنية « ولا يختتن أهل الهند والصين » (ف 72) وأهل الصين « لا يلبسون العمائم » (ف 21) وقولهم « والهنود لا يشربون الخمر تديّنا بل أنفة » (ف 46) .

---

(28) في مجال التجارة لا يعنَى الرحالة إلاّ بما يستورده العالم الإسلامي من الشرق الأقصى وكأنّ هذا الأخير لم يُوجَد إلا لتزويد البلدان الإسلاميّة بما تحتاجه فلا حديث عن صادرات العالم الإسلامي إلى الشرق الأقصى ولا عن التبادل التجاري بين البلدان الأجنبية المذكوة باستثناء حالة واحدة تخصّ واردات الصّين من الأقاليم المجاورة (ف 34) .

لكن التمركز على الذات قلّما يفضي إلى الاستعلاء والتحقير وهذا الموقف نادر في القرون الوسطى التي اتسمت بالتعصّب الدّيني ورفض الآخر .

وأخيرا نَوَدّ الإلحاح على أمر وهو أن هذا العمل عمل جزئي يندرج في ميدان واسع فمحاصَرة نظرة المسلمين إلى العالم الأجنبي في القرون الوسطى تتطلّب عدّة دراسات محدّدة بالزمن وخاصّة بفئات إجتماعية مختلفة لأنّ النظرة بحكم انتماءات المخبرين وآفاقهم الفكريّة تختلف على الأقلّ في بعض جوانبها فلا يمكن أن نتحدّث بصفة موضوعيّة عن التواصل أو التغيّر في هذه النظرة مالم تنجز هذه الدّراسات .

دكتوراه الدولة (تابع)

الإسم	الموضوع	تاريخ المناقشة	الجامعة
فيصل الغول	La police parisienne dans la seconde moitié du XVIII siècle (1760-1785)	15 ماي 1993	جامعة ران II (فرنسا)
منيرة شابوطو الرمادي	Etre Mamluk au XIIIe et XIVe siècles J C	10 نوفمبر 1993	جامعة أكس ان بروفانس (فرنسا)
محمد توفيق النيفر	الحياة الأدبية في افريقية في العصر الفاطمي (296 هـ - 362 هـ)	13 أفريل 1994	جامعة تونس I
فرحات الدريسي	الكمياء والكميائيون في التراث العلمي العربي الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجريين : مشروع قراءة التراث العربي الإسلامي الكيمياء نموذجا .	20 أفريل 1994	جامعة تونس I
كمال عمران	الانسان ومصيره في الفكر العربي الإسلامي الحديث من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي إلى الحرب العالمية الثانية .	27 أفريل 1994	جامعة تونس I
سمير المرزوقي	Le Bestiaire de Guillaume Apollinaire	27 أفريل 1994	جامعة كلارمان فاران II (فرنسا)